سلسلة
أعلام
الإسلام
1

عبد الحليم الجندي

الإمام محمد عبده



سلسلة
أعلام
الإسلام
(١)

الإمام محمد عبده

المستشار
عبد الحليم الجندي

الطبعة الثانية



دار المعارف

المؤلف

المستشار عبد الحليم الجندى

- الرئيس السابق لإدارة قضايا الحكومة فى جمهورية مصر العربية .
- رئيس لجنة تجلية مبادئ الشريعة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- عضو مجمع البحوث بالأزهر .
- عضو لجنة الشريعة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب .

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة السلسلة

لعل السير أصعب فرع من فروع التأليف ، فهى تتطلب من كاتبها دقة المؤرخ وتحريه الحقيقة ، وطموح الروائى الذى يسعى إلى أن يبدع أثرا من آثار الفن الرفيع ، ثم إن مهمة كاتب السير تختلف عن مهمة المؤرخ ، فهو يتناول حياة شخص بعينه ، أى أنه يعالج الطبيعة البشرية بأغوارها العميقة ونوازعها المعقدة ، ومساربها التى تحار البرية فيها ، وقدرتها على السمو إلى أرحب الآفاق وأعلاها ، والتدنى إلى أحط ما تهوى إليه الوحوش من قسوة وفظاعة . فالسيرة إذن فن سام ، والتفرقة بينها وبين التاريخ تفرقة حديثة ، وربما كان بلوتاخ نفسه ، وهو أعظم كتاب السير فى العصور القديمة ، لم يدرك إمكان قيام السيرة من حيث هى فن مستقل من فنون الأدب .

والسيرة الجيدة تتطلب من الكاتب أول ما تتطلب أن يحب الشخصية التى يكتب عنها ، وليس من المفروض فيه أن يدافع عن هذه الشخصية بالحق أو بالباطل ، وإنما المطلوب منه أن يحللها ويتقمصها ويصورها للقراء فى صورة جياشة ، ويجليها لهم كأنهم يرونها رأى العين ، ويحسون بأحاسيسها ، ويشعرون بنوازغها ونزعاتها ويعيشون حياتها .

ومن هنا أصبح للسير شأن فى التاريخ وفى إمتاع القارئ ، بل هى قد غدت مذهبا فى دراسة التاريخ ، لأن فى دراسة علم من الأعلام دراسة لعصره وبيئته والشعب الذى نشأ فيه ، ورؤيته للأحداث ، وخبرته بالناس وأثره فيهم وتأثره بهم ، ومعالجته للمشكلات والخطوب ، بل إن فيها إلى جانب المتعة عبرة وأسوة ينشأ عليهما الشباب ، وتزيدهم انتماء الى بيئهم ووطنهم .

والإسلام غنى برجالاته وعظمائه وأعلامه . ولا شك أن ميدان الكتابة عنهم ميدان رحب لم يبذل فيه من الجهود الموفقة إلا القليل ، مع أن علماء الغرب المنصفين أنفسهم قد أشادوا أيما إشادة بهؤلاء الأعلام الذين تفخر بهم أى أمة .

ويسعد دار المعارف أن تسهم بنصيب فى هذا الميدان فتصدر سلسلة أعلام الإسلام .

ومن أمارات التوفيق أن تبدأ هذه السلسلة بزعيم حركة الإصلاح الحديث فى مصر الأستاذ الإمام محمد عبده » وحسبنا أن نقول إنه ما من حركة من حركات الإصلاح فى أى ميدان من ميادينه إلا وتعود إليه . وما أحوجنا الآن إلى دراسة سيرته العطرة ونحن على أبواب تغيير شامل يهدف إلى إعادة بناء الإنسان المصرى بعد أن ظهرت تباشير السلام وتبينت لنا مقتضياته وما يتطلبه من جهود كل من يظله هذا الوطن الكريم ألا وهو « مصر الخالدة » .

المستشار الثقافى للدار

إبراهيم زكى خورشيد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بهذا الكتاب تختتم تراجم سبعة بدأت بأئمة الفقه الأربعة لأهل السنة ، فالإمام جعفر الصادق إمام الشيعة فالإمام محمد بن عبد الوهاب ، ليظهر للمعاصرين بالطريقة الشخصية من حياة الأئمة ، والطريقة الموضوعية من أفكارهم ، على اختلاف طرائقهم ومواقعهم ، « أن العقيدة الإسلامية نظرية وتطبيقاتها » ، وأن شريعتها هى الكمال الفكرى فى وضعه البشرى .

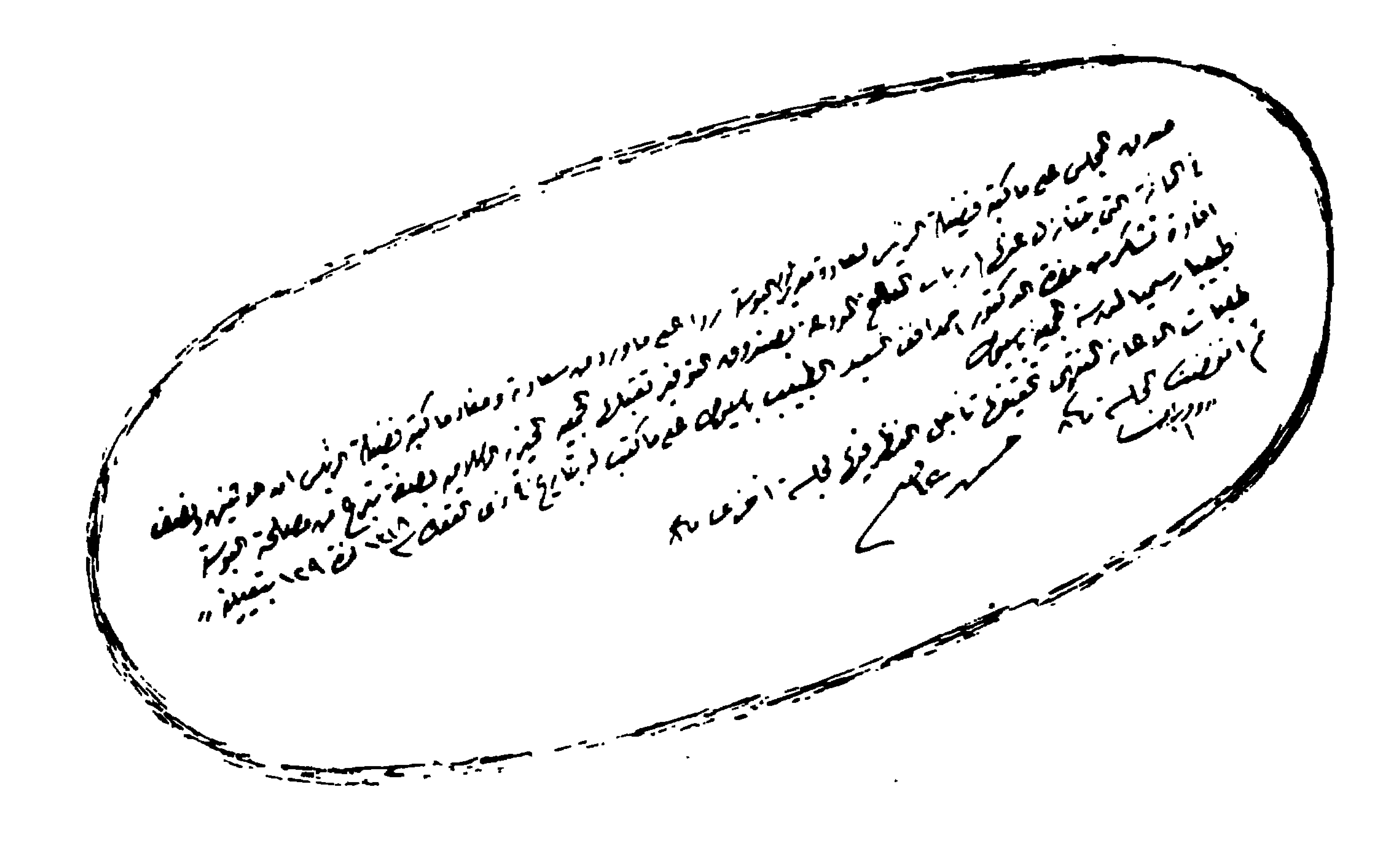
وفى الأعوام المائة التى تعرض لها الصفحات التالية دليل على إمكان التقدم وإن حمل راياته بضعة رجال يجثم على صدر بلادهم جيش الاحتلال .

كان محمد عبده يسراً كله . حيى حياته فى زمن المطبعة ، وتعلقت الأبصار به ، فلا تكاد تخفى من حياته العامة واقعة لم يسجلها قلمه أو أقلام معاصريه أو معاصريهم . وفى شخصيته من النظام والتدفق ، اللذين يتناغمان بوضوح ومنطق ، مايلزم الكاتب اصطحابه فى مراحل حياته منذ قادته الحرية الغريزية فيه إلى حلقة جمال الدين . ومنها إلى الصحافة فالثورة فالحرب فالمنفى وأجاءه المنفى إلى مشيخة القضاء . وهناك تجلى فى كل أفق وآلت إليه مشيخة الإسلام .

وعلى هذا النسق تتتابع أبواب هذا الكتاب .

* * *

ياشباب الأيام التى نرتجيها للإسلام . هؤلاء آباؤكم صنعوا لكم ما بين أيديكم . وسيسألكم بنوكم . فاعملوا ، لتقولوا لهم : لقد حملنا المشاعل فى انتظار ضوء النهار .



صورة من تبليغ حسن باشا عاصم لقرارات مجلس الإدارة برياسة الأستاذ الإمام

الباب الأول

بزوغ نجم

١٨٤٩ - ١٨٧٩

١٢٦٥ - ١٢٩٦

(النظر واجب بالإجماع .
فإياك إياك أن تجعل العجز فطرة)
محمد عبده

إذا كان الطفل أبا الرجل ومن سجايا الصبا مايدخل القبر مع الشيخ الهرم ، فإنه لا اجتهاد مع النص الوارد عن الإمام فى مذكراته :

(أصبت نجاحاً كثيراً فيما عنيت به . أخفقت فى كثير مما وجهت عزيمتى إليه ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز فى طبعى وشىء منها مما احتف حولى وطائفة منها من أصالتى وخطلى . ومن الذى يستطيع أن يفصل ذلك غيرى حتى يكون إن شاء الله عبرة لمن يأتى بعدى ؟) .

فلنستمع إلى حديثه عن نشأته وطبعه وبدايات خطوه . فهذه هى النواة أم النخلة :

(تعلمت القراءة والكتابة فى منزل والدى ثم انتقلت إلى دار حافظ للقرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة . ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين أدركنى فى ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاءا من مكتب آخر ليقرآ القرآن عند هذا الحافظ ظناً منهما أن نجاحى فى حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه الله ، لأجود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة قرائه بفنون التجويد . وكان ذلك فى سنة ١٢٧٩ الهجرية .

وفى سنة ١٢٨١ هجرية جلست فى دروس العلم وبدأت بتلقى شرح الكفراوى على الآجرومية فى المسجد الأحمدى بطنطا ، وقضيت سنة ونصف سنة لا أفهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم ، وأن المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لانفهمها ولا عناية لهم بتفهيم معانيها لمن لم يعرفها .

وهربت من الدروس واختفيت عند أخوالى مدة ثلاثة أشهر ، ثم عثر على أخى فأخذنى إلى الجامع الأحمدى وأراد إكراهى على طلب العلم فأبيت . . . فأخذت ماكان لى من ثياب ومتاع ورجعت إلى محلة نصر على نية ألا أعود إلى طلب العلم . وتزوجت فى سنة ١٢٨٢)

ثم يعلق بقوله :

(فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر . وهو الأثر الذى يجده ٩٥٪ ممن لايساعدهم القدر بصحبة من يلتزمون هذه السبيل فى التعليم ، سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعى المتعلم ودرجة استعداده للفهم . غير أن الأغلب من الطلبة لايفهمون أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً . فيستمرون على الطلب إلى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى أحلام الأطفال . ثم يبتلى الناس بهم وتصاب بهم العامة) .

وهذا الذى يحدثنا به أول الحديث يُحْدثه فى النفس نص ذلك الدرس الأول فى شرح الكفراوى على الآجرومية (بسم الله الرحمن الرحيم : الباء حرف جر . واسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة فى آخره . والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أؤلف . وأؤلف فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم . والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره أنا . هذا إن جعلت الباء أصلية . وإن جعلتها زائدة فلا تحتاج إلى متعلق به .

ويقول فى الإعراب حينئذ : واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد . والخبر محذوف تقديره اسم الله مبدوء به)

* * *

وأول ما نستفيده من الواقعة والتعليق عليها أن الطفل المولود فى سنة ١٢٦٥هـ — ١٨٤٩م تعلم القراءة فى دار أبيه حيث كان نزوعا للعلم وجاه أورفاه ، منذ قرأ القرآن على حافظ ولم يشارك الآخرين إلا بعد أن سبقها بقراءة شاملة .

وسيبقى فيه من آثار ذلك القدرة على العمل والمبادرة به وحده ، والاستعداد الكامل لما يتصدى له . وستتلألأ فى ألفاظه وأسلوبه آثار التجويد ، فتحلو العربية على لسانه حلاوتها فى آذان سامعيه وأذهان قرائه ، ويبلغ بأسلوبه أعلى مستويات البلاغة .

ولا يلاحظ تأخره فى الجلوس للدرس فقد جاءه حافظاً ومجوداً للقرآن . وهاتان درجتان تشرئب إليهما أعناق الطلبة . وحفظ القرآن مدخل لكل العلوم وخاصة الفقه وعلوم اللغة .

وإنما يلاحظ هربه واختفاؤه ، وإصراره على الانقطاع وتصفية المتاع وإحصان نفسه بالزواج ، والامتناع عن العودة إلى طلب علم لاينفع . فهذه أمارات أمور كلية فى غريزته :

● أولها استقلال الإرادة وإعلانها وفرضها على أخيه وأبيه وذويه ، «فالحرية الفكرية أو الشخصية» فطرة فيه . يستمسك بها لنفسه ويسلم بها لغيره ويعلمها للجميع . ويعلنها ركناً ركيناً للإسلام ، ويطالب بها لبلاده .

● أما الثانى فيلاد هذه العزمة الصادقة فى المعهد الدينى ، ومن جراء العلوم التى تدرس فيه . فسنراه – من وحدة شخصيته واطراد فكره – يجعل «إصلاح التعليم الدينى واللغوى والقضاء الشرعى» رسالة حياته .

● وأما الثالث فهو منع «الصدمة» من أن تعطل العقل أو العمل لتنافر «الغايات» النبيلة و«الوسائل» البالية . فإذا كان الدرس غير مفهوم تعين إحداث التفاهم بإصلاح حال المدرس ، لا الصياح فى وجه المجتمع . ومن أجل ذلك سينشرح صدر الفتى الثائر فى الجامع الأحمدى لكل ماهو عصرى ، تأذن به الشريعة ، ويمسى «التطور» وسيلة يتوسل بها أو غاية يتغياها .

ولانستطرد فى الاستنباط من موقف سلبى للصبى . ولنتابع الترجمة الذاتية للعمل الإيجابى الذى تهب به السماء موهبة لرجل هو هبة لأمة :

الشيخ درويش :

بعد أن تزوجت بأربعين يوماً جاءنى والدى ضحوة نهار وألزمنى بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم .. وأصحبنى والدى بأحد أقاربى وكان قوى البنية شديد البأس .. فقلت لصاحبى : أما مداومة السير فلا طاقة لى بها .. وأجريت الفرس هارباً من مشادته وقلت إنى ذاهب إلى كنيِّسة أورين – بلدة غالب سكانها من خؤولة أبى – وقد فرح بى شبان القرية لأنى كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح ..

وبقيت فى هذه القرية خمسة عشر يوماً تحولت فيها حالتى ..

ذلك أن أحد أخوال أبى ، واسمه الشيخ درويش ، سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا .. ووصل فى أسفاره إلى طرابلس الغرب ، وجلس إلى السيد محمد المدنى [1] .. ، والد الشيخ ظافر المشهور الذى كان قد سكن الآستانة وتوفى بها [2] ، وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية [3]

---

(١) ضريحه الآن فى مصراتة بليبيا .

(٢) محمد ظافر الطرابلسى من مشايخ الدرقاوية وهى طريقة شب فيها السنوسى ، وهو من نسل الإمام الحسن وفقيه مالكى ، وكان الشيخ ظافر مقرباً من السلطان عبد الحميد سلطان تركيا .

(٣) أتباع أبى الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ – وهو من نسل الإمامين الحسن والحسين . نشأ فى بلاد المغرب وساح فى البلاد الإسلامية واستقر بمصر حيث مات ودفن على شاطىء البحر الأحمر وكان فقيهاً درس الفقه المالكى .

وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ، ثم رجع من أسفاره إلى قريته واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاحة الأرض وكسب الرزق بالزراعة .

جاءنى هذا الشيخ صبيحة الليلة التى بتها فى الكنيِّسة وبيده كتاب يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى إلى بعض مريديه . . وسألنى أن أقرأ له فيها شيئاً لضعف بصره فرفضت طلبه بشدة . . ولما وضع الكتاب بين يدى رميته إلى بعيد . . لكن الشيخ تبسم ولم يزل بى حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر . فاندفع يفسر لى ماقرأت بعبارة واضحة ، تغالب إعراضى فتغلبه وتسبق إلى نفسى . . وبعد قليل جاءنى الشبان يدعوننى إلى «ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة» فى نهر قريب من القرية ، فرميت الكتاب وانصرفت إليهم .

بعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه وألح علىّ فى قراءة شىء منه فقرأت ثم تركته إلى اللعب . وفعل فى اليوم التالى كما فعل فى الأول . أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لى معانى ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أملّ فيها ، فقال لى إنه فى حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة ليعمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معى فتركه ، ومضيت أقرؤه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة . . وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته . وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبة فى المطالعة والميل إلى الفهم .

كانت هذه الرسائل تحتوى على شىء من معارف الصوفية . وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق ، وتطهيرها من دنس الرذائل ، وتزهيدها فى الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا .

لم يأت على اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شىء إلىّ ماكنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شىء إلىّ ماكنت أبغضه من مطالعة وفهم . .

وفى اليوم السابع سألت الشيخ : ماهى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا هى الإسلام .

فقلت : أو ليس كل الناس بمسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر ، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . .

سألته : ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصلوات ؟

قال : لا ورد لنا سوى القرآن . تقرأ بعد كل صلاة أربعة أرباع مع الفهم والتدبر . .

قلت : إنى لم أفهم القرآن ولم أتعلم شيئاً !

قال : أقرأ معك ويكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل . وإذا خلوت فاذكر الله . .

فلم تمض عليّ بضعة أيام إلا وقد رأيتنى أطير فى عالم آخر . . ولم أجد إماماً يرشدنى إلى ماوجهت إليه نفسى إلا ذلك الشيخ الذى أخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد . .

هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة أحد أقاربى وهو الشيخ درويش خضر . . وهو مفتاح سعادتى إن كانت لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا . .

وفى اليوم الخامس عشر مر بى أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرنى أن والدتى ذهبت إلى طنطا لترانى . . فأصبحت مبكراً إلى طنطا . .

وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٢ . . وجلست فى الدرس (شرح الزرقانى على العزيّة والشيخ خالد على الآجرومية) فوجدت نفسى أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله .

وفى منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الأزهر . . .

وفى أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب إلى «محلة نصر»[1] لأقيم بها شهرين من منتصف شعبان إلى منتصف شوال . . وكنت عند وصولى إلى البلد أجد خال والدى الشيخ درويش قد سبقنى إليه . . فكان يستمر معى يدارسنى القرآن والعلم إلى يوم سفرى . وكل سنة كان يسألنى ماذا قرأت فأذكر له مادرست فيقول : مادرست المنطق ؟ مادرست الحساب ؟ مادرست شيئاً من مبادئ الهندسة ؟ وهكذا . . وكنت أقول له : بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة فى الأزهر فيقول : طالب العلم لايعجز عن تحصيله فى أى مكان . . فكنت إذا رجعت إلى القاهرة ألتمس هذه العلوم . . إلى أن جاء المرحوم «السيد» جمال الدين الأفغانى إلى مصر أواخر سنة ١٢٨٦ هـ .

وقد صاحبته ابتداء من شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنده بعض العلوم الرياضية والحكمية والكلامية وأدعو الناس إلى التلقى عنه كذلك . وأخذ مشايخ الأزهر من طلبته يتقولون علينا الأقاويل[2] . . فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لى : (إن

---

(١) أوضح الإمام فى مذكراته أنها سميت باسم رجل كانت إقطاعاً له ، وأن جدود الإمام لأبيه كانوا يسمون بيت التركمانى ، وأن جدوده لأمه يقال إنهم يتصلون فى النسب بعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٢) جملة الأقاويل أنه يدرس فى بيته علوماً لاتدرس فى الأزهر. أولا يذهب إلى الأزهر. إلا يوم الجمعة . أو أن الكبراء والأمراء والطلاب يغشون دروسه ، أو أنه يحضهم على الكتابة فى الصحف وأنهم يكتبون فيها . ويضيف الشيخ محمد عبده (بقى علينا أن نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سألنا عن إغفاله . وهو أنه كان يتوسع فى إتيان بعض المباحات كالجلوس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفرج المحزونين لكن مع غاية الحشمة وكمال الوقار . وكان مجلسه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً عن اللهو وكان يوافيه كثير من الأمراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم – وهذا الوصف مما عده عليه بعض حاسديه . « لكن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه» وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يفرج بعض همه بما أباح الله له).=

الله هو العليم الحكيم . ولا علم يفوق علمه وحكمته . وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل . وماتقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة . فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه) .

* * *

وترى باديَ الرأى أن الرياضة الباكرة ستحفظ عليه العافية طول حياته . وأن السباحة ستعلمه الصبر الجميل والسبح الطويل بين التيارات المتدافعة . كما تعلمه الفروسية أن يتوازن وينضبط إذ ينطلق ، وأن يركض أو يسبق والناس يمشون ، أو يتخلفون . أما الرماية فعلمته البدار بالعمل بيده وفكره والتركيز على هدفه ، والاستعداد العصبي والذهنى . وكل أولئك من السنة[1] .

وترى أن الشيخ درويش أعاده إلى الجادة بالمثابرة والمصابرة ، وباليسر الذى يروض النفوس النافرة ، وبالطريقة المنجبة فى التربية والمنجحة فى الطب وهى استعمال عناصر الصحة الذاتية فى مقاومة عوامل المرض . إذ جعله يقرأ له . ثم تركه يقرأ لنفسه ، فتفتحت نفسه بنفسه . وكل ذلك منهج قرآنى هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة .

وأن الشيخ درويش أنقذه بالقرآن وفصل له طريقة فهمه . فالقرآن يخاطب العقل والفطرة للناس كافة ، إن علماء وإن جهلاء ، ويهب لكل قارئ معانى غضة (يكفيك أن تقرأ الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل) والفيض لايكون إلا لمن أخلص الدعاء وذكر الله ، ذلك قوله (وإذا خلوت فاذكر الله) . . وللشيخ درويش مستوى علمى وإن كان يخفيه – كدأب المتصوفة الأصلاء – فهو يحفظ الموطأ . وناهيك به وبصاحبه . فهو نواة فقه الإمام مالك بن أنس .

وأن الشيخ درويش خلص التلميذ من قيود التقليدِ البغيض إلى عالم التوحيد والزهادة والعبادة وإلى العمل بذلك كله . فتقشف وتهجد وتوجه من جهاد النفس إلى اجتهاد الرأى ، فراح يدق الأبواب التى سكّرها من قبل بيده . ثم يسعى بعد أشهر إلى الملأ الأعلى فى الأزهر فى فبراير سنة ١٨٦٦ (شوال ١٢٨٢) ، ثم ينطلق من علوم القرآن والحديث والشريعة واللغة إلى علوم أخرى لم تبق منها فى الأزهر إلا ذكريات . وبعد أن كان اعتزال الناس ديدناً له أصلح باله الشيخ درويش . قال فى المذكرات :

= وكانت بعض هذه المجالس فى قهوة متاتيا التى تقع خلف الأوبرا المصرية التى أقامها إسماعيل على شاطىء بركة الأزبكية التى ردمت وصارت حديقة كبرى تتنفس فيها القاهرة .

(١) وهو القائل ﷺ (علموا أبناءكم السباحة والرماية . . .) والقائل « كل شيء ليس من ذكر الله عز وجل فهو لعب إلا أن يكون أربعة : ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسه ومشى الرجل بين الفرضين وتعلم الرجل السباحة » وكان له عليه الصلاة والسلام فرس اسمه « سبحة » راهن عليه فجاء سابقاً فهش لذلك .

(لكن بعد مضى سبع سنين على ذلك والشيخ يقودنى فى سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره ، بالصوم تارة وبلبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى ، قال لى عندما رجعت إلى محلة نصر سنة ١٢٨٨ إلى متى هذه العزلة . .

فذكرت له اشمئزازى من الناس وزهادتى فى معاشرتهم وثقلهم على نفسى إذا مالقيتهم ، وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه إذا عرض عليهم . فقال لى : هذا من أقوى الدواعى إلى ماحثثتك عليه . فلو كانوا جميعاً هداة مهديين لما كانوا فى حاجة إليك . ثم أخذ يستصحبنى فى مجالس العامة ويفتح الكلام فى الشئون المختلفة ويوجه إلىّ الخطاب لأتكلم . فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وأنطلق فى القول على وجل فى أول الأمر . ومازال بى حتى وُجد عندى شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم .

وفى شوال من تلك السنة ودعنى وبكى بكاء شديداً . ومات فى السنة التالية ١٢٨٩ — ١٨٧٣م) .

هكذا صيرته آخرة لمسات شيخه ألوفاً مألوفاً ، بعد إذ أودعه سر التصوف الصادق : القرآن والسنة وقهر النفس والتزام القيام بالعمل الصالح . ووصاه بالعلوم الحديثة . .

فى الأزهر

يقول فتحى باشا زغلول فى تقرير لجنة إصلاح الأزهر المطبوع سنة ١٩١٠ : (جاء على الأزهر زمن ، العهد به قريب ، كان الكثيرون من أهله يعتبرون استبدال الحنفيات بالميضآت منافياً للدين ، وتعهد الكتب بالحفظ والصون فى مكان خاص مخالفاً للدين ، وتعليم العلوم الحديثة مفسداً للدين) !

وفى العهد الذى دخل فيه تلميذنا الأزهر كانت العلوم الشرعية مقصورة على الفقه والأصول والتوحيد والحديث والتفسير ، أما علوم العربية فهى النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع والمنطق . لكن الحساب يدرس فى غير أوقات العمل الرسمية !

وعندما نقارن هذا الثبت الضئيل من العلوم بما كانت تحويه إجازة الأزهر فى القرن الثانى عشر تظهر على فداحة الانحدار بالمستوى العلمى ، ومخاطر استمراره ، فقد كان فيها فوق علوم الفقه واللغة التى سلفت ، (علوم الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها ، وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة ، وعلم الأريثماطيقى وعلم المزاول ، وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن ، وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم

التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم) .

لكن مدافع الحملة الفرنسية أسمعت رجال الأزهر صوت أوربا ، كما كان علماؤها يدعونهم لزيارة معالمها ، ومن أبرز الذين زاروها الجبرتى المؤرخ[1] والشيخ حسن العطار .

ولد الشيخ العطار سنة ١١٩٠ هـ سنة ١٧٧٦م ومات سنة ١٨٣٥ م – ودرس الطبيعة والفلك والهندسة والمنطق والطب وبعض الميكانيكا وكان دائم الاطلاع على الترجمات – ولما أنشأ محمد على صحيفة الوقائع المصرية ولاه تحريرها ثم مشيخة الأزهر .

وقد وجدت بخطه هوامش على كتاب تقويم البلدان لأبى الفدا وطبقات الأطباء . وله تآليف فى الطب وغيره . لكن أثره الدائم هو اختياره رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ – ١٨٧٣) من بين علماء الأزهر ليكون إماماً للمبعوثين إلى أوربا وتكليفه أن (ينبه على مايقع فى هذه السفرة وعلى مايراه ويصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن يقيده ليكون نافعاً فى كشف القناع عن محيا تلك البقاع) . كما روى رفاعة بك . بعد أن مات الشيخ العطار سنة ١٨٣٥ .

ولم يأل رفاعة جهداً فى تنفيذ الوصية فأصبح مثالا لما يمكن أن يتطور إليه رجل الأزهر : أتقن الفرنسية وتعلم علوم أوربا ودعا إلى تعليم المرأة وكتب عن الثورة الفرنسية وعن تقييد النظام الملكى وترجم الدستور الفرنسى . وعلى يده بدأت حركة الترجمة الحديثة من علوم أوربا ونشأت مدرسة الألسن ابتغاء إعداد رجال جدد يديرون الحكومة العصرية ولتكون رأساً لنظام تعليمى جديد .

وهو يقول بعد أن يذكر علوم اللغة والفقه وعلماء الأزهر : (إن هذا وحده لايفى للوطن بقضاء الوطر والكامل يقبل الكمال ، كما هو متعارف عليه عند أهل النظر . ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة ، منوط بعد ولى الأمر بهذه العصابة ، التى كان ينبغى أن تضيف إلى مايجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيفة ، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية من كل مايحمد على تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية)

* * *

اختار تلميذنا الجديد حلقة الشيخ عليش حيث الفقه المالكى – مذهب الشيخ درويش – كما جلس إلى الشيخ الجيزاوى والشيخ البحراوى والشيخ الرفاعى ، وفى الأدب اختار الشيخ محمد

(١) وصف الجبرتى مارأى هناك . قال بين ماقال (ومن أغرب مارأيته فى ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة وصب منها شيئاً فى كأس ، ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماءان . وصعد منها دخان ملون حتى انقطع وجف مافى الكأس وصار حجراً أصفر . فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه . ثم فعل ذلك بمياه أخرى . فجمد حجراً أزرق . وبأخرى فصار حجراً أحمر ياقوتياً . وأخذ مرة شيئاً قليلاً جدا من غبار أبيض ووضعه على السندان وضربه بمطرقة بلطف فخرج له صوت هائل كصوت القربانة انزعجنا له . فضحكوا منا . . . . .)

البسيونى وكان شاعراً ، حسن البزّة ، سيعين إماماً للمعية الخديوية .

وأما علوم المنطق والفلسفة فاختار لها حلقة الشيخ حسن الطويل (١٨٩٩) وهو صوفى عريق .

– ينصحه رؤساؤه أن يلبس خير اللباس إذ يزور على باشا مبارك (الوزير) دار العلوم – فيقول : إذن ابعث بجبة إلى دار العلوم أما إن أردت حسن الطويل فهو فى ملبسه هذا .

– ويدعى فى رمضان لدى السادة ويقتصر لإفطاره على طبق الفول .

– ويطرد من دار العلوم فيعينه على المعاش صاحب مقهى . فلما عاد قاسم الرجل مرتبه كما فعل معه وهو مطرود .

وسنرى التلميذ بعد بضع سنين يترك المذهب المالكى الذى لايطبق فى المحاكم إلى المذهب الحنفى المطبق . فيجمع بدراسة المذهبين أكثر الفقه الإسلامى . وهذا هو التأسيس المثالى لفقيه مطلوب إليه التطور . فالمذهب الحنفى «مذهب أهل الرأى» والمذهب المالكى أكثر المذاهب الإسلامية عملا (بالمصلحة) .

«السيد» جمال الدين الأفغانى :

ثم تفتحت أبواب السماء بقدوم جمال الدين ، فقصد إليه مع شيخه حسن الطويل بخان أبى طاقية قريباً من الأزهر فلزمه ابتداء من أول سنة ١٢٨٧ (١٨٧١) .

روى الهلباوى بك أنه حضر على جمال الدين فى السنوات الثلاثة الأخيرة لمقامه فى مصر (١٢٩٢ – ١٢٩٥ : ١٨٧٦ – ١٨٧٩) (شرح كتاب الهداية فى الفلسفة . وكان يقرؤه بعد الساعة رابعة فى منزله . وبعد صلاة المغرب يلقى علينا دروساً فى المنطق فى كتاب المطالع . وفى أيام الخميس والجمعة نحضر دروساً فى العلوم الرياضية من فلك وحساب ومبادئ الهندسة والقواعد الأربعة من وضع أرسطو . وهكذا عشرة أشهر من كل سنة ابتداء من سنة ١٢٩٢ إلى ١٢٩٥ ، وأفهمنى جمال الدين أن كتب الفقه عبارة عن قوانين ومن العبث الاشتغال بها إذا لم يمكن تطبيقها عمليًّا . .) .

أما محمد عبده فأخذ على جمال الدين[1] (كتاب الزوراء للدوانى فى التصوف وشرح القطب على

---

(١) يصف التلميذ أستاذه الجديد بقوله : (له سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها . وله لسن فى الجدل وحذق فى صياغة الحجة لا يلحقه فيه أحد .

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته . وله حلم عظيم يسع ماشاء الله أن يسع إلى أن يدنو منه أحد يمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب . . وهو كريم يبذل مابيده ، قوى الاعتماد على الله . لا يبالى ماتأتى به صروف الدهر . يمثل لناظره عربيا محضاً . فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز (فالسيد لقبه لأنه من نسل أمير المؤمنين على وفاطمة الزهراء) ربعة فى طوله ، وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه ، عصبى دموى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين عظيم الأحداق ، =

الشمسية . والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق والتوضيح مع التلويح فى الأصول والجغمينى فى الهيئة القديمة وتذكرة الطوسى فى علم الهيئة) .

وظاهر أن كثرة مادرسه محمد عبده عليه كان فى الأصول والتصوف والمنطق والطبيعة فى حين كانت كثرة دراسة الهلباوى عليه فى الرياضة والمنطق ، وأن من العلوم مادرسه الجيلان الأول والثانى ، ومنها ماكان تجديداً .

حاشية على شرح الدوانى – ١٢٩٢ – ١٨٧٥ :

بدأ التلميذ فى كنف « السيد » (مجاوراً منقطعاً للتصوف يلبس قميصاً يبدو من أعلى جيبه صدره الأشعر وقد أرسل جمة كجمة الدراويش) . كما يذكر الشيخ مصطفى عبد الرازق . ثم شجع فأخرج سنة ١٢٩٠ (١٨٧٣) ما سماه (رسالة الواردات) وهى عبارة عن جزئيات أومأ إليه السيد بكتابتها سنة ١٢٨٨ كما قال.تبدأ بعد البسملة والحمد بالثناء على جمال الدين (كالغيث أرسل لإحياء نعمة التفكير فى العلوم الحقيقية) وتنتهى بقوله : (هلا تفطنت فيما أدرجت لك من هذه الأقوال إلى أنه وقع الصلح بين الطائفتين العظيمتين فى أن الأفعال هل هى لله خاصة أو بقدرة العبد فإنه لاتخالف بينهما فى الحقيقة . فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل . الوجود فى جميع مراتبه مختار – والحمد لله رب العالمين وحده . . قال مؤلفها : تم تبييضها يوم الأربعاء سادس عشر من شعبان المكرم سنة تسعين ومائتين بعد الألف) .

أما الخط الذى تم التبييض به ، فهو كما يظهر من الصور الزنكوغرافية لكتابين منه إلى تلميذه «سعد زغلول » ، خط لطيف واضح منتظم فى حين ساءت خطوط الأزهريين : فالشيخ الدردير (١٢٠١) لايكاد خطهُ يقرأ ، أما الهلباوى فخطه شبه المقروء أشبه بشوارع لم تعرف خطوط التنظيم . ويدل خط محمد عبده على إسراع يده لتستجيب إلى أفكاره المتدفقة . وسيلازم كلا منهما ماكسب من

= ضخم الوجنات ، رحب الصدر جليل المنظر ، هش بش عند اللقاء ، وقد وفاه الله من كمال خلقه ماينطبق على كمال خلقه) .

وهو من مواليد الأفغان تعلم الفارسية فصارت لغة أصلية له ودرس العربية فثقف نفسه بها ، ودرس فى الهند علوماً كثيرة واكتسب من السياسة والارتحال معارف جمة . ومع فصاحته العربية فى دروسه كان ينطق كلمة أوربة (الأوربة) كما ينطقها الفرنسيون L'Europe أما بورسعيد فينطقها نطق الإنجليز أو الهنود (برط سعيد) .

وكان منهجه – كما يقول – محمد عبده . . (إنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها حتى تلحق بالدول القوية فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنفى مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية وتقليص ظلمها عن رءوس الطوائف الإسلامية) ، وظاهر أن مصر كانت الدولة التى اختارها لتقود العالم الإسلامى . ففيها وجد الرجال . ومنها نهض محمد عبده وبقية الجماعة لتحرير بلادهم .

عهد شباب . فالهلباوى محجاج وثاب بين الأدلة ، يخطب ولا يكتب إلا قليلاً ، أما محمد عبده ففقيه فى المقام الأول وكاتب مترسل من أعلى طبقة .

وبعد عامين آخرين (فى سنة ١٢٩٢ : ١٨٧٥) فاجأ التلميذ أوساط الأزهر بحاشية وضعها على شرح الجلال الدوانى على العضدية (لعضد الدين الإيجى ٧٥٦ هـ - ١٣٥٥ م) وكان التلميذ فى الخامسة والعشرين يتهيأ لدخول امتحان العالمية بعد عامين .

وبمقارنة الدراستين يتبين التقدم الذهنى والمذهبى والبلاغى فيما بين الرسالتين . ففى الأولى تصوف غامض وسجع بخواطر فيها فلسفة ، أما الثانية فكتاب كامل فى أمور من دقائق علم الكلام (التوحيد) . وهى بمكانتها فى الدقة العلمية واستقلال صاحبها بآرائه فى أهم أبواب علم الكلام تعتبر منطلقاً له من قاعدة صلبة هى حرية الاجتهاد والاختلاف .

ولقد شرع منذئذ يطالع الملأ بآرائه فى صحيفة أوندىّ ، علمى أو ثقافى أو سياسى . وسنقرأ من الرسالة فقرات لنشهد شذرات من شهادة ميلاد فقيه فحل مستقل ، صاحب رأى ، لا يفرق بينه وبين العضد والدوانى إلا تعبيره الأفضل :

هو فى حاشيته يأخذ الدين من مصادره فى القرآن والسنة ويلتزم النص القطعى الورود والدلالة أو المعنى القطعى الذى تتضافر عليه نصوص . لا يفسق المسلم أو يكفره ، وهو مستقل لايتعصب أو يقلد ومجتهد يسير مع الدليل .

وقد يستوقف النظر . كمثل مايفسر قوله تعالى : (ما كان محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسولَ الله وخاتَم النبيِّين) فيقول فيه (قد يعرف النبى بإنسان فطر على الحق علماً وعملا بحيث لايعلم إلا حقًّا ولايعمل إلا حقًّا على مقتضى الحكمة . وذلك يكون بالفطرة أى لايحتاج فيه للفكر والنظر ولكن التعليم الإلهى . فإن فطر أيضاً على دعوة بنى نوعه إلى ما جبل عليه فهو رسول أيضاً وإلا فهو نبى وليس برسول . فتفكر فيه فإنه دقيق) .

وقد ينعى على الشارح رِكَّة تعافها نفسه . فيقول : (هذا الكلام فى غاية البرودة مخالف للذوق والعقل والشرع ورمى بغير برهان) أو يقول : (هذا البيان الذى ذكره الشارح مشتمل على مبادىء غير بينة وبيانات غير قيمة) .

وقد يغريه الدوانى فيتجاريان فى ذم أهل الزمان ! يقول الدوانى : «وإلى الله المشتكى من زمان انطمس فيه معالم الفضل وعمر فيه مرابط الجهل وتصدر فيه لرياسة أهل العلم والتمييز بينهم من عرى عن العلم متوسلا فى ذلك بالحوم حول الظلمة والانخراط فى سلك أعوانهم وخدامهم والسياسة الباطلة سعياً لتحصيل مراميهم . خذلهم الله » .

فيضيف قول الكلنبوى ليعقب على القولين فيقول : (قال الكلنبوى فى حاشيته على هذا الكتاب : «قيل ولعمرى إنه أفضل من زماننا فنحن أحق بهذا المشتكى وأقول الحمد لله تعالى والشكر له على ما أغنانا عن الشكاية ، إذ جميع هذه الشكايات لعلة ترتب المطالب الدنيوية على العلوم والمعارف . وذلك زمان كانت تعد فيه العلوم والمعارف من الكمالات . وقد انتهينا إلى زمان تعد فيه العلوم والمعارف من المعايب . فلا شكاية » .

وأنا أقول قد غبن الشارح والحواشى أهل زمانهم وكسفوا شموس آفاقهم فإن أزمنتهم وأمكنتهم كانت العلوم فيها منتشرة والعلماء بعلومهم مفتخرة ، وكان للسان أن يتكلم وللعالم أن يتعلم ، وقد انتهينا إلى زمان يفتخرون فيه بالجهالة ويشيدون بالضلالة ويحكمون بكفر من طالع كتب الكلام . . ولكن الشكوى إلى الله . وليس فى زماننا إذن تسمع ولاقلب يجزع . فإن كنت على شىء من العلم فاتخذ لك قبراً وإلا أوجعوك ضرباً وألقموك حجراً . . ولا نطيل الكلام فإن القول لثام) .

* * *

استفتح التلميذ – العالم – حاشيته ببيان مسهب فيه جماع فكره وطريقته – طول حياته – فروى حديث النبى ﷺ . .

(ستفترق أمتى ثلاثة وسبعين فرقة . كلها فى النار إلا واحدة . قيل ومن هم ؟ قال : الذين هم على ما أنا عليه وأصحابى) .

ثم قال بين ماقال : (واعلم أن هذا الحديث قد أفادنا أن يكون فى الأمة فرق متفرقة وأن الناجى منهم واحدة . . وكون الناجى منهم واحدة أيضاً حق لا كلام فيه . فإن الحق واحد هو ما كان النبى عليه هو وأصحابه . فإن ماخالف ما كان عليه النبى فهو رد .

أما تعيين أى فرقة هى الفرقة الناجية أى التى تكون على ماهو عليه وأصحابه فلم يتبين إلى الآن . فإن كل طائفة ممن يذعن لنبينا بالرسالة تذهب فتجعل نفسها على ما النبى عليه وأصحابه . . فكل يدعى هذا الأمر ويقيم على ذلك أدلة . . مثلا الفيلسوف يقول . . والصوفى .. والمعتزلى .. والسنى . . والشيعى . . وأن المجسمة يستشهدون . . والأشاعرة[1] . . فكل يبرهن على أنه الفرقة الناجية المذكورة فى الحديث . .) ويضيف :

---

(١) يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه (تمهيد تاريخ الفلسفة الإسلامية) : (أما النهضة الحديثة لعلم الكلام فتقوم على نوع من التنافس بين مذهب الأشعرية ومذهب ابن تيمية . ويسمى أصحاب هذا المذهب الأخير أنفسهم (بالفلسفية) . ولعل الغلبة فى بلاد الإسلام لا تزال إلى اليوم لمذهب الأشاعرة) .

وستستعمل (السلفية) فى هذا الكتاب بمعناها الأعم : عمل السلف الصالح فى الأجيال المفضلة .

(. . فإن للناظر أن يقول : يجوز أن تكون الفرقة الناجية الواقفة على ماكان عليه النبى وأصحابه قد جاءت وانقرضت وأن الباقى الآن من غير الناجية . أو أن الفرق لم تبلغ الآن العدد وأن الناجية إلى الآن لم توجد وستوجد . وأن جميع الفرق ناجية حيث إن كلاً مطابق لما كان عليه النبى وأصحابه من الأصول المطلوبة لنا كالألوهية والنبوة والمعاد . . وأن بقية الفرق ستوجد بعد . .) .

ويضيف (وموجب هذا التردد أنه ما من فرقة إلا ويجدها الناظر فيها معضدة بكتاب وسنة وإجماع ومايشبه ذلك ، والنصوص فيها متعارضة من الأطراف . ومما يسرنى ماجاء فى حديث آخر (أن الهالك منهم واحدة) .

ويقول (وبالجملة فتحقيق الفرقة الناجية . . مشكل من وجوه . . وخامساً قد أجمع أهل التحقيق من كل طائفة وخصوصاً الشيخ الأشعرى على أن المقلد فى أصول دينه ليس بمستيقن . . وكل من ليس بمستيقن فى الأصول فهو على ريب فيها . وكل من كان كذلك فهو كافر . .) .

ويقول : (والحق الذى يرشد إليه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين إلى إقامة البراهين الصحيحة على إثبات صانع واجب الوجود . ثم منه إلى إثبات النبوات . ثم يأخذ طريق التحقيق فى تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحة ، كان ما أدت إليه ماكان ، لكن بغاية التحرى والاجتهاد . ثم إذا فاء من فكره إلى ماجاء من عند ربه فوجده بظاهره ملائماً لما حققه فليحمد الله على ذلك وإلا فليطرق عن التأويل ويقول : آمنا به كل من عند ربنا . فإنما لا يعلم مراد الله ونبيه إلا الله ونبيه) .

ويقول :

(. . فالنظر واجب بالإجماع . . فإياك إياك أن تجعل العجز فطرة) .

ويقول :

(فاسلك سبيل السلف واحذر[1] . . ومن كان على ماكانوا عليه فهو فى أعلى غرف الجنان .

---

(١) السلف يسلمون بالنص ويفوضون فى مدلول المتشابه ويقطعون بعدم المماثلة بين الله وعباده ويعتقدون العقائد كما كان يعتقدها السلف الصالح من الصحابة والتابعين . والمجسمة والمشبهة يتصورون الله فى صور حية . والمعتزلة يؤولون النصوص لإثبات مبادئهم : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والمنزلة بين المنزلتين . وأن الإنسان حر الإرادة ، ولذلك يسأل عما يفعل . وأن العمل جزء الإيمان فمن ترك العمل فهو بين منزلة الكفر ومنزلة الإيمان . والأشاعرة يسيرون بالعقل فى حدود الشرع . والله يأمر الناس بأوامره ليقبلوا أو يتركوا . وهو يكلفهم بالمقدور عليه .

فالأمر لايسلب الإرادة بل يستعملها . والقول بأن العبد مجبور على الفعل معناه أنه يكسب الفعل ولا يخلقه فالله يخلقه بقدرة فاعله وقيامه به فإرادة العبد جزء من كسب الفعل والله خالق على الدوام .

والأشاعرة يؤولون النص عند اللزوم وابن تيمية لا يؤول وإن كان عماد فكره أن الله تعالى (ليس كمثله شيء) فلا ضَيْرَ من عدم التأويل .

وسالك هذا الطريق : إما أن يكون من قبل الالتفات إلى ماجاء فى الكتاب والسنة وكلام أولى الفضل من الراشدين قديماً وحديثاً فذلك هو الحكيم العملى والمؤمن المتوسط .

وإما أن يكون – مع ذلك – قد سلك بنفسه مدارج الأنوار ووقف على مافى ذلك من دقائق الأسرار حتى جلس فى حياته تلك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . فهو الصوفى . . وفى هذا مراتب لاتحصى ومراق لاتستقصى . وهذا وما قبله يشملهما اسم المؤمن الصادق . .) .

* * *

وليست الدراسة المنجحة هى التى تملأ الرأس بالمعارف . أو تجعل الرجال نسخاً من المؤلفات بل التى تهيئهم لإدراك الحقائق وابتكار الأفكار ، وتبلغ شأوها إذا مكنت الرجل الواحد من أن يصنع على عينه رجالا يصنعون رجالاً آخرين . وهكذا دواليك .

ومن هذه الناحية يبدو منهج جمال الدين فى تكوين الرجال أنجح المناهج ، وحلقته أعظم الحلق آثاراً[1] خرجت فتية كانوا أغماراً ، حتى جرى فيهم تياره مجرى الكهرباء فى الأشياء : محمد عبده – وسيدعوه (صديق الشيخ) ولما بارح مصر قال : (حسبكم محمد عبده) .

ثم عبد الكريم سلمان وإبراهيم اللقانى وإبراهيم الهلباوى ومحمود سامى البارودى وأديب إسحق وعبد السلام المويلحى ولطيف سليم وعبد الله نديم . وأخيراً ورد الحلقة «سعد زغلول» – ويسميه جمال الدين سعد الزغلول – وستأتيك أنباؤهم وأعمالهم وأعمال صحبهم على مدى قرن كامل فى حياة مصر – نفخ فيهم من روحه وعلمهم التفكير الحر ، وحبب إليهم الكتابة والخطابة فأصبحوا كتاباً مشاهير وخطباء مصاقع وفقهاء ليس لهم نظراء ، وثواراً أحراراً ، فتألف من تفكيرهم وتعبيرهم وسلوكهم ومن صحو المجتمع على أحداث مصر الدولية وانتشار الأنباء العامة ، رأى عام يعارض الحكام ، فى الفترة القصيرة التى لبثها «السيد» بمصر من ١٢٨٨ إلى ١٢٩٦ مارس ١٨٧١ إلى أغسطس ١٨٧٩ م .

وفى سنة ١٨٧٦ قامت حرب بين تركيا – صاحبة السيادة الشرعية على مصر – وبين روسيا

(١) من أقواله التى تنم عن منهجه فى تكوين الرجال :

- ألف قول لا تعدل فى الزمان عملاً واحداً .
- صاحب الحاجة إذا لم ينطق بحاجته أولى بالخرس .
- قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد ألا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشأوا خلقاً جديداً فحبذا لولم يبق منهم إلا من هو دون الثانية عشرة من العمر عندئذ يتلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة .
- صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا .
- أمة تطعن حاكمها سراً وتعبده جهراً غير جديرة بالحياة .
- إذا صح أن من الأشياء مالا يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال .

فجذبت انتباه الصحافة والرأى العام ، وتكون فى المثقفين اتجاه للمطالبة بالحرية لايغاضبه الخديو ، بل كان يستعمله ، ليقاوم به التدخل الأوربى فى السياسة المصرية .

ولا غرو إذا شهدنا محمد عبده طليعة هذا الاتجاه الوطنى والثقافى : فهو من أول كتاب صحيفة الأهرام . لم تكد تصدر حتى كان فى العدد الخامس فى سبتمبر ١٨٧٦ واحداً من كتّابها ، وفى العدد الثامن نقرأ له مقالا بعنوان (الكتابة والقلم) تقدمه بقولها : (الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالأزهر) وتحتفى فى عدد تال (بجناب العلامة الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالأزهر) ثم يتعالى التقدير فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ فى العدد ٣٦ فهو (الأديب الفاضل الأريب أحد أهل العلم بالأزهر) ولماكتب مقاله فى (العلوم الكلامية . والدعوة إلى العلوم العصرية) نعتته بأنه (جناب العالم العلامة) .

امتحان العالمية :

وفى العام التالى تقدم لامتحان العالمية تسبقه سمعة تطن فى آذان الأزهريين . قال : (عرضت نفسى على مجلس الامتحان فى ١٣ جمادى ١٢٩٣ (١٨٧٧) وابتليت فى الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثرين من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش . وكان يعادينى ، على الغيب ، اتباعاً لآراء من لارشد عندهم من بلداء الطلبة . .) .

وما عادوه وحده وإنما كانوا يعادون «السيد» جمال الدين وتلاميذه الكاتبين فى الصحف ، أوالآخذين بعلوم الكلام ، أوالداعين إلى العلوم العصرية ، وقد ارتكب محمد عبده ذلك كله . ولذلك توقف الممتحنون فى إنجاحه . وتدخل بينهم وبينه الشيخ محمد المهدى (١٨٩٧) شيخ الأزهر ورئيس لجنة الامتحان قائلا : لو أعرف درجة فوق العالمية من الدرجة الأولى لمنحتها له — وطال توقف الممتحنين حتى صالحوا الرئيس على ألا يمنحوه الدرجة التى يستحقها عنده ويمنحوه درجة لايستحقها عندهم . فمنح الدرجة الثانية !

هكذا تخرج فى الأزهر وفى قلبه من الأسى عليه ماسوف يصحبه فى قبره ، فيجعل إصلاحه مشغلة حياته ، مذ كان إنصاف تلميذ فيه ، صاحب فكر ، مثار معركة ! وكان أساس الصلح فيها أن يخسر أطرافها الثلاثة ويخسر الأزهر !

* * *

لم يضيّع العالم الجديد وقته فجلس للتدريس فى الجامع الأزهر . ولم يتردد فى تدريس ما يعتقده . وساعدته السماء بعدلها وظلم الناس له :

كان الشيخ محمد عليش (١٢٩٩) فقيه المالكية الأشهر وله شرح على مختصر خليل كشروح الخرشي والدردير والدسوقي ، وله فتح العلي المالك على مذهب الإمام مالك (مجموع فتاوى عليش) ، لايتذمم إذا أخذ مأخذاً على عالم من أن يشتمه في حلقته كما صنع مع الشيخ حسن الطويل.

وفي ذات يوم أبلغه ابن له يدرس بالأزهر أن خريجهم الجديد يدرس العقائد النسفية للتلاميذ وأنه يرجح مذهب المعتزلة على مذهب الأشاعرة فدعاه إليه.

قال : أتدرس العقائد النسفية ؟ وأجاب بالإيجاب.

قال : هل رجحت مذهب المعتزلة ؟

قال : إذا كنت أترك تقليد الأشعرى فلماذا أقلد المعتزلى ؟ إذن أترك تقليد الجميع وآخذ بالدليل.

قال الشيخ عليش : أخبرنى الثقة بذلك.

قال محمد عبده : هلمّ الثقة الذى يشهد بذلك. فليميز بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت.

قال الشيخ عليش : أومثلك يفهم شرح العقائد النسفية !

قال : سلنى إن شئت.

وكبرت مراجعته للشيخ على نفوس الصغار ، فأججوا النار. قالوا : إنه يرسل شعره ويجمعه تحت العمامة ! ! ثم أخذوا عمامته فتركها ، وانصرف حاسر الرأس احتراماً لشيخ تولى كبره.

وفى الغداة عاد إلى درسه وفى يمينه عصاً وقال : إذا جاء الشيخ بعكازه ، فله العصا.

* * *

واتسعت حلقة العالم الحديث بعيداً من الأزهر ،

فأمسى فى منزله يلقى درساً فى كتاب (تهذيب الأخلاق) لابن مسكويه ، بل يلقى درساً فى كتاب فرانسوا جيزو – رئيس وزراء فرنسا فى القرن الماضى –

L'Histoire de l'Europe depuis la Chute de l'Empire Romain

ترجمه إلى العربية نعمة الله خورى وسماه (التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوربية) ، وقرظه محمد عبده حين ظهوره بمقال لفت إليه الأنظار قبيل امتحان العالمية. وربما كان المقال سبباً لسخط الممتحنين عليه. أو كان سخطهم سبباً لتدريسه. لكن مافى الكتاب من علم كان مصلحة للأمة وله.

فما أسعد دارس التاريخ الإسلامى إذ يسعفه العلم بالتاريخ العالمى فيزداد يقيناً بمعجزة انتشار الإسلام وانتصار أصحابه بالتزام مبادئه التى تحاربها الوثنية المسيطرة على حضارة أوربا المعاصرة.

وأسمعْ بالمبادئ وأبصرْ فى قول عمر لسعد بن أبى وقاص : (إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال. فإن تقوى الله أفضل القوة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب. وآمرك

ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم . فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة . .) وقول صلاح الدين لقواده : (لاتظنوا أنى ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضى الفاضل) .

وفى العام التالى (١٢٩٥ - ١٨٧٨) جاءته النصفة من إصراره على تدريس التاريخ فى غير الأزهر . فعين مدرساً للتاريخ فى دار العلوم[1] فدرس للتلاميذ (مقدمة ابن خلدون) بل أضاف إليها كتاباً وضعه فى «علم الاجتماع والعمران » وبهذا الدرس أحيا ذلك الكنز العلمى الدفين . وسيتابعه فيه طه حسين إذ يقدم فيه إحدى رسالتيْه للدكتوراه بعد أربعين عاماً .

وفى العام ذاته جاء تأييد جديد ، من غير الأزهر أيضاً ، إذ عين مدرساً للعلوم العربية فى مدرسة الإدارة والألسن[2] . التى ستصبح مدرسة الحقوق .

فهذا الخريج الجديد من الأزهر يتلاقى مع أغراض المدرستين الجديدتين ، و «المعلمين » الكبيرين اللذين يقترن اسماهما بهما ، فى أنه طلبة الجميع للإصلاح وإن تنوعت الحاجات والاتجاهات . وفيه يجتمع الكثير من آمال بلاده لاجتياز الفجوة بين القديم والجديد ، سواء آمال أصحاب دار العلوم أو أصحاب مدرسة الألسن .

---

(١) أنشأها فى سنة ١٨٧١ فى عصر إسماعيل على باشا مبارك نابغة المهندسين العسكريين من بعثات محمد على إلى فرنسا ، وتغيا من إنشائها إنقاذ العلوم العربية من فساد الطريقة الأزهرية فى ذلك الزمان . واستغل لإنشائها ونشر المدارس فى مصر وإنشاء دار الكتب ، كل سلطاته وإمكانيات الإدارات (الوزارات) التى تولاها فى حكم إسماعيل (التعليم والأوقاف والأشغال) فبأموال الأوقاف وفى دور الأشغال تعلم التلاميذ بعد أن أقفل عباس الأول معاهد العلم التى أنشأها محمد على .

ومن مقولاته الذائعة : (كل إصلاح سياسى لا يرتكز على الإصلاح التعليمى سراب) وهو الذى أمر بطبع كتاب مرشد الحيران لقدرى باشا فى انتظار يوم تقدر الدولة فيه على تطبيق قانون من الشريعة تنفيذاً لقرار من وزارة شريف باشا .

(٢) أنشأها محمد على سنة ١٨٣٦ وجعل على نظارتها رفاعة بك رافع الطهطاوى ، فأضاف رفاعة بك إلى مناهج الألسن الفرنسية والإنجليزية منهجاً فى تدريس الشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ولما أنشىء معهد الفقه الإسلامى صار رئيساً له كما ولى رياسة الوقائع المصرية زماناً . وسيتخذ منه محمد عبده مرشداً له ومن داره ملجأ ومن ابنه صديقاً .

وسترى محمد عبده يتحرك فى نطاق الأغراض العلمية لهذه المعاهد وإن امتاز بأنه أضاف إلى وفائه بالتعليم المطلوب منه أعمالاً أكبر .

وفى دار العلوم التقى بالشيخ حسين المرصفى وفى مدرسة الألسن التقى بالشيخ حسونة النواوى وسيصحب كلا منهما طول حياة كل منهم .

الثورة الأولى . . والنفى الأول

كانت إنجلترا وفرنسا تتسابقان على النفوذ فى مصر منذ جلاء نابليون وانهزمت عنها إنجلترا مرة إثر أخرى ، ولكنها بلغت أغراضها بتدمير جيوش مصر وأسطولها وإمبراطوريتها ، وكرست ذلك فى حياة محمد على « بمعاهدة لندن » سنة ١٨٤٠ . وفى عهد إسماعيل دمرت الإمبراطورية المصرية فى أفريقية ولفت حول عنق مصر حبال الدائنين ، وألزمت إسماعيل أن يعين رئيس وزراء أرمنيا (نوبار) ووزيراً إنجليزيًّا للمالية وفرنسيًّا للأشغال توطئة لشهر إفلاسه واحتلال بلاده .

ولما دعا إسماعيل مجلس النواب للتاسع من المحرم سنة ١٢٩٦ (١٨٧٨/١/٢م) كثر فيه نقد الحكومة . وهاج النواب وعلى رأسهم تلميذ جمال الدين عبد السلام المويلحى نائب القاهرة . ثم أثار وزير المالية الإنجليزى الضباط بإنقاص عدد الجيش وتأخير رواتبهم . فهاجموه فى الطريق بزعامة لطيف سليم بك[1] فى ١٨٧٩/٢/١٨ وقبض أحدهم على نوبار من شاربيه وسقطت الوزارة . ومع ذلك دخل الوزيران الأجنبيان الوزارة الجديدة برياسة ولى العهد محمد توفيق باشا فسافر نوبار يحرض أوربا على خلع إسماعيل .

وكان جمال الدين – ومحمد عبده فى جواره[2] – قد أسسا حزباً فى مصر باسم الحزب الوطنى الحر من أغراضه السعى لتنازل الخديو . وكان ولى العهد محمد توفيق على صلة به . بل كان يقول لجمال الدين على ملأ من الناس (أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد) .

وخلعت تركيا إسماعيل فى ١٨٧٩/٦/٢٦ استجابة للإنجليز والفرنسيين ونفته إلى إيطاليا ليموت فى إسطنبول ١٨٩٥ وولت مكانه «توفيق » فبادر بتعطيل الحياة النيابية ونفى موضع أمله فى مصر إلى خارج مصر .

---

(١) ابن سليم باشا الحجازى (١٨٥٥) الذى قاد ألوية إبراهيم باشا المظفرة – تقلب لطيف (باشا) فيا بعد فى الوظائف حتى صار رئيساً فخريا للمحاكم المختلطة وكان من أصحاب محمد عبده . ولما مات سنة ١٩٠٧ كتب مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم أن سبب انتكاس صحته سنة ١٩٠٨ موت صديقه لطيف سليم . وفى بيته كان سعد زغلول ومصطفى كامل يجتمعان كما روى ابنه فؤاد باشا .

(٢) فى ١٨٧٩/٦/٣ ، نشرت جريدة التجارة بالاسكندرية ثم جريدة مصر فى ١٨٧٩/٦/٥ تلخيصاً لمجلس لجمال الدين بقلم محمد عبده وقدمت الجريدة محمد عبده بقولها (وردت إلينا المقالة الآتية من حضرة مظهر نور الجمال والجلال ومطلع بدر الحكمة والكمال العالم الفاضل الأستاذ الشيخ محمد عبده مدرس علم الكلام الأعلى بالجامع الأزهر) .

أما محمد عبده فعزله الخديو من وظائفه ونفاه من القاهرة دون أى مصرى آخر ، فرحلوه إلى قريته محلة نصر فكان يغافل رقباءه ويسافر إلى القاهرة فيستكن وجه النهار فى المكتبة بدار رفاعة بك ، حتى إذا جنّ الليل سرى إلى صحبه بالقاهرة .

وبهذا اقترن بالأحداث الكبرى فى تاريخ بلاده ، وهو لم يكد يبلغ الثلاثين .

لقد جعله الشيخ درويش يجد نفسه فيتجه إلى العلم العظيم ، وجعله جمال الدين يجد طريقه ويتجه إلى العمل العام ، وجعله الخديو أبعد الناس من معاهد العلم وميادين العمل ، وأقربهم إلى مقاليد القيادة .

الباب الثانى

من قمة إلى قمة

١٨٨٠ - ١٨٨٨

١٢٩٧ - ١٣٠٦

(إن يد الله مع الجماعة وإياكم والفرقة فإن الشاذ للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب)

على بن أبى طالب

الوقائع المصرية

عين الخديو مصطفى رياض باشا (ناظراً للنظار) فى ١٨٧٩/٩/١٢ وكان مصريًّا صميمًا فطبّ لأمراض الحكم التركى بالاستعانة بالمصريين : ألغى السخرة . واستعمال الكرباج لتحصيل مستحقات الحكومة . وفرض العدالة فى الرى والضرائب . وألغى ثلاثين ضريبة . واسترد للدولة من الخديو ١٥ قصراً بنيت بأموالها منها قصر عابدين مقر رئاسة الدولة .

وكان لزاماً أن يستعين بأداة نشر تثبت الإصلاح فى ضمير الشعب ليتشبث به . فاستعمل الصحيفة الحكومية . واستشار فى تحريرها محمود سامى البارودى باشا[1] والشيخ حسين المرصفى[2] كلاً على انفراد ، فأجمعا على محمد عبده . ولرياض عهد بجمال الدين (وصديقه الشيخ) مذ كان وزير

---

(١) أكبر شعراء العربية فى القرن الثالث عشر الهجرى والتاسع عشر الميلادى . درس الفنون الحربية فى مصر فى عهد الخديو سعيد وسافر إلى إسطنبول حيث درس اللغتين التركية والفارسية ونظم الشعر بهما . وقاد فرقة فى الحرب الروسية وحرب كريت ورأس الوزارة فى الثورة العرابية . قال عرابى فى مذكراته إنه كان يطمع فى ولاية العرش . مات البارودى عالى الرأس سنة ١٩٠٤ على صداقة وطيدة بمحمد عبده .

(٢) معلم الجيل الأول من الأدباء والعلماء الذين خرجتهم دار العلوم ومنهم حفنى ناصف وكان كفيفاً يكاد يحفظ الأدب العربى القديم كله . تخرج فى الأزهر ودرس فيه ثم اختير لدار العلوم وظل زمانا طويلاً يحفظ ويقارن ويستصلح حتى قال عنه (السكندرى وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى وعلى الجارم وأحمد ضيف) فى كتابهم تاريخ الأدب العربى (كان تام الأداة) -- أخذ عنه البارودى وعبد الله باشا فكرى (من كبار كتاب القرن التاسع عشر الميلادى ووزير المعارف) - كان المرصفى اليد اليمنى لرفاعة بك وعلى باشا مبارك فى إصلاحها للتعليم .

الداخلية الذى ساعد السيد للبقاء بمصر. فاستصدر عفواً عن محمد عبده وعينه محرراً أول « للوقائع » .

كان قد أمضى عاماً وبعض عام فى قريته . فدله الاختيار على أن مواهب الرجال مناط الحاجة إليهم وإن بعدوا عن الأنظار.

ودل هو على أن الكفايات العالية تجعل للموقع العادى شأناً غير عادى . وأنه « رجل إدارة » و « مشرع » من الطراز الأول ، بحسن اختيار الرجال وتوجيههم ، والعمل بين أظهرهم ، ثم بتنظيم المصلحة واستصدار لائحة للمطبوعات[1] من إعداده تخول « الوقائع » حق نقد الحكومة والمحاكم والأفراد ، وتصويب الصحف الأجنبية التى تعثى بالفساد ، وتسديد الصحف المصرية وأساليبها السوقية .

ولئن كان النجاح الإدارى كالنعيم الدنيوى طالما ثبّط صاحبه فعزله عن العمل الفنى المبدع ، فإن الشيخ شكر أنعم الله عليه بامتشاق يراعه . وإرسال آرائه رسلا – فى مقالاته – إلى قرائه ، من الوزراء ورؤساء المصالح والقارئ العادى .

لقد كان يسعده أن يكتب مقالا للإصلاح فى صحيفة سيارة . والآن أصبحت الكتابة للإصلاح « وظيفة دائمة » له ، وفى يده أداة رسمية دورية ، تجعله رقيب العصر على الدولة والأمة والقضاء جميعاً مذ كانت « الوقائع » كما قال عنها (تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة) وبلغ بها إلى حيث قال :

(إن تاريخ مصر إن كان مجموع حوادث أمة لها خناة سياسية وأدبية وعقلية فلتغيير سير الجريدة الرسمية مكان رفيع من تلك الحوادث) .

وكان أعضاء التحرير أفراس رهان ليس لها نظائر فى تاريخ مصر : عبد الكريم سلمان [2] زميله فى التخرج والتلمذة على جمال الدين ومرتبه عشرة جنيهات . ثم سعد زغلول تلميذه وتلميذ جمال الدين ومرتبه ثمانية جنيهات . ومثله الشيخ وفا زغلول .

---

(١) صدرت اللائحة فى نوفبر سنة ١٩٨١ تفرض على المصالح الحكومية والمحاكم موافاتها بقراراتها وأحكامها وجعل لها حق التعليق عليها وتصويبها كما خولها فيما سمى (قسم غير رسمى) نشر الفصول الأدبية مما له مساس بالمصالح العامة . فآلت إليها سلطة نقد الوزارات والتعقيب على الأحكام والإبداع الأدبى ونشر الشعر . وأمست قدوة الصحف الوطنية فى الأساليب وألزمت الصحافة الأجنبية فى مصر حدودها .

(٢) ولد سنة ١٨٤٩ ومات سنة ١٩١٨ وتتلمذ لجمال الدين وتخرج من الأزهر وسيرأس الوقائع . وسيستعين به محمد عبده فى مجلس إدارة الأزهروسيعين فيما بعد عضواً بالمحكمة العليا الشرعية ومفتشاً عاماً للمحاكم الشرعية ويؤلف كتاب (أعمال مجلس إدارة الأزهر) ولا يضع عليه اسمه حذر بطش الخديو عباس .

أما الرابع فى التلمذة على جمال الدين ، فأضافه رياض باشا إليهم بعد محنة رواها الهلباوى فى مذكراته المخطوطة ، جملتها أن وكيل مديرية الغربية سخر خصومه لمقاومة فيضان النيل على أرض لرياض باشا ، فندد الهلباوى بهما فى جريدة التجارة التى يحررها بالإسكندرية أديب إسحق[1] وأمر رياض باشا به وكان قد أوى إلى قريته بعد نفى جمال الدين – فحشر إليه والأغلال فى يديه . وندد الباشا بمقاله وبجمال الدين الذى علمه الغرور . ونافح الهلباوى عن أستاذه واستمسك بما كتبه فأعجبه وعينه بالوقائع[2] .

* * *

اجتمع تلاميذ جمال الدين فى موقع من مواقع السلطة لأول مرة فسنحت لهم فرصة عاشوا زماناً يتشوفون إليها . وكان الشيخ الرئيس حيث كانت مصر تنتظر . . إليك أمثالا ثلاثة من أثره فى الحكومة .

١ – قال فى صدد السخرة : (وكان من عدل رياض باشا فى ذلك أن عنف فريد باشا مدير الشرقية مع أن فريد باشا[3] كان من رجال رياض . . ولم يكتف بذلك بل كتب منشوراً عامًّا لجميع المديرين . . دعانى آخر الأمر إلى تحرير ذلك المنشور . . وأتذكر منه العبارة التالية «وليعلم المديرون والأهالى جميعاً أن الأهالى ليسوا عبيداً لأحد ولا لأحد عليهم سلطان إلا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة . وهذا مما لم يكن له مثيل من قبل) .

فلنسجل للشيخ ، ولرئيس الوزراء ، سبقهما بإعلان أن الأهالى ليسوا عبيد أحد . فلسوف نشهد فى الغداة ثورة ترفع هذا الشعار وتقتلع أحد صاحبيه .

٢ – قال فى صدد التربية والتعليم (لم يضع رئيس التحرير فرصة فى انتقاد وزارة المعارف فغضب لذلك وزيرها . . وبعد أن تكرر النقد وجد رياض باشا أن السكوت عن الخلل ضرب من الإهمال

---

(١) زميل الهلباوى فى الحضور على جمال الدين . كان يحرر صحيفة التجارة بالإسكندرية وفى صحيفة مصر بالقاهرة وكان جمال الدين يكتب فى إحداهما تحت اسم مستعار .

وأديب إسحق أول من دعا لإنشاء مصرف وطنى . مات فى ثلاثيناته سنة ١٨٨٥ .

(٢) توقفت الصلات بين الهلباوى ورياض وكانا يتزاوران . وفى سنة ١٩١١ كان رياض باشا رئيساً للمؤتمر المصرى والهلباوى سكرتيره وتبقت أموال من ميزانيته قدرها ١٨٠٠٠ جنيه أراد رشدى باشا إعطاءها للجامعة المصرية وصمم الهلباوى على أن تكون للجمعية الخيرية الإسلامية وأيده رياض باشا وتصالح الرأيان على إعطائها للجمعية وتخصيصها للإنفاق على التعليم العالى .

(٣) والد الزعيم محمد فريد . وهو الذى سيقنع رياض باشا بقبول الرياسة سنة ١٨٩٢ عقب حادث الحدود الذى سيرد ذكره فينقذ الخديو عباس من ورطته وكان حينئذ رئيس الدائرة السنية ولما خلف نوبار رياض باشا فى رياسة الوزارة سنة ١٨٩٤ أقاله لمعارضته السياسة الإنجليزية فى تصفية الدائرة السنية . توفى سنة ١٩٠١ وفى فريد باشا قول شوقى إذ رثى ابنه محمد فريد فى سنة ١٩١٩ .

كفريد وأين ثانى فريد ... أين ثان لواحد الآحاد

الرئيس الجواد فيما علمنا ... وبلونا وابن «الرئيس الجواد»

الذى لايغتفر . . ذاكر رئيس التحرير وقال له «أما تغيير الناظر (الوزير) فغير ممكن . . ولابد من النظر فى طريقة أخرى . فعرض عليه أن يشكل مجلساً أعلى يكون هو القاضى فى وزارة المعارف وما على الوزير إلا التنفيذ ، فلم يمض على إبداء الرأى أيام حتى صدر الأمر بتأليف المجلس الأعلى للمعارف وكان رئيس التحرير عضواً فيه)[١] .

٣ – قال عن دار الكتب (اتجه عزم وزارة الأوقاف لوسيلة من أجل وسائل الإصلاح وهى تقريب الكتبخانة العمومية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر وتوسيع نطاق المدرسة . . وكان توجه نظارة الأوقاف إلى هذا المشروع بناء على ماعرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً . .).

* * *

ولم يكن القسم غير الرسمى أقل أثراً فى تاريخ الأمة . . وإليك أمثلة ثلاثة أخرى :

١ – فهناك بصر بأهمية الإصلاح القضائى أعظم رجلين مثلا الوظيفتين اللتين يدور عليهما جهاز العدالة وهما القضاء والمحاماة ، وعلّمت أحكام المحاكم سعد زغلول والهلباوى أن مكانهما هو المحكمة .

٢ – وهناك كسبت «الصحافة» تدريب رئيس تحرير الجريدة الحكومية على أن يقول «لا» للحكومة . . روى الدكتور طه حسين أن عبد الكريم سلمان ، حين تولى رياسة «الوقائع» بعد محمد عبده جاءته قصيدة لشوقى فى مدح الخديو مطلعها :

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

وأن القصر ودّ نشر المدح وإسقاط الغزل وأن رئيس التحرير ود لو نشر الغزل وأسقط المدح . ولم تنشر القصيدة .

٣ – وهنالك تدرب الشيخ الرئيس على أمرين جليلى الخطر فى تاريخه وتاريخ الأمة :

أولهما : مقاربة السلطة دون أن تطويه أوتطغيه ، ومخاطبة الحكومة باسم الأمة وأن يعلم الطرفين

فهذا القسم غير الرسمى يحوى – فى مدة قصيرة نسبيًّا – مقالات جليلة من عمل الرئيس بلغت نحو ٣٥ مقالاً تبدأ فى ١٩ / ١٠ / ١٨٨٠ – ذى القعدة ١٢٩٧ عنوانه (حكومتنا والجمعيات الخيرية) وسنرى مصداق يقينه بما يكتبه فى تأليفه جمعية كبرى بعد سنوات .

---

(١) تألف المجلس بدكريتوفى ١٨٨١/٣/٢٨ برياسة وزير المعارف وعضوية علماء العصر وأول أعضائه على مبارك وفيهم العلماء المشهورون فى تاريخ التعليم جلياردو (الطب) موجيل (الهندسة) – فيدال (الحقوق) – ماسبرو (الآثار) إسماعيل الفلكى (الهندسة) عثمان غالب (الطب) وأثر الشيخ فى اختيار الأعضاء ظاهر ففيهم صديقاه من دار العلوم ومدرسة الألسن وكان محمد عبده أصغر أعضاء المجلس وترتيبه فيه الثانى والعشرين وقبله الشيخ حسين المرصفى وبعده الشيخ حسونة النواوى .

وفى أولى الجلسات تقدم محمد عبده للمجلس باقتراح بتقديم معونة حكومية للمدارس الأجنبية . وفرح الأجانب وأقر الاقتراح . وفى الجلسة التالية تقدم محمد عبده باقتراح إشراف الحكومة على هذه المدارس . وفرح الوطنيون وأقر الاقتراح .

ومن أصول القانون الإدارى أن للحكومة إذا قدمت معونة أن تشرف – على وجه ما – على الجهة التى تقدمها لها .

وتطرد المقالات فى أمور أساسية فى حياة الأمة الاجتماعية والقانونية والشرعية ، يدلك على ذلك بعض عناوينها مثل (القوة والقانون - الشورى والاستبداد - حاجة الإنسان إلى الزواج - حجاب النساء من الجهة الدينية - الطلاق - تعدد الزوجات - البدع - لجنة إعانة الحجاج) .

وفيها تعليقات طويلة لاتحمل عناوين لكنها تصيب الخرافات فى الصميم مثل نعيه على الدجالين والصحيفة التى روجت لخرافاتهم . .

وبهذا السجل الجليل من مبادراته الحاسمة حق له أن يقول : (بهذا وبما سبقه تنبهت الأفكار وبدأت الحياة الاجتماعية فى أمة مزقها الظلم . . ولم يكن يسمع بذلك فى مصر من قبل)[1] .

ثانيهما : قيادة الرجال ، وإدارة الأعمال . فالذى يقود الرجال الذين عملوا معه بنجاح وهو فى الحادية والثلاثين ويحدث آثاره فى الأمة وفى اللغة عموماً والصحافة خصوصاً وفى مصالح الحكومة ، ويعد التشريع ويطبقه بنجاح ، ويراقب الصحافة مراقبة متحررة كمايقرر المؤرخون ،ويشارك رئيس الوزراء فى إصلاحاته ، سيتولى فيما بعد قيادات أبعد مدى ووظائف أعظم أثراً هيأت له النجاح فيها سوابق التجارب .

الثورة الثانية

كانت إنجلترا وفرنسا فى هذه الأثناء تكيدان لتوفيق كيدهما لإسماعيل . وكان اشتراك الشعب معه فى الحكم قوة له فى مواجهتها ولذلك رفضتا أى إصلاح دستورى . ورأى توفيق ألا يستعين بشريف باشا[2] لأنه كان يرى إصدار دستور يشرك الشعب فى الحكم واستعان برياض لأنه لم يكن من هذا الرأى .

---

(١) للدكتور عبد اللطيف حمزه أستاذ الصحافة فى جامعة القاهرة فى منتصف القرن الحالى دراسة لمقالات الأستاذ الإمام انتهى فيها إلى أنه . (لولا الطول وطابع الدرس لقلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفى من حيث موضوعه ومن حيث أسلوبه معاً) .

وبين المقالاتِ والدراسات ثلاثة أرباع قرن وثلاثة أجيال تعلمت كلها من دروس الإمام ومقالات كانت طلائع الصحافة فالتطويل ضرورة والتدريس غرض فى ذاته ، والشيخ معلم حيل بينه وبين كرسى التدريس . والصحافة هى منبره العام .

(٢) تلقى التعليم العسكرى فى (سان سير) وفى بعوث محمد على إلى فرنسا وتزوج بنت سليمان باشا الفرنساوى (كولونيل سيف) وهو واضع الدستور الذى ستصدره الثورة سنة ١٨٨٢ ووزارته هى التى قررت وضع القوانين من الشريعة ووزيره قدرى باشا هو الذى وضع تقنينا مدنياً كاملاً فى كتابه (مرشد الحيران) ولما طلب الإنجليز إلى شريف باشا بعد احتلال مصر إخلاء السودان رفض وقال (إن تركنا السودان فالسودان لا يتركنا) .

يقول عنه محمد عبده (كان محمد شريف باشا من أقوى عوامل هذه النهضة التى انقلبت إلى فتنة) .

ولم تكن الريح تجرى رخاء لرياض فالفساد التركى فى عنفوانه والمصريون فى هم متراكب والجيش يتوثب .

كان وزير الحربية عثمان رفقى باشا شركسيًّا يضطهد الضباط المصريين فتقدم الأميرلاى أحمد عرابى بك وزميلان له بطلب من الجيش لعزله . فدعاهم فى ١٨٨١/١/٣١ للإعداد للاحتفال بزفاف شقيقة الخديو فذهبوا ليجدوا مجلساً عسكرياً لمحاكمتهم فحضر جنودهم وضربوا كبار الضباط وهرب الوزير .

وفى الغداة احتشد الجند بميدان عابدين طالبين عزله فعزله الخديو وأحال وزارته على وزير الأوقاف محمود سامى البارودى باشا ثم تقدم عرابى بطلب زيادة الجيش وإنشاء مجلس نيابى .

كان الشيخ يكره الأسرة الحاكمة فلقد طالما ظلمته وأهله قبله حتى تركوا ديارهم هاربين إلى أقارب لهم فى مركز السنطة . ولم يرجع أبوه إليها إلا بعد موت عباس الأول ليجدها كأن لم تغن بالأمس ، لكن الشيخ رأى فى الثورة نذيراً بالخطر من إنجلترا وفرنسا فعارضها مليًّا ثم انحاز إليها عندما انحاز الخديو إلى إنجلترا وفرنسا ضد بلاده . قال عن موقفه الأول :

(كنت معروفاً فى ذلك الحين بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكرى وتسوئة رأى الطالبين لتأليف مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمق ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحياناً فأرى من لدن الباب عرابى وبعض رفقائه جالسين معه ورءوسهم بادية من النوافذ فإذا استأذنت للدخول وسمعوا باسمى أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . . مررت ببيت طلبة (طلبة باشا عصمت قائد الإسكندرية فى الحرب) ثالث يوم عيد الفطر فوجدت عرابى وجمعاً غفيراً من الضباط . . فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات . كان عرابى والأستاذ . . من طرف والكاتب (محمد عبده) من طرف : هما يقولان : (إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة دستورية) والكاتب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم وأن نحمل الحكومة على العدل ما نستطيع ، وأن نبدأ بترتيبها فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تغيير الحكومة . وليس من المصلحة أن نفاجئ البلاد بأمر لم تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناس قبل بلوغ سن الرشد .

وختمت قولى بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة أن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع . . وأرى أن الشغب قد يجر على البلاد احتلالا أجنبيًّا يستدعى تسجيل اللعنة بسببه إلى يوم القيامة . تبسم عرابى ابتسام الساخط وقال : (أبذل جهدى فى ألا أكون مورد هذه اللعنة وليس الجند هو الطالب وإنما هو مؤيد لطلب أعيان البلاد) .

فسألته : وعلى من تعتمد؟ أو ممن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس بصوت لايسمعه ثالثنا : إن سلطان باشا [١] قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالمطالب متى سقطت الوزارة).

تفاقمت دسائس حاشية الخديو فاستقال البارودى من وزارة الحربية وخلفه داود يكن باشا صهر الخديو – فتواعدت فرق الجيش لظهر يوم ١٨٨١/٩/٩ أمام قصر عابدين لتطالب تشكيل مجلس النواب وإسقاط الوزارة وزيادة عدد الجيش إلى العدد الوارد فى الفرمانات . وقصد عرابى إلى الموعد على رأس لوائه ممتطياً جواده شاهراً سيفه واكتمل بالميدان أربعة آلاف جندى نزل إليهم الخديو من قصره ومعه القنصل البريطانى .

صاح الخديو بالجند : أغمدوا سيوفكم وارجعوا إلى ثكناتكم فلم يستمعوا له . ونزل عرابى عن جواده وقدم طلبات الجيش .

قال الخديو : لاحق لكم فى ذلك وأنا خديو البلد وأعمل ما أريد .

قال عرابى : ونحن لسنا عبيداً ولانورث بعد اليوم .

ودخل الخديو إلى القصر ومعه القنصل البريطانى ثم عاد القنصل يسأل عرابى : وماذا تفعل إن لم يجبك إلى طلباتك ؟

وأجاب عرابى : أقول كلمة أخرى .

قال القنصل : وما هى ؟

قال عرابى : لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط .

سقطت وزارة رياض وألف شريف وزارة جديدة فى ١٨٨١/٩/١٤ برنامجها (تصحيح الحالة المالية ووضع قوانين متناسقة متقنة النظام صريحة الأحكام) وتبهّجت الدنيا وهلّلت الصحف وكانت –كما قال المؤرخ عبد الرحمن الرافعى – (قد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة) وذاعت أنباء الانتصارات الشعبية فى أوربا . وقدم محمد عبده ومحمود سامى البارودى – وزير الحربية – وأحمد عرابى ماسموه (برنامج الحزب الوطنى) إلى المستشرق بلنت [٢] فنشره فى صحيفة التيمس البريطانية فى أول يناير سنة ١٨٨٢ .

---

(١) ولد سنة ١٨٢٥ وصار عمدة بقريته بالمنيا وعين مفتشاً عاماً للوجه القبلى فرئيساً لمجلس النواب وقد انضم إلى الخديو بعد ان كان مع الثوار وهو والد عمر سلطان باشا صاحب الزعيم مصطفى كامل والسيدة هدى شعراوى زعيمة النهضة النسائية وزوجة ابن أخته على باشا شعراوى .

(٢) Novnm Organum كان من الأحرار الإنجليز. وكان صديقاً لعرابى ودارت بينهما مراسلات من قبل قيام الثورة. أقام بعد مدة بمصر واشترى بها أرضا فى صحراء عين شمس فى جوار منزل محمد عبده .

وعينت الوزارة الشيخ محمد عبده رئيساً لقلم المطبوعات العربية والتركية[1] .

افتتح شريف باشا مجلس النواب فى ١٨٨١/١٢/٢٦ وطرح عليه مشروع الدستور فاعترض الإنجليز والفرنسيون على حق المجلس فى مراقبة الميزانية . فرأى شريف أن يفاوضهم وأيده محمد عبده . ويروى بلنت قوله (لقد لبثنا عدة قرون فى انتصار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر) لكن الضباط مالوا عن شريف إلى واحد منهم .

فاستقال شريف فى ١٨٨٢/٢/٢ ليتولى البارودى باشا الرياسة وأحمد عرابى باشا وزارة الحربية ، وصدر الدستور كاملا فى ١٨٨٢/٢/٧ . وأقيمت الاحتفالات فكان من خطبائها محمد عبده وإبراهيم اللقانى وأديب إسحق وعبد الله النديم[2] وفتحى زغلول . والأربعة الأولون زملاء فى التلمذة لجمال الدين والخامس تلميذ محمد عبده . وكان رئيس التحرير كما تقول الوقائع (يبين مزايا الحكومة الدستورية ويسميها الحكومة القانونية وينوه بوجوب إسناد النيابة إلى المتعلمين ويدعو إلى احترام حرية القول والكتابة وسن القوانين المبينة لحقوق الناس وواجباتهم) .

فزع الضباط الجراكسة لانتصارات الشعب ، فتآمروا ، وحوكموا بمجلس عسكرى قرر نفى أكثرهم . وتدخل الإنجليز فعدل الخديو الحكم . فدخل عليه البارودى ولامه لوماً شديداً ودعا مجلس النواب للانعقاد فى ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ .

وفى ١٧ مايو وصلت سفائن الأسطولين البريطانى والفرنسى أمام الإسكندرية وقدمت إنذاراً لعزل الوزارة ، وخروج عرابى وكبار الضباط من القاهرة ، فقبل الخديو الإنذار . فاستقال البارودى فى ٢٦ مايو .

* * *

ثم شرع قناصل الدول يدبرون لأمر جلل . فأعدوا كتائب من رعاياهم . ثم انسحبت السفن الفرنسية كيلا تشارك فى ضرب الإسكندرية .

وفى ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ نفذت المؤامرة فطعن مالطى من رعايا إنجلترا بالإسكندرية مصريًّا بمدية فقتله . وتوالى إطلاق المالطيين واليونانيين النار على المصريين . وقاوم المصريون فقتل من المصريين ١٦٣ ومن الأوربيين ٧٥ . وألفت لجنة تحقيق . ثم تألفت وزارة برياسة راغب باشا فى ٢٠ يونيو وزير

---

(١) كتب الشيخ فى شهر ديسمبر مقالات دستورية منها — الشورى — الشورى والقانون . وفيها قوله (إن القانون الصادر عن الرأى العام هو الحقيق باسم القانون) .

(٢) خطيب الثورة العرابية الشعبى . سيطلب الإنجليز رأسه بعد احتلال مصر فيختفى ويقدرون ألف جنيه مكافأة لمن يرشد إليه وبعد سنوات تسعة قدم نفسه لرئيس النيابة فى طنطا قاسم أمين فسافر قاسم إلى مصر والتمس عفواً عنه فاستصدره رياض باشا وأعانه على إصدار جريدة . مات سنة ١٨٩٨ .

الحربية فيها عرابى باشا . وأخذت بوارج الأسطول تقارب الشاطىء . وامتنع القنصل البريطانى من التعاون مع اللجنة وأخذ الأجانب ينزحون عن البلاد . وانتقل الخديو إلى الإسكندرية ليكون فى حماية الأسطول البريطانى .

وانعقد مؤتمر دولى فى إسطنبول خادعت به إنجلترا أوربة ومصر حتى تتمكن من احتلال مصر .

وفى ١١ ، ١٢ يوليو ضرب الأسطول البريطانى الإسكندرية واحتلها رجاله ووضعوا الخديو هناك تحت حمايتهم .

وفى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ أصدر الخديو أوامره إلى عرابى باشا بعدم اتخاذ استعدادات للحرب ، واجتمع بوزارة الداخلية فى القاهرة مجلس وطنى حضره الأمراء والعلماء والأعيان وقرروا الاستعداد للحرب . فأبى الخديو ، وعزل عرابى فلم ينعزل ، بل طلب انعقاد جمعية وطنية :

واجتمع خمسمائة من الأمراء والعلماء والأعيان فيهم شيخ الأزهر وقاضى القضاة والمفتى وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود ومحمود سامى البارودى ، ثم (تليت عليهم الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدر[illegible] عرابى وتولى هذه التلاوة « الشيخ محمد عبده » بناء على أمر حسين باشا الدره مللى وكيل الداخلية ، وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده . . وقررت عدم عزل عرابى من نظارة الجهادية والبحرية ولزوم إبقائه ووجوب توقيف أوامر الخديو ، حيث إنه خرج عن قواعد الشرع الشريف) .

ووضع الشيخ محمد عبده صيغة يمين تقاسمها – بين يديه – الضباط والوزراء والكبراء للدفاع عن الوطن كما قاد الدعوة للتطوع فى الجيش بالنفس أو بالمال أو الرجال .

وفى ٢٢/٢١/٢٠ أغسطس انتصر عرابى على الإنجليز فى كفر الدوار . وفى ٢٥ أغسطس استدعى الخديو شريف باشا لتأليف وزارة فألفها بعد أن اشترط (توسيع المؤسسات الحرة والاتجاه إلى صيانة البلاد) .

* * *

وولى الإنجليز وجوهم شطر قناة السويس فرخص دلسبس – وهو فرنسى – لسفنهم باستعمالها . ورخص لهم الخديو باحتلالها . وفى ١٣ سبتمبر بوغت الجيش المصرى فى التل الكبير فانهزم . وفى ١٩ سبتمبر أصدر الخديو قراراً بإلغاء جيشه !

وحوكم محمد عبده[1] مع الزعماء . فقدم مذكرة بدفاعه قال فيها بين ماقال (هل يقدر أحد أن

---

(١) نظم محمد عبده فى سجنه قصيدة طويلة حسبنا منها بيت واحد يشرح موقفه :

مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه   وشيمة الحر تأبى خفض أهليه .

يشك فى كون جهادنا وطنيًا صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الأجناس والأديان فكان يتألب المسلمون والأقباط والإسرائيليون لنجدته بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حول وقوة لاعتقادهم أنها حرب بين المصريين والإنجليز) .

واتهم الخديو وعمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية بتدبير الفتنة ولم يكتف عن هذا الاعتقاد طول حياته فستقرأ فى مذكراته (لا ريب أن استقراء الحوادث يظهر أتم الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفى كان سبب الفتنة) .

النفى الثانى

أبدى البريطانيون عطفاً على عرابى فلم يحاكموه على محاربتهم بل حاكموه على عصيان أوامر الخديو . وجىء به بعد أن وقع وثيقتين يعترف فى أولاهما بالعصيان ويقبل فى الثانية البقاء حيث يراد له . فسمع حكما متفقا عليه بالنفى مدى الحياة فى جزيرة إنجليزية . وكذلك كانت أحكام بقية القواد وفى طليعتهم البارودى .

أما محمد عبده فنفى لمدة ٣ سنين إلى بيروت ونفى المشايخ والضباط الكبار .

هكذا خفف الإنجليز غضب الأمة ، بالامتناع عن سفك دماء الزعماء ، بعد أن كسبوا المعركة منهم ، وأخذوهم رهائن فى جزيرتهم ، واحتلوا بلادهم . وسيفرضون عليها غرامة هى تكاليف حربهم عليها ثم يكلفونها نفقات احتلالهم لها مع زعمهم أنهم جاءوا لإصلاح ماليتها !

لكن «الوقائع المصرية» كانت أمة وحدها : فكتابها رجال «عمل» عندما يكون العمل تضحيات لا مقالات . علمهم شيخهم وعلم من يجيئون بعدهم فن قيادة الرجال ، فاحتفظ كل منهم بالحرية الكاملة ضده أو معه . أو ضد الحكومة التى هم لسانها أو معها . ولذلك ذهب كتابها الأربعة فى الثورة مذاهب أربعة . فالرئيس يعارضها ثم ينضم إليها أما سعد فهواه معها دون أن ينضم إليها ولذلك حبسه الإنجليز شهراً بعد هدوء الأحوال ثم أطلقوه . وأما الهلباوى فلم يكن هواه مع الخديو أو مع الثورة ، فجرى شوطه كاملا ضدهما حتى حكم عليه المجلس المخصوص للثورة بالسجن ثمانى سنين فى أغسطس سنة ١٨٨٢ ، ولما أطلق الإنجليز سراحه على الرغم من الخديو ، وطلبوا إليه أن يكون سكرتير المحكمة التى تحاكم عرابى رفض . فأسخط العرابيين والخديو والإنجليز وأرضى نفسه !

أما عبد الكريم سلمان فبقى فى الوقائع .

وستقرأ حكم محمد عبده على سبب الحرب (لو أن بصيراً نظر فى أحوال القطر المصرى بعين

صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل فى ذلك القطر يوم وردت المراكب الإنجليزية لثغر الإسكندرية) .

ثم نقرأ الحكم على الحرب فى قول مصطفى عبد الرازق (انتهت الثورة بالفشل وجرت على البلاد أسوأ العواقب . لا لأنها قامت على غير أساس شريف ولكن لأن دسائس الدول الأجنبية وأغراضها فرقت بين الحاكم والمحكوم . وتبع ذلك تفريق فى الأمة نفسها ليس من العدل أن نلقى إثمه على فريق جزافاً . غير أن دعاة الحرية والمجاهدين فى سبيلها هم الأشرف مكاناً والأعز عندنا شأناً وإن وهنوا وخابوا . وقد كان الشيخ محمد عبده ممن طلب بأولئك الثائرين أن تخلص البلاد من الشقاء وينقذ العباد من طول العناء .. فلا يجوز لمؤرخ أن يدعى أن الشيخ عبده كان عدوًّا للثورة وعدوًّا لما تدعو إليه .

نعم : إن الشيخ عبده لم يكن يدعو إلى الإصلاح الاجتماعى عن طريق الثورة ولكنه لما رأى الثورة قائمة لنصرة مبادئ هى مبادئه ومبادئ أستاذه (جمال الدين) اتصل بها والقى فى نارها قبساً) .

بيروت ١٨٨٢ – ١٨٨٨ :

ركب الشيخ السفينة إلى منفاه الثانى غير متكاره ، فألقت مراسيها فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٨٢م به وزوجه وبنات ثلاث وولد وأخ صغير اسمه حمودة . وهناك أخذ يراسل سعد زغلول [١] وكثيرين آخرين . وفيما يلى فقرات من إجابات سعد :

١ – ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ .

مولاى الأفضل «ووالدى» الأكمل أحسن الله معاده .

بعد تقبيل الأيدى الكريمة قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا إليه فتلوناه ووعيناه فى الفؤاد وحمدنا الله على أن شرفتم تلك الديار سالمين مبالغاً فى إكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين .. ولهم منا معشر أتباعك ومريديك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال وعظيم الإجلال ألسنة مرطبة بالثناء عليهم .. صحتى البدنية معتدلة .. أما فكرى فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعاد .. توجهت إلى البيك صاحب كتاب تاريخ العرب وسألته إعارته فأجاب بأن محمود

---

(١) ولد سنة ١٨٥٦ لأب من أعيان الريف فى قرية قريبة من محلة نصر فى شمال الدلتا ودرس فى الأزهر سنة ١٨٧١ وتتلمذ لجمال الدين ودرس التوحيد على محمد عبده واختاره للعمل معه فى الوقائع المصرية . وعين فى أواخر سنة ١٨٨٢ رئيسا لقلم القضايا بالجيزة وكان لهذا القلم اختصاص فى المسائل الجزئية – فدرس القوانين المطبقة وفصله الانجليز فى اكتوبر سنة ١٨٨٢ وفى ١٨٨٣/٦/٢٠ اعتقل حتى ١٨٨٣/١٠/٣ بتهمة تأليف (جمعية الانتقام) لقتل الانجليز وسيصير زعيم مصر ابتداء من ١٩١٣ تاريخ انتخابه عضواً ووكيلاً للجمعية التشريعية .

سامى البارودى أخذه وسافر ولم يرده إليه ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم فى أى شيء تريدون حسيًّا كان أو معنويًّا . سأتحرى هذا الكتاب فى كتب سامى عند بيعها[1] فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته فى الحال إلى حضرتكم أو أحضرته معى إن وافق ذلك استجماعى لوسائل السفر . . الحال العمومية على ماتركتها . . رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم فى الكتاب تصريحاً وتلويحاً . . الشيخ حسن الطويل ووالدى عبد الله وأخواى شناوى وفتح الله (أحمد فتحى زغلول) وكثيرون غيرهم يقبلون يديكم .

مولاى : ذكرت لحضرتك أن الضعف ألم بفكرى فبالله إلا ماقويته بتواصل المراسلة غير تارك فيه ماعودتنا على سماعه من النصائح . . وفقنا الله لمقابلتك ولا أطال علىَّ بلادك مدة غيبتك . إنك « إمامها » وإن اقتدت بغيرك ومحبها الصادق وإن لم تعرف بقدرك والسلام) ولدكم سعد زغلول .

٢ – (٨ جمادى الأولى سنة ١٣٠٠) .

مولاى : الأفضل « ووالدى » الأكمل . أحسن الله مآبه . . تفضل أدام الله فضله وتكرم أبقى الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام . .

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين . . إنى كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وماسمعت منه مايقصد به مس مقامكم الكريم . إن ظنكم فيما رأيتموه فى جريدة البرهان هو الموافق للصواب (يقصد اشتغال سعد بالمحاماة) ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم . فهو المتربى فى نعمتكم . . البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب الكمال بحسن توجيهاتكم . . ونسلم على حضرات أخينا الفاضل إبراهيم أفندى اللقانى . . ونجلكم الكريم . . صنيعتكم سعد زغلول) .

(نرجو عدم انقطاع المراسلات وأتمنى ألا أحرم كل أسبوع من كتاب . . (سعد) .

والخطاب الثالث مؤرخ ٢٧ جمادى سنة ١٣٠٠

حضرة الأستاذ الفاضل والمولى الكامل .

(وبعد تقبيل اليد الكريمة فقد ورد علينا كتابيكما الكريمين المؤرخ ١١ ج والمؤرخ ١٨ ج) .

وبعد أن تكلم عن مقالين (للسيد) وتكلم فى العلم قال (أظن الفرش وصل لحضرتكم . . طلبتم أن نوضح لحضرتكم كل ماينفق على ماتطلبونه من المصاريف ليكون لكم الحرية التامة فى الطلب . [illegible] مع جرح خاطرى لهذا التعليل أقول إن الكتب لم ينفق عليها إلا أربعة وعشرين قرشاً والفرش لا أعرف ماذا أنفق عليه . . بالله أرجو أن تعافونا من هذا البيان وكل ماترغبون إرساله مرونا به ونحن نقوم

(١) المترجم – وظاهر أن الإنجليز باعوا فى المزاد ممتلكات الزعماء المنفيين .

بإرساله ونفقاته تقيد فى دفتر مخصوص ونحن نحاسبكم على مقتضاه والحمد لله عندنا فلوس كثيرة لانحتاج إلى أن ترسلوا لنا شيئاً منها الآن . فقد شرعنا أن نتوكل فى بعض القضايا . . كاتبه ولدكم سعد زغلول) .

باريس – لندن
العروة الوثقى

انجلت التجربة السياسية «لإمام مصر» كما لقبه زعيمها فى المستقبل عن حقيقتين :

أولاهما : أن سياسة السلاطين كهيئة قيادة القردة ، وأنهم كالفقاعات الطافية على أمواج عاتية .

الثانية : أن السياسة العليا هى العمل لإصلاح الأمة بصلاح دينها لترد كيد عدوها الداخلى والخارجى معاً .

وكل إصلاح لايعتنق هاتين الحقيقتين سراب يخدع أصحابه وطلابه .

وكان يحفظ قول جمال الدين إذ عرض إخوانه عند نفيه مايقوته «إن الأسد لايعدم قوتاً» . وكان أحفظ لما علمه الشيخ درويش وهو أن يعمل بيده ليعيش «وإذا خلوت فاذكر الله» ويروى الأمير شكيب أرسلان أن أباه كان يبعث إليه نفقته[1] .

كان أهل الشام فى مطلع عصر جديد حفزهم فيه مدحت باشا (فى تركيا) إلى النهضة التعليمية . لمجاراة مدارس المبشرين ومقاومتها . فأنزلوا محمد عبده بحى زقاق البلاط قريباً من دار رئيس البلدية محيى الدين حمادة فصارت نديًّا له . وأصبح منزله مقصداً لطلاب المعرفة . وقد يستقرئ فيه فى ليالى رمضان تلاميذه كتاباً فى السيرة ليخلو المجلس النبيه من اللغو . ويخلو الحديث بذكر الرسول ﷺ أو يقرأ لتلميذ كتاباً فى المنطق أو بعض علم الكلام (التوحيد) .

ولم يقطع هذا التيار التعليمى إلا دعوة من جمال الدين فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٨٣ لموافاته فى باريس[2] ليؤلفا جمعية «العروة الوثقى» من أعضاء من شتى أرجاء الوطن الإسلامى وليصدرا صحيفة باسمها .

---

(١) توفى والد الإمام سنة ١٣١٤ هـ ١٨٩٧ م .

(٢) تلقى محمد عبده بالقاهرة سنة ١٨٨٢ خطاباً من «السيد» ليكتبه على عنوان المستشرق البريطانى بلنت فى لندن وليشكر سعد (الزغلول) كما كتب اسمه وإبراهيم اللقانى ورد النبيح عليه رداً ملؤه الولاء .

وباسم اللقانى شارع كبير فى ضاحية مصر الجديدة الآن .

هنالك أطال الشيخ شعره ولبس الطربوش كهيئة علماء المسلمين فى خارج مصر. ولبس الجبة والقفطان. وأعد وثائق تأسيس الجمعية والانضمام إليها. وكان هو نائب الرئيس.

وصدرت الصحيفة من غرفة ضيقة فى سطح منزل قريب من كنيسة المادلين مكتوباً فى صدرها (العروة الوثقى لا انفصام لها) رئيس التحرير جمال الدين الحسينى الأفغانى – المحرر الأول الشيخ محمد عبده.

أما بقية هيئة التحرير ففارسى فقير يدعى مرزاباقر[1] يترجم وينقل الأخبار. أما الشيخان فيفكران ومحمد عبده يكتب.

صدر العدد الأول فى ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ – ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ حاوياً مقالا عن (الاستعمار فى مصر) وإلزامها نفقات الحرب وإخلاء السودان لبريطانيا. والعدد الثانى مقالا عن (إنجلترا والمسألة المصرية) يعلن أن الحل الوحيد للمسألة المصرية (لايكون إلا على يد أهلها). والعدد الثالث مقالا عن (ماضى الأمة وحاضرها) يهيب بها أن تتحد. وعلى هذا الفحوى وأمثاله تطرد المقالات.

أما السياسة الدولية للعروة فالدفاع عن الإسلام بوجه عام ومنا شدة تركيا – وهى دولة الخلافة – وصاحبة السيادة الشرعية على مصر لتؤدى واجبها، أما الدول الأوربية فكلها ذئاب. ومن باريس قصد إلى لندن.

وفى لندن أعلن للصحفيين والنواب (أنه لاخطر على مصر من حركة المهدى (ثورة السودان) وإنما الخطر على مصر من وجودكم أنتم فيها. إنكم إذا غادرتم مصر فالمهدى لن يفكر فى الهجوم عليها ولن يكون فى هجومه أقل خطر وهو الآن محبوب من الشعب لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربى وسينضمون إليه عند دخوله).

(إن توفيق باشا أساء إلينا أبلغ إساءة لأنه مهد لدخولكم بلادنا. ورجل مثله انضم إلى أعدائنا فى قتالنا لانشعر إزاءه بأقل احترام. لكنه إذا ندم على مافرط منه وعمل على الخلاص منكم فربما غفرنا له سيئاته.. إننا لانريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية).

---

(٣) كان غريب الأطوار. تنصر ثم رجع إلى الإسلام. وكانت تستولى عليه فكرة توحيد الأديان. وسيتابعها بعد انقطاع العروة الظهور ويزور محمد عبده بعد عودته إلى بيروت ويؤيد محمد عبده فى دعوته.

هذان التصريحان موقعتان خاضهما لحساب مصر والسودان شاب وحيد مغترب فى دولة معادية تحتل وطنه[١].

وكان اقتناع الشيخ بالثورة المهدية دينيا وسياسيًّا . فالمهدى قد طبق الشريعة وأحدث إصلاحات نادى بها الإمام محمد بن عبد الوهاب . والشيخ من المطالبين بتطبيق الشريعة والمعتنقين مبادئ ابن عبد الوهاب . كما يظهر من كتابه رسالة التوحيد – أما من الناحية السياسية فالثورتان المهدية والعرابية قامتا ضد حكم الأتراك فى مصر أو السودان . ولما حاصرت جنود المهدى الخرطوم وفيها القائد الإنجليزى (جوردون) كان المهدى يريد استلامه حيا ليفدى به أحمد عرابى باشا .

* * *

أما الموقعة الثالثة فتقول عنها العروة : (رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لأمتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية فى رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية ، وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين فى التلوين . ومن محادثاته التمهيدية مانشر فى بعض الجرائد الإنجليزية كجريدة (البال مال جازت) وجريدة (التروت) وجريدة (التايمس) وسيذكر شىء مما يجرى بينه وبين بعض الأكابر من رجال الحكومة مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً) .

سأل اللورد هرتنجكنون وزير الحربية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة البريطانية وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك وفلان باشا وفلان باشا .

فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا إن المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلا وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب الإنجليزى . فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس ولا يصح لحضرة اللورد ، فهو على علم بطبائع الأمم ، أن يتصور هذا الميل فى المصريين .

فقال الوزير : هل تنكر أن الجهالة عامة فى أقطار مصر وأن الكافة لاتفرق بين الحاكم الأجنبى والحاكم الوطنى وأن ماذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون فى الأمم المهذبة .

---

(١) كانت رحلة إنجلترا بترتيب من مستر بلنت وهنالك وضع الشيخ العمامة على رأسه كعلماء مصر وزار مجلس العموم فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ (معمماً يرتدى جبة زرقاء أنيقة فاسترعى بزيه الأنظار وتسابق النواب والزوار إلى الردهة لرؤية أحد قادة الثورة المصرية جاء إلى إنجلترا لأول مرة يطلب الجلاء عن مصر ويرى البلاد التى كانت السبب فى نكبة بلاده) كما وصفته اليول مول جازيت (ليس عليه أدنى مسحة من التقاليد الأوربية متوسط الطول أسمر اللون ذا لحية سوداء حاد البصر له وقار ومظهر مهيب وابتسامة جذابة إذا استثاره محدثه تكلم كلام الفصيح المتواضع قوى الحجة) .

فاحتد الشيخ حدة تليق بمسلم لايتهاون فى آداء مافرضه الدين وأوجبته الشريعة وقال :

إن النفرة من ولاية الأجنبى ونبذ الطبع للسلطة مما أودع فى فطرة البشر وليس يحتاج للدرس والمطالعة وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشاً . . وثانياً أن المسلمين مهما كانوا وعلى أى درجة وجدوا لايصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير فإن الأميين منهم لايفوتهم العلم بضرورات الدين ومن أظهرها عندهم ألا يدينوا لمخالفيهم فيه وأن لهم فى خطب الجمعة ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم مايقوم مقام العلوم الابتدائية وأن جميع مايتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لايوافقهم . . وثالثاً : أن أرض مصر من زمن محمد على قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على النحو الموجود فى أوربا .

* * *

قعدت الحكومة البريطانية للعروة كل مرصد فى مصر والهند ، حيث كثرة القراء . وفرض ممثل بريطانيا فى مصر اللورد كرومر على قارئها بمصر عقوبة الجنحة (٥ جنيهات غرامة كحد أدنى !) فكانت تصادر فى البريد أو تهرب ، ثم توقفت بعد ثمانية عشر عدداً فى ١٨٨٤/١٠/١٧ .

واستيأس «الشيخ» من طريقة «السيد» وقال عنها فيما بعد .

(إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار . وقد عرضت عليه حين كنا فى باريس أن نترك السياسة وأن نذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات فنعلم ونربى من نختار من التلاميذ على مشربنا . فلا تمضى عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا فى ترك أوطانهم والسير فى الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار فقال : أنت مثبّط) .

ولم يكن محمد عبده مثبطاً . وإنما أكدت له تجربته الأخيرة أن السياسة بحر يموج بعضه فى بعض فيسق راكبيه مالا حيلة لهم فيه . وأن الخلاف بينه وبين جمال الدين خلاف فى الطبيعة والطريقة :

فالسيد «سياسى» عجل يؤثر الثورة والهدم. والشيخ «فقيه» بنّاء يؤثر تربية العقول على تجييش الغضب بعد أن احتل الجيش البريطانى قلب الوطن العربى فى مصر . .

إليك نماذج من أقوال السيد وأفكاره وأقوال الشيخ وأفكاره إذ يكون فى جواره :

كان جمال الدين يخطب فى الإسكندرية من بضع سنين فيقول : (أنت أيها الفلاح المسكين لماذا لاتشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك) ! ويورد مستر بلنت صاحب (التاريخ السرى للاحتلال البريطانى) حديثاً للشيخ بعد ربع قرن فى مارس سنة ١٩٠٣ بداره ، جاء فيه أن جمال الدين – فى وقت معاصر للخطبة السابقة – اقترح عليه قتل إسماعيل ، وأن محمد عبده قال : (وكنت أنا موافقا الموافقة كلها على قتل إسماعيل لو أننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت . فربما كان فى إمكاننا أن ننظم

الحركة لأن قتل إسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر أحسن مايمكننا عمله) .

وفى باريس كتبت العروة الوثقى ، بلسان « السيد » وقلم الشيخ »[١] ، عن نوبار (الرجل ليس بمصرى ولا عربى ولامسلم . فإذا باع مصر بأبخس الأثمان فهو الرابح . لاخسر ملة ولا وطناً ولاجنساً . . إنى أتعجب وكل ذى إحساس من سكان مصر من المصريين والأتراك والحجازين واليمنيين . ألا يوجد بين هؤلاء من يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمنى فيبطل هذه الصنعة وينقض هذه البيعة ويكشف له وللمترددين من أمثاله حقيقة الوطنية)[٢] .

قفل الشيخ راجعاً من باريس فلم ير أحد الرجلين بعد ذلك صاحبه . . وكل ميسر لما خلق له . .

وجرى « السيد » شوطه السياسى حتى نهايته . فتنقل بين باريس ولندن حتى سنة ١٨٨٦ . ولقى الشاه ناصر الدين سنة ١٨٨٦ فدعاه إلى طهران فلبى . ثم تركه وقصد إلى روسيا يتنقل فى حواضرها . واستقبله القيصر . ثم ترك روسيا إلى عواصم أوربية . وفى سنة ١٨٨٩ لقى الشاه ثانية فدعاه فلبى ثم اختلفا . فخرج مغاضباً له وحرض رجال الدين عليه فأصدروا فتوى بمقاطعة شركة إنجليزية تحتكر الدخان هيجت أفراد الشعب على الشاه .

وقتل واحد من تلاميذ جمال الدين الشاهَ سنة ١٨٩٦ واعترف بأن جمال الدين وحده كان واقفاً على أسرار خطة القتل . وطلبت فارس إلى تركيا تسليم جمال الدين فرفضت تركيا . وكان السلطان عبد الحميد قد دعاه فى سنة ١٨٩٢ إلى اسطنبول فوافاه ، حيث بقى فيها كالأسير فى القفص الذهبى من جوار السلاطين حتى مات فى شوال سنة ١٣١٤ هـ – مارس سنة ١٨٩٧ .

العودة إلى بيروت :

أما الشيخ فعاد أدراجه إلى بيروت سنة ١٨٨٥ بعد أن زار تونس . ثم دخل مصر متخفياً فكان يلم

---

(١) ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الأمام يقول : (إن الأفكار فى العروة الوثقى للسيد ليس لى فيها فكرة واحدة ، والعبارة كلها لى ، ليس للسيد فيها كلمة واحدة) .

(٢) رمى نوبار مصر بنظام المحاكم المختلطة الذى صير الأجانب فى مصر ملوكاً غير متوجين وكان يستعمل الرشوة فى كل اتجاه ، ومن ذلك أصدر لنفسه وهو وزير أشغال امتيازاً بإنشاء شركة تبيع مياه النيل لأهل القاهرة روى عنه اللورد كرومر قوله إنه « سيرحل عن مصر مع آخر جندى بريطانى » ولذلك فرضه الإنجليز على الخديو توفيق ليجلى الجيش المصرى عن السودان سنة ١٨٨٤ . وكانت فيه قحة العميل المعلن وطرده الخديو من الوزارة فى ٧ يونيو سنة ١٨٨٨ قائلاً :

(إنه بناء على ماوقع فى المجلس بالأمس وماهو إلا تكرار ماحدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد فصلتك من وظيفتك) .

مع ذلك سيعيده الإنجليز فى عهد ابنه الخديو عباس ليكيد للخديو الجديد – كما كاد لأبيه وجده .

فى القاهرة بمنزل على بك رفاعة[١] . وسيبقى المبيت به بعض عاداته حتى آخر حياته .

كان أول صنيع له فى بيروت ترجمة رد جمال الدين على الدهريين من الفارسية إلى العربية[٢] . كما جلس لتفسير القرآن ثلاث ليال فى الأسبوع فى مسجد الباشورة وفى عصريات رمضان فى المسجد العمرى الكبير . فكان المسجد يضيق بالسامعين . وكان المسيحيون يقفون جماعات على بابه ، ثم تعودوا الدخول . ثم صار له مجلس فى داره يُفاقه فيه الجميع ، وكما يقول الأمير شكيب أرسلان (يجتمع بحضرته علماء السنة ومجتهدو الشيعة وعقال الدروز وإلى جانبهم أساقفة النصارى . . وكانوا يرون التردد عليه أمرا طبيعيا ويجدون فيه مرجعا عاما) .

وفى هذه الأثناء جاءته دعوة جمعية المقاصد الخيرية ليعلم تلاميذ المدرسة السلطانية الفقه والسيرة واللغة . فكان من تلاميذه عظيمان درسا عليه فقه أبى حنيفة وهما الأمير شكيب أرسلان وعبد الباسط فتح الله . ثم تخطف الردى ولداً له ، ثم زوجته .

وتجلت فى شخصه وفعله سماحة الفكر فكان قسيس الكنيسة يعرض عليه موعظته . وكان يحتفى بعباس البهاء زعيم البهائية – وإن ناقضه – وصار من عاداته أن يلقى المحاضرات فى حفلات التخرج السنوية . ثم بنى بزوجة من بيت حمادة سيرزق منها ببنت رابعة .

وفى سنة ١٣٠٤ (١٨٨٦) كتب لائحتين عن التعليم وقع معه وجهاء بيروت على إحديهما وأرسلها إلى شيخ الإسلام فى إسطنبول . أساس التعليم فى الأولى التربية الدينية ، والتعليم الدينى والابتدائى والوسط والعالى ، أما الثانية فتتعلق بأهل الجبل وأهل بيروت وسورية . . واستمر ينشر فى الصحف وبخاصة مجلة (ثمرات الفنون) ومن مقالاته فيها مقال يرفع الوحدة الوطنية للمسلمين والأقباط بمصر إلى مستواها من وصية النبى عليه الصلاة والسلام ، فلم تشغله عنها شواغل ليله ونهاره أو غربته وأسفاره .

* * *

ففى عام ١٣٠٥ (١٨٨٧) نشبت فى مصر معارك صحفية اتهم فيها بعض الكتاب بطرس باشا غالى وكيل وزارة الحقانية بالتعصب الدينى . فكتب الشيخ مقالا فى مجلة ثمرات الفنون ، وبعث به إلى سعد

---

(١) هو ابن رفاعه بك . وسيلى وظيفة وكيل وزارة المعارف ويعطى لقب باشا .

(٢) ساعده على الترجمة تابع جمال الدين (العارف أبو تراب) وكان قد سافر إلى بيروت حين نفى إليها محمد عبده . ويرى البعض « أن الشيخ تعلم » الفارسية قبل ذلك إذ تعرف منذ دخل الأزهر بمحمد مهدى صاحب جريدة (حكمت) التى صدرت فى القاهرة باللغة الإيرانية سنة ١٨٩٢ ، وكانت الفارسية لغة جمال الدين الأصلية كما كان لإيران والأفغان مكان بارز فى مقالات العروة الوثقى . وهى تنشر عن اللغة الفارسية فى مقال (إنها فى الشرق كاللسان الفرنساوى فى الغرب) .

زغلول – وكان المحامى الأول بمصر – وكلفه أن يسعى لنشر المقال فى « الجرائد الإسلامية » حسبنا منه بعض فقرات تشير إلى سائره .

(أتت جريدة على ذكر مايشاع من الخلل فى المحاكم الأهلية بمصر وتذرعت بذلك إلى الكلام فى وكيل الحقانية وناطت جميع الخلل بأثرته وتطرفه فى الميل إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم فى مناصب القضاء ومايتعلق به من لا أهلية فيه إلى إجادة العمل . . فعارضتها جريدة أخرى . . ثم رأينا فى مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع فى القاهرة تلويحاً وتصريحاً بالخلل الواقع فى المحاكم وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية .

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لاينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة . فإن ذلك اعتداء على غير معتد . ومحاربة لغير محارب . أو كما يقال جهاد فى غير عدو . وهو مما ضرره أكثر من نفعه ، إن كان له نفع ، فإنه يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة . .

فنحن نرى رأى الجريدتين المحاميتين عن طائفة الأقباط فى مصر . فإنها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبى ﷺ ، فقد عهد إلى أصحابه إذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبطها خيراً . وقد كان حسن حال الأقباط مظهراً لصدق نبئه عليه الصلاة والسلام . . فلا ينبغى لمبتغى الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما ما لاتخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم . ويجب أن يكون النقد خاصًا بالعمل الذى ظهر فيه الخلل . .) .

ومن المقالات مقال عنوانه : (الانتقاد) يستهله بمقولةٍ معبرة عن منهاجه (ما وعظك مثل لائم ولا قومك مثل مقاوم) .

وفى سنة ١٣٠٦ (١٨٨٨) نشر له بحث شرعى أصيل عن آفة وضع الأحاديث النبوية ، جواباً عن سؤال عن صحة كتاب منسوب للواقدى (فتوح الشام) فنفى صحة الكتاب وبين أن الكذب قديم ومن ذلك قوله :

بل عهد الكذب على النبى ﷺ . فى حياته حتى خطب الناس قائلا «أيها الناس قد كثرت على الكذابة . ألا من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» أو كما قال . . إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حتى على الناس بلاؤه فى دولة الأمويين فكثر الناقلون وقل الصادقون وامتنع كثير من جلة

الصحابة عن الحديث إلا لمن يثقون فى حفظه خوف التحريف فيما يؤخذ عنهم حتى سئل عبد الله بن عباس رضى الله عنه لِمَ لم تحدث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه أنه قال (ما رأيت أهل الخير فى شىء أكذب منهم فى الحديث) . . ولقد روى عن الإمام مالك رضى الله عنه أنه قد كتب كتابه الموطأ حاوياً أربعة عشر ألف حديث عن النبى ﷺ فلما سمع حديث (قد كثرت على الكذابة فطابقوا بين كلامى والقرآن فإن وافقه وإلا فاطرحوه) عاد إلى تحرير كتابه فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفاً أكثر من ألف . .) .

واستطرد لبيان أسباب الوضع بقصد مهاجمة الدين مما يضيق المقام عن سرده .

وأكبّ على تدريس فقه «المجلة العدلية » التى قنن فيها الأتراك فقه أبى حنيفة فى المعاملات المدنية وأعد نسخة أولى لرسالة التوحيد .

وألح عليه أهل العلم فى بيروت ليشرح مقامات بديع الزمان الهمذانى كما قال فى المقدمة فتضاعف حجم المقامات بشرحه لها مرات .

ثم استخار الله فخار له فشرح «نهج البلاغة » وكتاب «أسرار البلاغة » .

نهج البلاغة للإمام على :

«نهج البلاغة » مجموع خطب أمير المؤمنين على ورسائله . وتدريسه تدريس لسيرته وبلاغته . وهو بطل معارك النبى غير منازع . وخلافه مع معاوية وظلم الدولتين الأموية والعباسية لأهل البيت بعده عبرة التاريخ . أما علمه وبلاغته ففيهما قول النبى عليه الصلاة والسلام (أنا مدينة العلم وعلى بابها) .

وجامع نهج البلاغة وشارحه الأول هو الشريف الرضى (٤٠٦) وهو حفيد على من فاطمة الزهراء وواحد من أعلام الطريق فى مدرسة جدّيه . مثّل – وهو زعيم شيعى – الخليفة السنى فى إمارة الحج . وهو الشاعر الذائع الصيت . وله كتابا (تلخيص البيان فى إعجاز القرآن) و(المجازات النبوية) يقفان شامخين فى جوار ديوان شعره لينتفع بهما المفسّرون والمحدثون والمتفقهون .

ويندر أن يتعلم أحد مثلما تعلم – هو فى الفقه السنى تلميذ (الأكفانى (٤٠٥) والخوارزمى (٤١٣) والطبرى (٤٢٠) أما علوم الحديث فتلقاها على على بن عيسى (٣٩١) وأما فى الفقه الشيعى فهو تلميذ الشيخ المفيد (٤١٣) أحد الأركان الأساسية للفقه الشيعى . ولعل تلمذته فى اللغة أعظم . مذ درسها على النحاة واللغويين العظماء :

(السيرافى (٣٦٨) وأبى على الفارسى (٣٧٧) وابن جنّى (٣٩٢) كما تلمذ للشاعر ابن نباتة (٣٨٠)

وهو فى الأصول تلميذ نجبة الاعتزال القاضى عبد الجبار (٤١٥) . وعلم هؤلاء جميعاً يترقرق صافيا فى شرحه لنهج البلاغة فينقل قارئه إلى أفلاك رفيعة فى اللغة والفقه والسيرة والعقيدة .

وفى كتابىْ الشريف الرضى المشار إليهما يتصدى لأدق (المتشابه) فى القرآن والحديث ، مثل (أصابع الله – يد الله – نفس الله – يمين الله) فيفسرها بلغة العرب وبالقرآن وبأحاديث جده عليه الصلاة والسلام .

ومايزال شرح محمد عبده لنهج البلاغة مرجعاً أساسيًّا لكل من يتصدى لدراسته أو تدريسه[1]

* * *

ولسائل أن يتساءل : لماذا اختار تدريس نهج البلاغة فى بيروت ؟ والجواب ليس مقتصرا على عشق اللسان الذى نزل به القرآن أو هديل طائر بعيد من فننه يتغنى بالإسلام فى أيام مجده . أو انجذاب صوفى أصيل إلى الإمام الذى يضعه الصوفية كافة فى قمة نظامهم .

وإنما الشيخ لايعتبر أحدا عالما إلا إذا نفع بعلمه الناس . وهو أستاذ فى اللغة يتصدى لما يتهيبه الجميع ويشرح المعانى العالية والسير العاطرة للمسلمين ليقتدوا ويتحدوا فى عصر كله فتنة . والشام – كمصر – وطن له . وفى الكلام عن الوحدة فى لبنان إيلاف بين الشيعة وأهل السنة . وطوائف لبنان شتى والتآخى أنشودتها .

وفى نهج البلاغة قول أمير المؤمنين : (إن جماعة فيما تكرهون من الحق خير من فرقة فيما تحبون من الباطل) .

والمسيحيون والمسلمون أجمعون يذكرون من عهده للأشتر النخعى واليه على مصر : (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم . ولاتكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم . فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين أو نظير لك فى الخلق . يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ . فأعطهم من عفوك وصفحك الذى تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه . .)

ولقد زاده نهج البلاغة ودراسة جامعه ودراسة مقامات بديع الزمان وأسرار البلاغة بصراً بدقائق اللغة وأسرار المجاز . . فانكشف له الفحوى فى نصوص لفلاسفة المتصوفة يبلغ بها المجاز حد الإلغاز ، فى كتاب الفتوحات المكية لابن عربى ، فيقول فيه : (إنه عندى كتاريخ ابن الأثير لايقف فهمى فى شىء منه) . ويرد بعض المؤلفين هذا المقال إلى تصوف محمد عبده . وهو على كل حال شهادة

---

(١) لم يتصد لتفسير نهج البلاغة إلا العظماء من المحدثين والمفسرين والعلماء ومنهم البيهقى المحدث (٤١٨) والفخر الرازى المفسر (٦١٠) وابن أبى الحديد المدائنى (٦٥٥) .

« صوفى سلفى » لابن عربى[1] .

وواتته المعايشة الصادقة للسيرة العلوية مزيداً من الفتوة بمعناها عند المتصوفة : إذا قال أمير المؤمنين على : (ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله) ، رأينا محمد عبده يذوب رحمة بالفقراء ويمسك الميزان مع الجبابرة ليقول عنه الخديو الجالس على عرش الفراعنة لحاشيته : (يدخل على وكأنه فرعون) ويقول محمد عبده لحسن عاصم إذ وصّل إليه القول (وأينا فرعون ؟) .

---

(١) راجع ص ٥٠ – ٥٨ – ٥٩ – ١٤٩ – من كتابنا (الإمام محمد عبد الوهاب أو انتصار المنهج السلفى) طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٨ .

الباب الثالث

الشيخ الرئيس

١٨٨٨ – ١٨٩٩

١٣٠٦ – ١٣١٧

(إن صورة الانتساب إلى دين لاتغنى عن اتباع
هديه الصحيح)

محمد عبده

أثبتت بيروت لمحمد عبده أن الإسلام دار واحدة . وأن فيها منطلق جهاد كالقاهرة . ومع ذلك غلبه التوق إلى ربوع مصر . والبُرُد تجرى بين الشواطئ فتثير الشجىّ والخلىّ . وسيرة الشيخ أنشودة عامة يترنم بها الهلباوى بك بعد نصف قرن فى مقالاته عن رجال القضاء السابقين فى كتاب اليوبيل الذهبى للمحاكم الأهلية (١٨٨٣ – ١٩٣٣) فيقول : (وأذكر أن جميع الذين أبعدوا عن مصر بسبب الثورة بعدت عنا ذكراهم وجهلنا سيرتهم من يوم نفيهم إلى يوم عودتهم إلا الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان اسمه يجلجل فى جميع المحافل المصرية فى أثناء هذه المدة كأنه بين ظهرانينا) .

وكان سعد يتصدر صحبه ويبهر قاعات المحاكم بمرافعاته منذ افتتاحها فى ديسمبر ١٨٨٣ فأجمع عليه المتقاضون من الأمراء والعظماء والشعب . ومثل مصر كلها فى العمل لعودة «إمامها وإن اقتدت بغيره» كما كان يكتب إليه ، فوسط الأميرة نازلى فاضل (١٩١٤/١/١) لاستصدار عفو عنه من الخديو الذى ثار عليه فى القاهرة واتهمه بالخيانة فى باريس ولندن فوق ماله عليه من ذنب الإفتاء بخلعه فى سنة ١٨٨٢ كما كان يعتقد ..

ووسطت الأميرة – وهى بنت الأمير مصطفى فاضل أخى الخديوى إسماعيل – لدى الخديو مختار باشا «الغازى» نائب تركيا فى مصر . فصدر العفو بناء على وساطته . وسيذكر له محمد عبده هذه اليد عنده فتكرر زياراته له . ويقول الباشا بعد موته : (إن دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف) . ومع ذلك فاللورد كرومر يذكر فى كتابه (مصر الحديثة) أن العفو صدر بسبب الضغط

البريطانى . فى حين يذكر إمام المعية الشيخ محمد البسيونى أن الخديو قال : (ماعفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار إلا هذا) .

ضنّ الخديو على الشيخ العائد بوظيفة كان يرجوها ، هى التدريس فى دار العلوم أو الأزهر ، كيلا يجتمع بالشباب . فجلس – متطوعاً – يلقى درساً فى التفسير فى جوار إحدى أساطين الأزهر وهو يقول معزياً نفسه : (كنت أقوم بدرس التفسير قديماً) .

وستبقى لديه من ذكريات ذلك الدرس أن كثيراً من حاضريه كانوا من طلاب مدارس الحكومة ، لما فى الدرس من فوائد ، وأن منهم قبطيين كانا يكتبان ما يدلى به .

* * *

لكن للأساطين همهمة كالطنين : لقد خصص كرومر إيراد مصر لسداد «فوائد» الديون لا الديون . وقدّم قطنها طعمة رخيصة لمصانع لانكشير . وعطل الحكم النيابى وأنشأ مجلساً للشورى وألغى مراحل التعليم . بل قصره على المرحلة الابتدائية ! ثم عزم أن يحل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية !

وفى سنة ١٨٨٤ أعلنت بريطانيا أنها تضع مصر فى شبه حماية . وصفت الوجود المصرى فى أفريقيا بعد إذ كانت قواتها تحتل الصومال طبقاً لمعاهدة بينها وبين إنجلترا فى ١٨٧٧/٩/٧ ، ومصر والسودان بلداً واحداً فيه منابع النيل (بحيرة فكتوريا – بحيرة ألبرت – بحيرة إبراهيم) والقوات المصرية فى أفريقيا حتى رأس جردافوى – (القرن الأفريقى الآن) على مبعدة آلاف الأميال تحت مدخل البحر الأحمر . تسيطر على بربرة وزيلع وهرر وجيبوتى ومن تحتها أقاليم كينيا وأوغندا ، فكانت السفن تبحر من ميناء إسماعيل (قسمايو) على المحيط الهندى حتى بورسعيد فى حماية مصرية (انظر الخريطة صفحة ٥١) .

وكانت جيوش مصر – فى عهد إسماعيل تدافع عن تركيا فى كريت وفى شبه جزيرة القرم (روسيا)[1] وتدافع فرقة منها فى المكسيك عن سياسة فرنسا !

وسيبلغ الإنجليز أغراضهم لإفقار مصر فتصرح لجنة شئون الميزانية فى مجلس الشورى سنة ١٨٩٤ (بأن الأمة المصرية سائرة فى طريق الفقر وعسر الحال) ويعلن الأمير حسين كامل : بعد سنين (أن

---

(١) يقول البارودى الذى كان يقود الفرق آنذاك إذ يعود من المنفى كفيفاً ، بعد بضعة عشر عاماً ، سنة ١٩٠٠ :

أين المعاقل بل أين الجحافل بل ... أين المصاول والخطية الشرع !


وفى سنة ١٩٠٠ يقول حافظ إبراهيم :

فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت ... جادت جفونى لها باللؤلؤ الرطب

كأننى عند ذكرى ماألم بها ... قرم تردد بين الموت والهرب

إذا نطقت فقاع السجن متكأ ... وإن سكت فإن النفس لم تطب

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا ... ونحن نمشى على أرض من الذهب



تركيا
الشام
العراق
ايران
الخليج العربي
مطروح
أسكندرية
القاهره
السويس
قنا
المدينه المنوره
بلاد الحجاز
مكة المكرمه
جدة
حدود مصر بعد الاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢
السودان
إرتريا
بحيرة تانا
خليج عدن
أديس أبابا
الحبشة
الصومال
المحيط الهندى
مقديشو
خط الاستواء
قسمايو
حدود مصر الجنوبيه فى عهد اسماعيل
كينيا
نيروبى
بحيرة ألبرت
أوغندا
بحيرة ادوارد
بحيرة فكتوريا

الفلاح المصرى يقضى حياته مثقلا بالدين لايزيد إيراده على الضرائب المفروضة عليه وفوائد الديون المطلوبة منه) .

وتخطف البطش الأنفس وذهبت ريح الأحرار وتشذروا فى الآفاق . وساد الذين مردوا على النفاق . وسكتت أصوات ٢٩.٥٠٠ مصرى سجنهم الإنجليز عندما دخلوا القاهرة ! وسادت الإمّعات الطائعة أو الطامعة وأصبح المجتمع رجْراجة !

لم يعتزل الشيخ مجتمعه فى هذا التيه الكريه بل كظم كمده واتجه إلى تعليم الأمة . فقدم إلى كرومر تقريراً بوسائل إصلاح التعليم بوجه عام – أما فى صدد الأزهر فرأى أن الإصلاح يكون بالتدرج . ولم يقدم صورة من التقرير إلى رياض باشا رئيس الوزارة مما ينم عن تقطع الأسباب بينهما وأنه كان يأتى الأمور من أبوابها ، مثلما قدم تقرير إصلاح التعليم فى سورية إلى شيخ الإسلام مباشرة فى إسطنبول ، ومثلما سوف يصنع إذ يحدث الخديو نفسه بعد سنوات عن إصلاح الأزهر – إدراكا منه أنه ينوب عن «الجماعة» والحديث باسمها لا يجرى إلا مع أولى الأمر . .

واستأجر داراً فى شارع الشيخ ريحان على مقربة من قصر عابدين وكان يقول (نحن نناطح عابدين مناطحة) وسينتقل فيما بعد إلى حىّ الناصرية ثم إلى ضاحية عين شمس .

فى القضاء

لم يطل زمن التطوع فى حلقة الأزهر فالدولة أحوج إلى العالم الحق منه إليها .

كان النظام القضائى الجديد وليداً . ورجاله حريصون على أن ينافسوا القضاة الأجانب بالمحاكم المختلطة . والشيخ قد عاد إلى مصر إماماً له أنصاره .

وأولو الأمر فى القضاء مجمعون عليه كما صرح بذلك الهلباوى بك فى المرجع السابق حيث قال : (شعر كثير من أنصاره فى مصر بالحاجة إلى عودته فدعوه ملحين ليعود .

والقائمون بأمر القضاء فى وزارة الحقانية كانوا يشعرون بحاجة القضاء إلى وجود مثل هذا الرجل بين رجاله .

مواهبه والإجماع على الحاجة إليه ذللت العقبة التى كانت قائمة بشأن رجوعه أو دخوله فى القضاء حتى رضيت السراى بتعيينه على أن يكون نائب قاض وفى يونيه سنة ١٨٨٨ عين نائب قاض ببنها) .

كان الإنجليز قد فرضوا على هذه المحاكم : (القانون الفرنسى . قانون نابليون) فأخذ الشيخ يحكم بأصول شرعية تمكنه بعمومها وعدالتها من احتواء أحكام القانون الفرنسى أو تفادى تطبيقه :

كأن يحدث صلحاً بين الخصمين حتى لايحكم « بالفائدة » .

أو يحكم بالعدل لا بالنص فى قضية . . ويسأله « المستشار القضائى سكوت » – بناء على شكوى فيجيبه بسؤال : هل العدل وضع لأجل القانون أو القانون وضع لأجل العدل ؟ ويشرح له الأمر فينشرح به صدره .

أو يسىء أجنبى الأدب فى الجلسة – محتمياً بالامتيازات – فيأمر بحبسه . وسأله (سكوت) : فقال (مادمت على كرسى القضاء فلن أقصر فى احترامه) .

وذات يوم استعان مصرى مغتصب بإنجليزى ليرفع علم بريطانيا على أرض غصبها فأمر محمد عبده بنزع العلم وطرد الغاصب .

وطارد الفواحش ماظهر منها ومابطن حتى لتقول امرأة فى الزقازيق (إن النبى ظهر ثانية) .

وكان يفطر فى المحكمة فى رمضان ليكتب أسباب الأحكام بعد الإفطار يوم تصدر الأحكام .

وأخذ الشيخ سمته بين الزملاء فبلغ الأوج . يقول الهلباوى بك :

« وأذكر أنه فى هذه المدة الطويلة لم يشتغل فى الدوائر الكلية إلا بعض جلسات قليلة أما عمله المستمر فكان فى محكمة عابدين .

ومحكمة عابدين كانت وماتزال أهم محاكم القاهرة . ولا أذكر أن كرسى القضاء فيها جلس عليه رجل كان موضع إعجاب جميع الطبقات من متقاضين وصحفيين وسواهم مثل المرحوم الشيخ محمد عبده أولا[1] والمرحوم عبد الخالق ثروت باشا من بعده . . كان محمد عبده يصدر الحكم ويشفعه أو

---

(١) كانت أحكامه ذات المبادئ تنشر فى المجلات القانونية . إليك مثلا بعض حيثيات من حكم له بمحكمة عابدين فى ٥ أكتوبر ١٨٩٤ .

(من حيث إن الأصل العام الذى أسست عليه جميع أحكام الشرائع فى إلزام شخص بتأدية شيء إلى آخر هو أن يكون الأداء على قدر العوض حاصلاً كان بالفعل أو مؤملاً فيه عند العقد . . . وليس من الجائز أن يؤدى شخص شيئاً لم ينتفع به أو لم يأمل الانتفاع به . لأن هذا هو الظلم بعينه . ولكن ضرورة اتساع المعاملات وضعف الثقة أحياناً بالذمة الواحدة ألجأت إلى ضم ذمة إلى ذمة أخرى فى الالتزام بالأداء وإن لم ينتفع صاحب الأولى بشيء مما يلتزم بأدائه أو أداء عوضه . . . فالتزام الضامن أمر جاء على خلاف الأصل وقررته الشرائع باقتضاء الضرورات . فلا يجوز التوسع فى القياس لأن ماسوغ بضرورة قدر بقدرها .

ومن حيث إن الشرائع الصحيحة قد قسمت الضمان إلى قسمين : كفالة تضامن وكفالة لا تضامن فيها . فالأولى ماالتزم فيها الضامن أن يكون بمنزلة المضمون فى الالتزام بالأداء فى جميع الأحوال بنص فى عقد الضمان أو نص فى القانون . والثانية ماشرط فيها الالتزام بعجز المضمون أو امتناعه عن الأداء عند وجوبه أو نحو ذلك أو سكت فيها عن التعميم والتخصيص . وحكم القسم الأول من الكفالة انشغال ذمة الضامن مع المضمون وأن للداين أن يتبع أيهما يشاء . وكل ماصح إجراؤه مع أحدهما صح إجراؤه مع الآخر وكل عمل رسمى جرى مع أحدهما يعتبر جارياً مع الآخر . ولكن لكون هذا الحكم جاء على خلاف الأصل المعقول رأى أهل الشرع وجوب التصريح به . وجرى على ذلك القانون المصرى فى المادة ١١٠ حيث قال مطالبة أن أحد المدينين المتضامنين مطالبه رسمية وإقامة الدعوى عليه بالدين يسريان على باقى المدينين . والكفلاء المتضامنون مع المدين الأصلى يعتبرون مدينين . فالتصريح بأن إقامة الدعوى=

يسبقه أحياناً بدروس ومواعظ يلقيها على المحكوم عليه والجمهور إلقاء يشعر الجماهير والمحكوم عليه نفسه أنهم فى حضرة أب ومصلح كبير. ولقد كنا نتحدث فى مجالسنا بهذا ونعجب لهذه النتائج التى يحصل عليها هذا المعلم المفطور بطبيعته بين سامعيه ومتقاضيه ، إذ لم يحصل إلا نادراً أن عاد إليه متهم أو خصم بمثل ماحكم عليه به من قبل) .

ثم تلاحقت الخطى فى الصعود فهو يرقى فوراً قاضياً من الدرجة الثانية بالمنصورة ثم ينقل إلى الزقازيق ثم يرقى إلى الدرجة الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٢ ثم مستشاراً فى الاستئناف سنة ١٨٩٥ لنراه عضو اليسار فى دائرة باسيلى بك تادرس سنة ١٨٩٦ وفى دائرة سعد زغلول بك سنة ١٨٩٧.

ويقول هلباوى بك عن عمله فى الاستئناف (إذا لم نجد للأستاذ عملا بارزاً فى القضاء فما ذلك إلا لأن عمل القضاة فيما بينهم مشترك مستور . وكل مانستطيع أن نقوله عن مدة السنوات الأربع التى لبثها فى الاستئناف أنه كان من أوائل القضاة ومفخرة من مفاخر الوطن)[1].

= على أحد المتضامنين تسرى على الباقين تصريح بأنها لا تسرى على غير من أقيمت عليه الدعوى إذا لم يكونوا متضامنين .

ومن حيث إن عقد الكفالة فى هذه القضية قد صرح باشتراط تأخير المستأجر عن أداء الإيجار فهى ضمانة لا تضامن فيها فالدعوى التى أقيمت من المالية على المستأجر لاتسرى على المتضامن. فإذا لم تسر عليه لم يوقف بالضرورة مضى المدة التى يسقط الحق بمضيها.

ومن حيث إن نظارة المالية متمسكة بالحكم الصادر من محكمة الأزبكية وهى إنما تطالب الآن بالمحكوم به فى ذلك الحكم . . .

ومن حيث إن ذمة الضامن قد اشتغلت بالدين من يوم عجز المستأجر عن الأداء وظهور ذلك لنظارة المالية فيكون الدين قد لزم ذمته فى ٥ مارس سنة ١٨٨٨ .

ومن حيث إن صدور الحكم بالمبلغ لايغير الدين ولا ينقله عن صفته فهو لم يزل إلى الآن أجرة . لأن استبدال الدين بغيره مقيد بطرق فصلت فى المادة ١٨٧ وليس الحكم من تلك الطرق . على أنه لو فرض أن الدين استبدل بآخر فقد صرحت المادة ١٩٠ مدنى بأنه لايصح فى أى حال من الأحوال نقل التأمينات الشخصية كالكفالة والتضامن إلا برضاء الكفلاء والمتضامنين .

ومن حيث إن المادة ٢١١ مدنى صريحة فى أن مااستحق دفعه سنوياً أو بمواعيد أقل من سنة يسقط حق المطالب به بمضى خمس سنوات) .

(١) فيما يلى أسباب فى قضية استئناف عادية صيرها أسباباً غير عادية اشتراك محمد عبده وسعد زغلول فى تحريرها ويبده القارئ لها إخلاص الرواد الأوائل لقضاة مصر وامتيازهم إذا قورنوا بالقضاة الأجانب فى المحاكم المختلطة ، وكانت دولهم تختار قانونيين عالمين لتمثيلها فى القضاء المختلط – والحكم صادر فى جلسة ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٧ وكان الشيخ محمد عبده عضو اليسار . وفى الحكم تظهر آثار النحو العربى والفرنسى جميعاً وإحاطة الإمام وتلميذه – الرئيس – بالفقه الفرنسى (وحيث إنه فيما يتعلق بتطبيق العقوبة فإنه يشترط لوجود الجنحة المدونة فى المادة ٢١٩ – الآن ٢٤١ – جملة شروط منها وجود الجرح أو الضربات ماديًّا وأن ينشأ عنها مرض أو عجز أو عن الأشغال الشخصية أزيد من عشرين يوماً . وحيث إن هذين الشرطين مستفادان صريحاً من نفس المادة المذكورة . فلزوم وجودهما واجتماعها وترتب إحداهما على الآخر مما لا يقبل بحال من الأحوال .

وحيث إنه ينتج من ذلك حتماً أنه لايصح اعتبار مجرد الجروح أو الضربات مرضاً لأن القانون اعتبرهما أمرين مختلفين مستقلين فى وجودهما واشترط اجتماعها معاً وأن يكون أحدهما علة ومنشأ للآخر.

وحيث إن عدم استطاعة الأعمال الشخصية هو المعنى الملحوظ للقانون من المرض وهو الجهة التى نظر إليها فيه ولذلك عطف عليها (عجز) الذى هو نص صريح فى هذا المعنى ، بياناً له بعبارة أخرى . =

كانت جهود الشيخ ليحتل مكاناً علميا يليق به بين كبار القضاة فى عصره ، وهم كبار القضاة فى كل العصور ، آية إخلاص جديرة به . فانتقال الفكر من المنهج التقليدى فى فهم الفقه الحنفى والمالكى إلى المنهج العصرى الفرنسى الأصول والفروع ، وإحسان تطبيقه ، وبلوغ الغاية من ذلك ، على الفور ، أمور فوق العادة . وفوق الطاقة ، لكن الإخلاص يجعل العمل عبادة ، وليس أعبد من الإمام وهو يوزع العدالة . والعدل صفة من صفات الخالق سبحانه . وسنرى الإمام بعد بضعة أعوام يتطوع فيضيف على كاهله شواغل عظيمة ذات أهمية ، لتدلنا شواغله الشتى وإيفاؤه فيها على الغاية ، على أنه كان أمة فى رجل

تحرير المرأة :

أصبح صالون الأميرة نازلى فاضل وزوجها التونسى «خليل بوحاجب» نديًّا يسمر فيه أعلم وأعظم القضاة فى تاريخ مصر : محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وأحمد عفيفى . أما محمد فريد فمحامى الأميرة وإن لم يكن من السمّار فى الصالون — . فالأميرة مولودة فى بيت صارت مكتبته نواة لدار الكتب المصرية التى تضارع أعظم دور الكتب فى العالم كله . وهى برزة تجالس العلية من الساسة والعلماء والأمراء وتدلى بأحاديث مثيرة . منذ قضت أيامها الأولى زوجة لخليل باشا شريف سفير دولة الخلافة فى باريس وأخى على باشا شريف رئيس مجلس النواب بالقاهرة . فلما مات تزوجت من خليل بو حاجب ، وزوج أختها تونسى هو القائد بن عياد .

وسنرى الإمام بعد أعوام يكتب إلى جمال الدين وهو فى جوار سلطان تركيا يطلب إليه التوسط

= وحيث إن عبارة الطبعة الفرنساوية تشير إلى هذا المراد . لأن حرف (أو) فى الفرنساوية يأتى لتوضيح معنى سابق بعبارة أخرى . ولأن أداة التنكير لم تتكرر فيها مع كلمة عجز . وهو دليل على أن هذه الكلمات جاءت توضيحاً لمعنى سابق لاتعبيراً عن معنى جديد . وعبارة الطبعة العربية لاتأبى هذا المعنى . لأن حرف أو يصح أن يكون مابعده بياناً للمعطوف عليه أو تعميماً لمعناه كما يصح استعماله لأغراض أخرى .

وحيث إنه يتحصل من ذلك أن قصد القانون من المرض أو العجز يرجع إلى شيء واحد وهو الحرمان من الأعمال الشخصية مدة أزيد من عشرين يوماً وهو المعوَّل عليه فى تحقيق الشرط التانى لتطبيق المادة ٢١٩ عقوبات .

وحيث إنه فى الحقيقة . لايمكن التعويل على غيره فى الاستدلال على جسامة الجروح أو الضربات وفى قياس درجة خطورتها لأنه هو الأثر الذى ينتج عنها وحقيقته ليست متنوعة مختلفة بل هى حقيقة واحدة لاتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ولذلك يتعين أن يكون هو الضابط الوحيد لجسامة هذه الإصابات والقياس الصحيح الذى لايصح التعويل على غيره فى تقدير العقوبة المناسبة لها .

وحيث إن الأحكام الصادرة من المحاكم الفرنساوية فى موضوع المادة ٣٠٩ من القانون الفرنساوى وهى التى نقلت عنها حرفيًّا عبارة المادة ٢١٩ صريحة كلها فى المعانى التى قدمناها ولم تختلف عنها دلالة وصراحة عبارات مشاهير العلماء الذين شرحوا هذه المادة مثل دالوز وفستن هيلى وبواثار وجاروه وبرياندى شويه . بل كل عباراتهم ناطقة بها كأنها من القضايا البديهية المسلمة التى لاخلاف فيها وإنما اختلفت كلمتهم فى تعيين معنى المراد من الحرمان من الأعمال الشخصية . . .) .

للإنعام عليها بنيشان ويجيبه السيد بما يفيد عجزه عن الوساطة فيقول (وأما تمثال الكمال والجمال حضرة البرنسيس . التى لها من قلبى المنزل الأبهى والمقام الأسنى . فلا أعلم من أمرها شيئاً . لا لها ولا عليها ولاسمعت . .)

وسنرى الإمام فى سنة ١٩٠٣ ينزل ضيفاً على زوجها كبير الوزراء فى تونس خليل بوحاجب . فى إبان رحلته إلى تونس .

ولقد يفد على الصالون أمراء للشيخ بهم عهد ، أو تدلى صاحبة السمو بالآراء ، فلا يجعل لها الكلمة الأخيرة . بل قد ينبهها على مايجمل بها – وبمصر – فيقول لماذا تتكلمين فى السياسة ، ولا تؤسسين مدرسة للبنات ! ! فهو مؤمن من قديم بتعليم البنات وفى جواره سعد زعيم الثورة المنتظرة . وقاسم زعيم تحرير المرأة .

ولا جرم أن آراء قاسم أمين وكتاباته وموافقة سعد قد ترعرعت فى رحاب صالون الأميرة نازلى وإن ابدأت قبل ، وأن النهضة النسائية التى تزعمتها السيدة هدى شعراوى زوجة على شعراوى – وهو تلميذ للإمام ستقرأ اسمه فيما بعد – تمد أسبابها إلى أفكار صالون الأميرة نازلى . وأن صاحباً رابعاً هو الهلباوى وثلةً من النابهين قد وجدوا فى صالون « هدى هانم » الذى اشتهر فى الربع الثانى من القرن العشرين الميلادى منطلقاً لتحقيق إصلاحات نادى بها محمد عبده من سنة ١٨٨١ فى « الوقائع » وأعقبه فيها قاسم أمين . فبلغت مبالغها لتحرير المرأة .

وهيأ سعد الأسباب العملية والسياسية فى ثورة سنة ١٩١٩ إذ رحب ومعه أم المصريين وزوجة قاسم أمين – وكانتا صديقتين حميمتين – « بسفور » النساء ، ورفع البراقع البيضاء وذهابهن إلى بيت سعد متظاهرات ، وحيا سفورهن تلميذ آخر للإمام[1] وبلغ الإصلاح شأوه يوم قبل تلميذ آخر هو لطفى السيد التحاق المرأة بالجامعة – وهى الأخرى – أثر من آثار محمد عبده .

وبدخول المرأة فيها وتخرجها منها تغير وجه المجتمع الإسلامى على مدى نصف قرن بأيدى الإمام ومدرسته .

وفى محاضرة بالجامعة الأمريكية بتاريخ ١٩٢٩/١١/١٢ لخصت السيدة هدى شعراوى حركة تحرير المرأة وفرسانها فقالت :

---

(١) خلد حافظ إبراهيم هذه المناسبة التاريخية فى أكثر من قصيدة أولاها عن مظاهرتهن سنة ١٩١٩ وفيها يشير إلى « سفور » وجوههن وظهور شعورهن . قال بين ماقال :

فطلعن مثل كواكب ... يطلعن فى وسط الدجنَّه
وأخذن يجتزن الطريق ... ودار « سعد » قصد هنَّه
يمشين فى كنف الوقار ... وقد أبنّ شعور هنَّه

(عندما قام قاسم وقام فريق من صحبه لنشر دعوته . . . ومن بين هؤلاء سعد باشا زغلول والمرحوم الإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ الكبير الشيخ عبد الكريم سلمان انتهزت هذه الفرصة . . . . السيدات . . . كالمرحومة ملك حفنى ناصف . . . وخرج كثير . . .) .

لم يكن «الإمام» ليرضى أن يكون «الثانى» فى أى موقع . وهو بين قضاة رجعوا من بعثات باريس متخصصين فى الفقه الفرنسى الذى يطبقون قانونه . فلا معدى عن أخذه من مصادره بلغته الأصلية .

وستقرأ له فى تفسير صورة العصر (لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل والطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان فى الأرض ويمسحها بالطول والعرض وأن يتعلم اللغات الأجنبية ليقف على مافيها مما ينفعه فيستعمله ومايخشى ضرره على قومه فيدفعه ، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك مايستطيعون ولهم فى سلف الأمة من القرن الأول إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن الأسوة)

لهذا تعلم الفرنسية فى القاهرة ورحل لإتقانها إلى «جنيف» فى سويسرا ومن أساتذته من حرص على أن يكون له ولصغاره صورة فوتوغرافية فى جوار شيخ معمم يعلن فوداه ولحيته شيباً كأضواء النهار .

وكمثله سيصنع سعد والهلباوى فيتعلمان الفرنسية ويرحلان فى سبيل تعلمها . ولا يفكر أحد منهم فى تعلم الإنجليزية .

قال ليعلم الكبار : (بدأت بتعلم اللغة الفرنساوية عندما كانت سنى أربعاً وأربعين سنة . ولكن ميلى إلى تعلم لغة أجنبية ابتدأ فى أثناء الحوادث العرابية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيته تقريباً ، وعندما سافرت إلى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر . . ولم أتعلم شيئاً من الفرنساوية . . أما بعد عودتى من النفى إلى مصر واشتغالى بالقضاء . . خصوصاً فى الجنايات على أصول القوانين الفرنساوية وجلوسى بين قضاة يغلب عليهم العلم بتلك القوانين فى لغتها فقد تقوى عندى الميل إلى تعلم اللغة الفرنساوية حتى لا أكون فى معرفة القوانين أضعف ممن أجلس معهم مجلس القضاء . . فوجدت أستاذاً لا بأس به جاءنى حاملا كتاب نحو فى يده (كرامير) فسألته ما هذا ؟ فقال كتاب نحو فقلت له : (لا وقت عندى لأن أبتدئ وإنما عندى زمن لأن أنتهى) ثم ناولته قصة من تأليف (إسكندر ديماس) وقلت له : أنا أقرأ وأنت تصلح . . سافرت بعد ذلك إلى فرنسا وسويسرا عدة مرات فى أيام العطلة وكنت أحضر دروس العطلة فى كلية جنيف . .)

وقال ليعلم الجميع :

(ثم إن الذى زادنى تعلقاً بتعلم لغة أجنبية هو أنى وجدت أنه لايمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف لغة أوربية . كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع الأوربيين فى جميع أقطار الأرض ؟ وهل يمكن مع ذلك لمن لايعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم) ؟

بهذا أتقن الفرنسية وترجم إليها ومنها . ورئى فى أواخر حياته يملى بحثاً بالفرنسية نشره (دى جرفيل) فى كتابه عن مصر الحديثة (سنة ١٩٠٥) وناقش فى الفقه المقارن ، وهو الفقيه الشرعى الذى لاقرين له . واستيقن – بالعقيدة وبالاختبار الفعلى – امتياز شريعة وضعها الخالق على شرائع من وضع البشر ، فيها الصواب والخطأ ، فازداد تثبيتاً وتسديداً .

وتناقل المجتهدون طريقته فى تعلم اللغة الأجنبية على نحو ماروى الرئيس محمد أنور السادات فى كتابه (البحث عن الذات) أنه قرأ أن الشيخ محمد عبده تعلم الفرنسية بقراءة قصة فرنسية مع معلمه فصنع الرئيس السادات ذلك مع معلمه حتى إذا انتهيا من قراءة قصة ترجمت إلى الألمانية ، اكتشف أنه يحيط بها قدر ما يحيط المعلّم .

* * *

وليس بعيداً أن يكون قبول أولى الأمر تعيين الشيخ فى القضاء «سياسة» لإبعاده من «السياسة» . والقضاء هو القفص الذهبى الذى تغض الأصوات بين جدرانه . ومن ثم لم نسمع فى السياسة المحلية صوتاً لواحد من السياسيين العالميين الذين عملوا فيه إلا بعد أن تركوه . وحسبنا الأمثال من مصر : سعد ومحمد فريد ورشدى وثروت . ومن آثار ذلك انقطع الشيخ عن السياسة كما يفهمها الحكام فى ذلك الزمان . وهى الاحتساب أو الانتساب أو المداهنة أو المشاركة للخديو أو الممثل البريطانى . ووفقه الله ليعمل تحت مظلة القضاء أعظم الأعمال فى تاريخه : ١ – تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية ، ٢ – إصلاح الأزهر ، ٣ – إصلاح القضاء الشرعى .

الجمعية الخيرية الإسلامية

كان أول مقال كتبه الشيخ فى الوقائع المصرية سنة ١٨٨٠ خاصاً بالجمعيات الخيرية . استفتحه بقوله (. . ويبعثنا على الثقة بحسن مستقبلنا مانراه من إقدام بعض أبناء قطرنا على الأعمال الخيرية . وجدهم ونشاطهم فى تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها وأخذهم بالوسائل الحقيقية التى تؤدى إلى ذلك وإن سبقنا إلى ذلك الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة

والقوة وكمال السطوة . وهى إنشاء الجمعيات الخيرية)

وفى السنوات اللاحقة شارك الشيخ فى أعمال جمعيتين نموذجيتين فى الشام وباريس . وفى ندىّ اجتماعى (صالون) لم يستقص المؤرخون خصائصه . وأهمها أن الأميرة نازلى فاضل من فرع فى أسرة محمد على غير فرع إسماعيل الذى استأثر بوراثة العرش – دون إخوته – وإذا درب محمد عبده فيه سعد وقاسم على الانطلاق فى الآفاق ، فهو يبلغ بهم ذروة الحرية والاستقلال اللذين تكفلهما لهم وظيفتهم ، ويحتذى استقلالهم عن الخديو كل من أخذ أخذهم من النظراء فى القضاء ، حيث برز اثنان صنوان كما كانا يسميان هما حسن عاصم وعلى فخرى .

وسنرى الخمسة خصوماً أشداء للملوك من أسرة محمد على .

هكذا اجتمع سعد وقاسم وحسن عاصم وعلى فخرى على الاغتراف من معارف « الإمام » . وسعد وقاسم صديقان مذ كان قاسم محامياً فى لجنة « قضايا الحكومة » يترافع فى الجلسات ويسفر فى الصلح بين القاضى التركى فى بنها وبين سعد إذ أسخط القاضى قول سعد « أطلب البراءة » لا « ألتمس البراءة » وأفهمه قاسم أن اللغة فيها القولان . وقبل التركى فتوى محامى الحكومة . وسيعين سعد وقاسم فى قضاء الاستئناف معاً سنة ١٨٩٢ .

وفى الجلسات كذلك أغرم قاسم والهلباوى كل منهما بالآخر :

أما حسن عاصم وعلى فخرى فزميلان من عهد التلمذة الباكرة فى أسيوط ، إلى بعثتهما فى باريس وعودتهما معاً فى سنة ١٨٨٤ ليصيرا علمين يشار إليهما بالبنان . فى عامى ١٨٩٢ و ١٨٩٣ أخرجت « لجنة إصلاح القضاء » التى كانا روحها كما يقول هلباوى بك ، نصف عدد القضاة ليحل محلهم قضاة القرن العشرين .

ومن الطبيعى أن يكون محمد عبده أقرب قومه إلى روح هذا الإصلاح . فى عام ١٨٩٢ أسس هؤلاء الخمسة وآخرون – سينضم إليهم الهلباوى وقليلون – « الجمعية الخيرية الإسلامية » ومن أهدافها ما كتبه الشيخ سنة ١٨٨٠ (تأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها) ويضيفون إليها رأس مال قدره ألف جنيه كانت مخصصة فى محافظة القاهرة لجمعية إسلامية .

وسنرى الرجال الستة أركاناً قوية لصرح العدالة والحرية ، وفيهم أربعة زعماء فى القانون والقضاء والمحاماة والإصلاح الاجتماعى ، والخامس والسادس من أترابهم .

أما (سعد والهلباوى) فدرسا علوم الإسلام فى الأزهر ، وأما قاسم فله دراسات فيها من عهد الطلب فى باريس تتجلى فى رده الشهير على الكونت داركور . وحسن عاصم هو الذى ترجم وهو طالب بباريس محاضرة لرينان فى السوربون نال فيها من الإسلام ليرد عليه جمال الدين . وعلى فخرى

وحسن عاصم كانا كأنهما توأمان . وهذه الدراسات تطرح بين أيدينا طراز تربيتهم وتفكيرهم واتجاهاتهم الإسلامية .[١]

والشيخ قد تعلم من المثل الناجح فى بيروت لجمعية المقاصد ومدرستها ، والمحقق فى باريس لجمعية العروة الوثقى وصحيفتها ، اقتدار « الجمعيات » إذا عملت للعلم وبالسلم ، على مالا يقدر عليه الرجل الواحد وإن أمَرَ أمره أو طال عمره . وكان صيرفيًّا يزن المواهب ويميز الصحاح من الزيوف ، وصوفيًّا ينكر نفسه ويذكر غيره . وهما خصيصتان أساسيتان لقيادة الرجال .

كان يتمنى فى باريس أن يهبه القدر سنوات عشرة يعد فيها للدعوة « شباباً » يصنع بهم جيلا جديداً من الدعاة . واليوم أتاحت له القاهرة رجالا ملء الإهاب أقرب إلى الشباب وأقدر على العمل وأمثل فى الأعين وأبعد من التهمة .

* * *

فى هذه الأضواء ، وفى المحكمة ، حيث الحرية والعدالة اللتان تفتقدهما الأمة ، ولدت الجمعية الخيرية الإسلامية ، لتكون جماع فروع شتى للخدمة العامة ، يتألف من تجمعها بحر زاخر من الإنجازات التى صنعت مصر الحديثة ، حتى إنك لاتكاد تجد اسماً لرجل عمل لمصر عملا ضخماً فى النصف الأول من القرن العشرين – الذى يحمل على كتفيه النصف الثانى فى شموخ – لم يكن عضواً فى هذه الجمعية . وتستطيع أن تقرر أن عملهم فى الأغراض العامة أو وظائف الحكومة هو الذى أحدث التوازن الذى قدرت به مصر على دفع الكثير من شرور الأجانب ورفع الخطير من أذى الاحتلال .

كان للأجانب (امتيازات) تحميها (المحاكم المختلطة) . وفى هذين الشرين قول نقابة المحامين المختلطة عن الامتيازات إنها (معاهدة بين الشرق والغرب تهب أبناء الغرب وضعاً قانونياً خارج الدين المسيحى للاحتفاظ لهم بأوضاعهم الخاصة) ! وقول المستشار الإنجليزى عن المحاكم إنها (أنجح مؤسسة دولية فى التاريخ بعد الكنيسة) !

ومن هذا التفكير الصليبى فى الوضع القانونى لمصر خارج الدين المسيحى ، كان استنزاف الدم المصرى والمال المصرى :

جلس القنصل العام لإحدى الدول يتحدث إلى الخديو محمد سعيد فعطس مثنى وثلاث فقال

---

(١) يقول حسن عاصم فى مقدمة ترجمته (لما كان الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ....
وحب الوطن من الإيمان اجتمع جمع غفير من طلبة العلم المقيمين بفرنسا وكلفوا أخاهم العبد الفقير حسن عاصم بتعريب الخطبة . . .) . ه٠

الخديو (البس القبعة ياعزيزى القنصل لأنك إذا أصبت بزكام فإن حكومتك ستطالبنى بتعويض) .

وحكّمت إنجلترا الأجانب فى مصر لتحكم قبضتها على عنقها بإفساد «القيم الذاتية» للأمة وإذلال الأعزة وتفتيت الوحدة وتمكين المبشرين والمستهترين من عقول الناشئة ، ثم أجلست للقضاء الوطنى مستشارين إنجليز وأوربيين – بل حاول كرومر أن يجلس فى المحاكم الشرعية مستشارين من قضاة غير شرعيين .

وأحدث أذناب الاحتلال القطيعة بين الناس ، وتناكر الأقرباء وتنافر الأصدقاء .

وعبر محمد عبده عما آلت إليه الحال حيث قال فى إحدى خطبه فى الجمعية (إن العداوة بين الناس صارت على أشدها . للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد) !

وسنرى (جورست) فى أعقاب كرومر يحرض على إقامة مؤتمر قبطى فى أسيوط فى مارس سنة ١٩١١ وإقامة المؤتمر المصرى المضاد فى ديسمبر سنة ١٩١١ فى إبان حبس رئيس الحزب الوطنى محمد فريد فينتقده فريد أشد انتقاد . ثم يكتب عنه فى (مذكراتى بعد الهجرة) أنه [المؤتمر الوطنى الذى جمعه محمد سعيد (رئيس الوزارة) بناء على رغبة جورست لمحاربة الأقباط وبالتالى تسعريق بين الأقباط والمسلمين] .

فى هذا الطوفان المدمر لقيم المجتمع عملت الجمعية الخيرية الإسلامية لتأليف الكلمة وضم الشمل واتحاد المقصد . والشيخ هو القائل (خير أوجه وحدة الوطن الامتناع عن الخلاف والنزاع فيه)[(١)] وهو صاحب المقال الشهير فى مجلة ثمرات الفنون دفاعا عن الوحدة الوطنية .

وليس بدعاً وإنما هو مبادرة بالإصاخة إلى صوت الوحدة أن تقرأ فى سجلات السنوات الأولى للجمعية تبرعات قدمها إليها أقباط وأخرى قدمها إنجليز !

وماقدر الشيخ على ذلك إلا باشتهاره بأنه سلم لكل رجل ، وأنه رجل وخُبرة ، وزعيم أمة .

* * *

ويبده الناظر فى تاريخ الجمعية أشياء منها :

١ – أن ينعقد مجلس إدارتها بضعة عشر عاما تحت «قبة السلطان الغورى»[(٢)] فذلك ربط

(١) والقائل فى عدد ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ فى العروة الوثقى :

(لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحياناً ومدافعتها عن حقوقهم نقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم ويتفق معهم فى مصالح بلادهم ويشاركهم فى المنافع من أجيال طويلة فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ولايبجه ديننا ولا تسمح به شريعتنا) .

(٢) فى سنة ١٩١٤ انتقل مجلس الإدارة إلى سراى أوقفتها عليها السيدة خديجة برهان مساحتها ١٦٩٤٧,٣٥ متر مربع فى درب الجماميز وحضر السلطان حسين كامل الافتتاح وكان قد تولى العرش .

للماضي بالحاضر بمعان كبيرة ، يهمنا منها هنا أن القضاة الذين يمثلون آمال مصر ومستقبلها يعقدون جلساتهم لإصلاح أمتهم تحت قبة المسجد . وكأنما يخاطبون بمغزى الانعقاد هنالك من يتنادون فى أيامنا هذه ببناء الإنسان المصرى والمجتمع الإسلامى قائلين : إن طريق ذلك هو المسجد .

٢ – أن الجمعية بقيت زمانا برئاسة رؤساء مؤقتين [١] فى انتظار أن يرأسها الأمير حسين كامل – (٩ / ١٠ / ١٩١٧) لورعه واشتهاره [٢] بحب الفلاح ولأنه أكبر أبناء إسماعيل ، لكن الأمير أبى أن يرأسها وفى الشيخ حياة ، فرأسها الشيخ رسميًّا فى سنة ١٩٠٠ (١٣١٨ هـ) .

٣ – يومئذ ظهر أن الأعضاء كانوا يتزايدون من ٢٢ عضواً سنة ١٨٩٢ إلى ٦٨٠ عضواً سنة ١٩٠٠ كما زاد تلاميذ المدارس إلى ٧٦٦ تلميذاً وهو رقم ذوبال أيام ذاك .

وسيرأسها الأمير بعد وفاة الشيخ سنة ١٩٠٥ ويستبقى رئاستها مع رئاسته لمجلس شورى القوانين سنة ١٩٠٩ حتى يلى العرش سنة ١٩١٤ – وكان يقول عن الإمام «أستاذى الذى تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلماً» وفى ٢٩ / ١ / ١٩١٥ كتب إلى وكيل الجمعية يقول «إن ارتقائى عرش مصر لا يحجب الجمعية ولا يحجبكم عنى طرفة عين» .

٤ – أن الشيخ الرئيس تثقل موازينه عاماً بعد عام ، لدى الرأى العام وأولى الأمر من العلماء والأمراء والحكام .

ولئن كان تكريماً للشيخ الرئيس أن تتوسط لأجله أميرة من بيت محمد على سنة ١٨٨٨ ، وأن يبايع له فى نهاية القرن أخ للخديو الذى ثار عليه ، هو عم للخديو الجالس على العرش ، فهاتان بيعتان متواترتان من أسرة محمد على . أما البيعة العامة فقد تواصلت بها مشاعر الأمة ، وكان سعد زغلول سباقاً بتسجيلها فى كتاباته إليه فى بيروت فى فاتحة سنة ١٨٨٣ . وسيندرج تحت راياتها الخديو نفسه والإنجليز والجميع .

٥ – أن مكانة الجمعية وأغراضها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بحياة مؤسسيها وسيرهم ، تفيد منهم الكرامة والخبرة والازدهار ، ويفيدون منها تحقيق آمالهم لأمتهم واجتماع كلمتهم وتنفيذ خططهم ، حتى تكاد سيرة الجمعية منذ إنشائها أن تكون سيرة المؤسسين .

---

(١) محافظ القاهرة إبراهيم شوقى باشا فعثمان ماهر باشا فالسيوفى باشا شر تجار القاهرة .

(٢) يقول له حافظ إبراهيم إذ رأس مجلس الشورى :

حسين حسين أنت لها فنبّه ... رجالاً عن طلاب الحق ناموا
أفض فى قاعة الشورى وئاماً ... فقد أودى بناويها الخصام
فلا تثقوا بوعد القوم يوماً ... فإن سحاب ساستهم جهام
وإن لم يدرك الدستور مصراً ... فما لحياتها أبداً قوام

ويحق لنا أن نورد كلمات فى نجبائهم تتضح منها حقائقهم وطرائقهم وأثرها فيهم .

حسن عاصم :

انتخب مجلس إدارة الجمعية لوكالتها حسن عاصم حتى وفاته . ولاجرم كان الرجل الثانى فى الجمعية لأنه وهبها كل قلبه وكان أشبه الأشخاص بالشيخ فى تفانيه فى خدمتها . ومن بعدهما يتفاضل المؤسسون .

يقول الهلباوى فى الكتاب الذهبى بعد أن ذكر أثر الصاحبين فى إصلاح القضاء (وهانت كثيراً مهمة الإصلاح ولم يبق محل لبقاء هذين الرجلين معطلين فى لجنة المراقبة فعين على فخرى مستشاراً بمحكمة الإسكندرية المختلطة وعين بعد ذلك حسن عاصم فى ١٩ فبراير سنة ١٨٩٤ أفوكاتو عموميا) ثم يقول :

(ولقد يلاحظ القارئ أن على فخرى صعد به الحظ إلى ترقية سبق بها حسن عاصم ولكنها ليست ملاحظة جديدة فإن على فخرى طالما تهكم بها فى وجه صديقه وفى وجهنا جميعاً فى دعابة حلوة وهو يقول : (ادفع ثمن صلابتك ياسعادة البك) . كان حسن عاصم يشعر بأن قناعته بأداء عمله فى وظيفته تقصير منه فى حق أمته . . لذلك كانت داره منتدى لأصحاب الرأى وأحرار الفكر . . ومن هذا النادى تكونت (جمعية إحياء اللغة العربية) كان هو رئيسها وكان المرحوم عبد الخالق ثروت سكرتيراً لها زمناً طويلاً) .

وراقبت جواسيس الإنجليز اجتماع الشباب حوله .

بعد عامين من قيام الجمعية ظهرت حاجة الخديو للمصريين ليحموه ويسددوه . فمدت الجسور بين الشيخ محمد عبده وبينه واستجاب لاقتراحه بتعيين مجلس إدارة للازهر من شيوخ اختارهم للعمل معه ، وصدر قراره بتعيينهم فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ . ولا غرو – أن يتنبه الخديو إلى وكيل الجمعية فيعينه فى قصره بتاريخ ١٤ ديسمبر من العام ذاته .

وكان طبيعيًّا أن تلقى وطنية هذا « المصرى العظيم » خصومة من الأمراء واللورد كرومر وقائد الجيش البريطانى ودول أوربا مجتمعة . . وأخيراً من الخديو ذاته !

جاء فى الكتاب الذهبى بقلم هلباوى بك (كان هذا الرجل مخلوقاً لوضع النظام وتطبيقه . فلما ألقيت إليه مقاليد التشريفات لم يجد قانوناً ولا نظاماً للأمراء ولا لأفراد العائلة الخديوية ولانظاماً للتشريفات ، فاستصدر إرادة سنية بتحديد ذلك كله . وكان من نتيجة هذا القانون أن خسر كثير من طبقات العائلة المالكة لقب الإمارة الذى كانوا يتمتعون به فعلا وأن كسب حسن عاصم سخط هؤلاء جميعاً .

وفى يوم من أيام التشريفات الكبرى دخلت بغتة عربة بها اللورد كرومر ومعه قائد الجيش الإنجليزى تحف بها كوكبة من الفرسان ووقفت أمام سلم الباب الخصوصى للخديو . فهبط حسن باشا السلالم مسرعاً . لا ليستقبلها ولكن ليأمر السائق بالرجوع فوراً والوقوف أمام باب التشريفات العمومى . فعادت بعد شىء من الجدل وبقى الناس يتناقلون هذه الحادثة زمناً طويلاً .

وبعد قليل أقيمت «حفلة راقصة» بسراى رأس التين بالإسكندرية كانت الدعوة إليها مقصورة على المقيمين بالإسكندرية . وعندما توافد المدعوون إليها ظهر من بينهم قنصل جنرال النمسا والمجر وكان عميد القناصل فى عهده ومقامه بالقاهرة . . وكانت الدعوة خاصة بقنصل النمسا بالإسكندرية . فاعترضه حسن باشا وطلب إليه العودة من حيث أتى . . قال القنصل الجنرال : إن الدعوة موجهة لوكيلى فى الإسكندرية فأرى أن يخرج هو وأن أبقى أنا خصوصاً وقد جئت فعلا ولا يليق أن أخرج أمام هذه الجموع . . قال حسن باشا إن الدعوة شخصية لاتقبل الإنابة . . فخرجا .

وفى غداة اليوم حضر اللورد كرومر إلى السراى وبلغ الخديو شكوى القنصل الجنرال وكان فى أثناء حديثه يرمى إلى حل المسألة بإقالة حسن عاصم . وخرج موعوداً من الخديو أن ينظر فى الأمر .

فلما علم حسن باشا بذلك عرض على سمو الخديو أن يعهد إليه هو فى مفاوضة اللورد فى هذا الموضوع . وانتهى من هذه المفاوضة برضاء اللورد وسحب اعتراضه [١] .

والمتصلون بهذا العهد وبحسن باشا مايزالون فى عجب من هذه النتيجة التى وصل إليها حسن عاصم ومن الطريقة التى اتخذها لمقابلة اللورد . بل من الأسلوب الذى يكون قد استعمله فى مفاوضته حتى حمله على نسيان هذه الحادثة وحادث عربته - هو - فى سراى عابدين)

بقى حسن عاصم رئيساً للديوان الخديوى تسع سنين ونيفاً حتى أحاله الخديو للمعاش فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وهو فى السادسة والأربعين) .

قال هلباوى بك بعد أكثر من ربع قرن فى المرجع السابق الإشارة إليه (ولعل السبب فى هذا أن رئيس الديوان يعتبر قانوناً عضواً فى مجلس الأوقاف الأعلى فحسن باشا كان لذلك عضواً فيه وربما كان له رأى فى بعض المسائل يكون قد حسب عليه) .

وهذا التلميح للسبب بعد مرور ربع قرن ، يقابله تلميح مشابه له من هلباوى بك ، قبل مرور عام على حدوثه عند وفاة محمد عبده [٢] - إذ كان هو الذى أبدى رأيه بعرض الموضوع على مهندس

(١) فى إحدى مناسبات الحديث عن شجاعة حسن عاصم وتعرضه للفصل ذكر هلباوى بك أنه كان عندئذ يدفع صدقات شهرية ٣٠ جنيها ومرتبه ٦٠ جنيها ومعاشه إذا فصل ٣٠ جنيها .

(٢) أنظر الباب الخامس . حيث إشارة لمشروع زرفوداكى والخديو للتحايل على استبدال ١١٢ فدانا أرض بناء على شاطئ النيل ثمنها الآن مئات الملايين من الجنيهات مقابل ١٢٤٧ فدانا مساحة تفتيش مشتهر ثمنها الآن لايساوى جزء من مائة من الأرض الأولى .

خبير فوافقه حسن عاصم ووافقها مجلس الأوقاف وأظهر تقرير الخبير الغش الخديوى ، فحفظ طلب الاستبدال .

وكان الهلباوى فى بروكسل عند وفاة الإمام ، فأبرق معزياً . والذين يقرءون السطور ومابينها يدركون الجسارة النادرة فى قوله عن حادث الاستبدال (. . هل نعزى . . أم نعزى . . أم نعزى مصلحة الأوقاف . . والناس تعلم أنه فى المسائل الكبرى التى لابد أن يدونها التاريخ لهذه المصلحة ، فى عهدها الأخير ، كان الشيخ من أكبر المدافعين والمحافظين على كيان هذه المصلحة – وبسبب هذه المصلحة أضاع الشيخ وضحى بكثير من منافعه الشخصية وزاد فى هياج أعدائه [1]) .

* * *

إصلاح التعليم :

يقول هلباوى بك فى المرجع السابق الإشارة إليه : (كان حسن عاصم يجمع مع هذا كله عملا ضخماً فى الجمعية الخيرية الإسلامية فهو منشئها ووكيلها وواضع قانونها ومدير التعليم من يوم نشأتها سنة ١٨٩٢ إلى يوم وفاته سنة ١٩٠٧ . خمسة عشر عاماً كاملة لم ينعقد مجلس إدارتها إلا وكان هو أول حاضر فيه وأول منبه للأعضاء لحضوره ، ولم تنعقد لجنة إلا لبحث مشروع قدمه هو ولا فتحت مدرسة إلا كان رأسه هو الذى أوحى بإنشائها) .

يقول للإمام بعد أن وزع آلاف الجنيهات التى جمعها لضحايا حريق ميت غمر . [لوأعطيتنى هذا المال لأجل التعليم ؟] ويرد عليه الإمام [ما جُمع لشىء وجب صرفه فيه . إننا نفترض الحوادث لنعلم الناس البذل فى سبيل البر . فإذا تعوّدوا البذل فى بعضها هان عليهم البذل فى سائرها] .

ولما فتحت الجمعية الخيرية مدرستها فى المحلة الكبرى سنة ١٩٠٤ خطب رئيس الجمعية فى حفلة افتتاحها ثم خطب الهلباوى فقال : (دخلت الجمعية منذ اثنى عشر عاماً عند تأسيسها ولم أخطب لأنها جمعية عمل لا قول . . .)

كان بين الأغراض الأساسية لإنشاء المدارس ولإدارتها .

١ – العناية بالتربية الدينية ومقاومة مدارس التبشير التى نشرها المبشرون .

٢ – العناية باللغة العربية وتصحيح عيوب التعليم الذى فرضه الإنجليز فى مدارس الحكومة . لذلك نقرأ فى التقارير السنوية المقدمة للجمعية ما فى الامتحانات والتعليم من قرآن وحديث وسيرة

---

(١) يقول هلباوى بك سنة ١٩٣٣ .

أعتقد أن مصرفى الستين عاماً الماضية أنجبت رجالاً ممن تفاخر بهم الأمم ولكنى مع ذلك مازلت أعتقد أن حسن عاصم ليس له نظير فى كل رجالنا هؤلاء .

وأدب – وانضافت للمرحلة الابتدائية سنة إعدادية . وكان على التلاميذ حفظ ثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن وأكبر قدر من الحديث والسيرة والشعر والأدب العربى والأناشيد الوطنية . كما يؤدون الصلاة عند أذان الظهر . وكان التعليم بالمجان . كثرت فيه الحوافز الأدبية والجوائز المالية على حفظ دروس الدين واللغة [١] .

وكان طبيعياً أن يكون حسن عاصم طول حياته مديراً للتعليم ، ثم يخلفه بعد موته عبد الخالق ثروت باشا ، فيظل فى مركزه وهو فى الوزارة . ومنذ ئذ ترقى للوظيفة أكفأ المدرسين المرحوم محمد خلاف (عضو لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، ثم خلفه آخرون . وفى الثلاثينات آلت المدارس إلى وزارة المعارف . وأقامت الجمعية مستشفاها الشهير على ضفاف النيل وهو الآن أكبر المستشفيات غير الحكومية فى أفريقية . يقدر بعشرات الملايين .

أما على فخرى فسيسبق زميله إلى الموت بعام سنة ١٩٠٦ ويؤنبه الزعيم مصطفى كامل فى صحيفة اللواء بما يعلن للملأ أن الفقيد كان يخرج من العزلة الفاخرة للقضاة ليشد عضد الزعيم الشاب . قال عنه رحمهما الله : (إن الفقيد كان أخاً لنا نسترشد برأيه ، ونعتمد على فكره ، ونعتز بوجوده ، ونفخر بعلمه وفضله ووطنيته وصحبته) وقال : (إن الفقيد كان مؤهلا بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتدارة لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثى روح الحياة والنهوض فيها) .

أما الزعيم محمد فريد فأورد فى مذكراته أن على فخرى وحسن عاصم كانا يجمعان التبرعات للشيخ على يوسف (صاحب المؤيد) حتى صار أبرز صحفى فى مصر .

ويعتبر المؤرخ عبد الرحمن الرافعى – وكان من رؤساء الحزب الوطنى – أن أصدقاء مصطفى كامل الأقربين هم محمد فريد ولطيف سليم وعلى فخرى .

والثلاثة أصدقاء محمد عبده وأعضاء فى الجمعية الخيرية الإسلامية .

* * *

وأما قاسم أمين فاسمه أكثر جريانا على الألسنة لدعوته الاجتماعية ، وقد اشتغل بها مذ كان فى بعثته بفرنسا . بدأ حياته فى تعيينات القضاء فى ٢٦ يونية سنة ١٨٩٢ مع سعد ، وارتبط الرجلان والأسرتان والعقليتان حتى نراهما يرفضان رفع مرتبهما من ٧٢٠ جنيهاً فى السنة إلى ١٠٠٠ جنيه لأن القانون الذى قرر ذلك اشترط للانتفاع به أن يعلن المستشار موافقته عليه ، وكان فيه نص يرفضانه لما فيه من تخويل الحكومة – لا جمعية المستشارين – اختيار مستشارى محاكم الجنايات . فبقيا سنوات يقبضان ثلثى المرتب حتى أصدرت الوزارة قانوناً يغنى عن تقديم طلب !

---

(١) كانت الجوائز تحوى معانى وطنية مثل إعطاء أسهم من الإصدار الأول لبنك مصر.

دخل قاسم عضوية الجمعية وهو صاحب «دعوة» وكان مصداق نجاحها إنشاء الجمعية مدارس لتعليم البنات وإجماع أعضائها على تحرير المرأة واقتناعهم بعدم تعدد الزوجات إلا للضرورة .

قال هلباوى بك فى الكتاب الذهبى (ولقد كانت حاجة مصر فى ذلك العصر إلى تحرير المرأة وتعليمها مسألة المسائل . وعمل قاسم فى تحرير المرأة سيضعه فى التاريخ موضع «المعلم الأول» فإن إليه وحده فى هذه الأمة فضل هذه المحاولة التى توجت بعد عشرين سنة من جهاده بالنجاح التام الذى تشهده اليوم . .)

والهلباوى بك يقصد نجاح السيدة هدى شعراوى رئيسة جمعية «الاتحاد النسائى» الذى كان مستشاره كما كان مستشار الجمعية الخيرية منذ نشأتها حتى وفاته سنة ١٩٤٠ .

وحسبك – فى شأن قاسم والجمعية الخيرية – موقف يسبق به أمته بنصف قرن فى إصلاح آخر . فى صدد الوقف[١] .

قال هلباوى بك (عرض رأى فى الجمعية الخيرية الإسلامية لوقف كل ماتملك على الوجوه الخاصة بأغراض الجمعية . ولما كان قاسم يرى أن الوقف كثيراً ما يعطل على أصحاب الشأن فيه التصرف بما تقضى به الحاجة والظروف التى لايمكن الإحاطة بها عارض معارضة شديدة . وكانت الأغلبية ترى غير ذلك . فبقى قاسم يصر على رأيه قائلا إن هذه المسألة من المسائل الأساسية التى لايمكننى أن أخضع فيها لحكم الأغلبية . بل واجبى فى هذه الحالة يقضى على بالاستقالة من خدمتها . فتراجع الجميع وسلموا برأيه . ولقد مات قاسم واتقينا خطر استقالته وبقيت الجمعية من سنة ١٩٠٨ ولم يفكر أحد من أعضائها إلى اليوم فى الخروج على رأيه)[٢] .

وإذ كان من حق الأجيال أن تحيط بواقعة هى فى حقيقتها ملحمة فقد رجعنا إلى محاضر الجلسات فبدهتنا دروس ضخمة ، فى هذا الموقف الواحد ، من سعد وقاسم وحسن عاصم ، فى مواجهة لطيف

---

(١) كان قاسم ضد نظام الوقف ، وهو موقف أخذت به مصر بعد ثورة سنة ١٩٥٢ . .

قضت دائرة قاسم أمين ومستر ويلمو رويوسف شوقى فى محكمة الاستئناف بتاريخ ١٩٠٠/٢/٢٠ قضاء جريئاً فى القانون بجواز تملك الوقف بوضع اليد بناء على سبب صحيح بمضى خمس سنين ومن غير سبب صحيح بمضى خمس عشرة سنة وبتاريخ ١٩٠٠/٣/١٥ قضت دائرة سعد زغلول ودى هلس وهالتون ضد هذا الرأى .

فقد كان هؤلاء العظماء يختلفون فى الآراء وإن كانوا يتلاقون صباح مساء . وسنرى الأستاذ الإمام بعد أن ولى وظيفة الإفتاء يعترض على حكمين بالإعدام لدائرتى قاسم وسعد . . .

(٢) يقول هلباوى بك [كان يفكر ونحن نكتب . كان يشير ونحن نعلن . كذلك كان شأن قاسم بين الشيخ عبده وسعد زغلول ولطيف سليم وعلوى باشا وإبراهيم بك ومصطفى وحسن عاصم وعلى فخرى . . . أما فيما يتعلق بحياته القضائية فقد كان قاسم (المثل الأعلى) لما يجب أن يكون عليه القاضى علماً ودراية وسمواً وجلالاً] .

سليم وعثمان ماهر ، وقد أجمع عليه الأعضاء فى الجلسة ذاتها وترتب عليه اعتبار الرئيس والوكيل الأول منفصلين !

انعقدت الجلسة برياسة عثمان ماهر باشا وبحضور الوكيلين لطيف باشا سليم وحسن باشا عاصم وبقية الأعضاء فى ٩ رجب سنة ١٣١٦ - ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٨ وفى المحضر مايلى :

(سعادة الرئيس :

إن موضوع المداولة فى هذه الجلسة هو النظر فى مسألة إيقاف أطيان الجمعية . . تلا كاتب السر تقرير اللجنة وهو يتضمن صلاحية إيقاف هذه الأطيان لتكون محفوظة من الطوارئ . .

حضرة سعد بك زغلول :

سأل عن القصد من كلمة «الطوارئ» فأجابه محمد راسم بك[1] عن القصد منها .

حضرة قاسم بك أمين :

إنى أرى أن إيقاف الأطيان يقيد الجمعية بقيود ليست من صالحها ويجعل الأطيان معرضة للطوارئ المستقبلة أكثر من بقائها ملكاً حرًّا للجمعية ، وإنى أعرض على المجلس الأوجه التى تؤيد رأيى وشرع فى إبداء هذه الأوجه .

سعادة لطيف باشا سليم :

إن القصد النظر فى تقرير اللجنة ومعرفة رأى المجلس إن كان بالإيقاف من عدمه وحينئذ لايرى موجباً للتوسع فى المسألة .

حضرة سعد بك زغلول :

إن إعطاء الرأى لايكون إلا بعد سماع أفكار الأعضاء والوقوف على جميع الأوجه الموصلة للتنوير فى المسألة .

حضرة قاسم بك أمين :

أعترض على سعادة لطيف باشا فى الحجر على إبداء الأفكار . وقال إنه لافائدة من استدعاء الأعضاء وانعقاد المجلس إذا كان ثم حجر . وماقصد كل منا إلا الصالح العام للجمعية .

---

(١) المستشار الذى سيتوفى الإمام فى ضيافته فى الإسكندرية ١٩٠٥ .

سعادة لطيف باشا :

إن القصد ليس الحجر بل الاختصار.

سعادة الرئيس :

إذن لحضرة قاسم بك فى إبداء مالديه من الأوجه فى ذلك فأخذ فى إبدائها ، وبعد أن شرح جملة أوجه قال سعادة الرئيس : إن القصد هو معرفة آراء المجلس فى الموضوع الأصلى. فأجاب حضرة قاسم بك إنه لاداعى حينئذ لوجودنا إذا كنا نمنع من إبداء مالدينا من الأقوال. فصرح له سعادة الرئيس بتتميم أقواله. فامتنع. فانسحب سعادة الرئيس من الجلسة. ثم تبعه سعادة لطيف باشا. استمرت الجلسة برياسة سعادة حسن باشا عاصم الوكيل الثانى وكلف حضرة قاسم بك بتتميم أقواله فأتمها. ثم كتبها بصفة تقرير. وأرفق مع تقرير اللجنة. بعد سماع الأوجه التى أبداها حضرة قاسم بك أخذت الآراء فتقرر بالإجماع صرف النظر عن الإيقاف.

ثم رأى حضرات الأعضاء أن يتوجه وفد منهم لزيارة سعادة الرئيس وإزالة مايكون فى خاطره إذا كان ثم شىء) إمضاء حسن عاصم.

وتتابعت الجلسات برياسة حسن عاصم حتى كانت جلسة ١٦ ذى الحجة سنة ١٣١٦ – ٢٦ أبريل سنة ١٨٩٩ – بقبة الغورى – وفى البند الرابع جاء مايلى :

(رابعا – قال سعادة الوكيل إن حضرة راسم بك تكلم مع سعادة عثمان باشا ماهر حسبما قرره المجلس بالجلسة الماضية فلم يقبل. فقرر المجلس بأغلبية الآراء مع الأسف قبول استعفاء سعادته من رياسة الجمعية وقبول استعفاء سعادة لطيف باشا سليم من وظيفة الوكيل – وتحرير كتاب أسف وشكر للأول. وإشعار بسيط للثانى. وعلى ذلك يعتبران منفصلين من عضوية المجلس)

فلا تتساءل بعد ذلك كيف تخرج فى الجمعية الخيرية عظماء مصر فى القرن العشرين.

وقاسم – كما يقول هلباوى بك – هو الوحيد من طبقته الذى مشى فى جنازة عبده الحامولى سنة ١٩٠١ باكورة المطربين فى العصر الحديث.

ويضيف هلباوى بك (أما أثره فى الجامعة فلم يكن أقل جلالا فقد قام بالدعوة إلى إنشاء هذه الجامعة. والجامعة ليست إلا أثراً من آثاره والمجهود الذى بذله فى سبيلها ليس هنا مقام تفصيله).

وجملة مالم يفصله هلباوى بك يتعلق بمجد آخر للإمام وصحبه فى الجمعية إذ شرعت فى إنشاء جامعة أهلية. وندب الإمام المنشاوى باشا ليقف عليها وقفاً فتقدم إلى مجلس

الوزراء لشراء عشرة آلاف فدان من أرض الحكومة ليقوم بوقفها . لكن المنية عاجلته ورئيس الجمعية سنة ١٩٠٥ . فتولى سعد أمانة لجنة إنشاء الجامعة حتى سنة ١٩٠٦ حينما عين وزيراً للمعارف . فلما تركها آلت أمانتها إلى قاسم حتى وفاته سنة ١٩٠٨ . وساعده الأمير (الملك) أحمد فؤاد فوقفت أخته الوقف الذى كان منتظراً فقامت الجامعة سنة ١٩٠٨ وأوفدت بعثتها الأولى سنة ١٩٠٨ وفيها محمود عزمى ومنصور فهمى وتوفيق الساوى وسيد كامل وسبعة آخرون وكانت رسالة منصور فهمى فى السوربون عن (المرأة فى الإسلام) وكان تعيين طه حسين شرطاً فى عقد أيلولة الجامعة المصرية سنة ١٩٢٥ للجامعة الحالية (جامعة القاهرة).

أما الهلباوى فكان أشهر الجميع عند الجماهير حتى ملأ اسم سعد أسماعها فى الثورة سنة ١٩١٩ .

فالهلباوى هو النقيب الأول للمحامين ومحامى الحريات والقضايا القومية ضد الإنجليز والخديو والملك فؤاد والدكتاتورية البرلمانية أو الحكومية . وهو أمير للبلاغة القضائية يخف الناس لسماع مرافعاته فى كل أنحاء البلاد أكثر من نصف قرن . والتاريخ لايعرف محامياً مثله تفرد فى القمة جيلين كاملين . فنى سنة ١٩١٠ طلب إليه الوردانى – وهو خصمه السياسى – أن يترافع عنه فى مقتل ناظر النظار . وفى سنة ١٩٢٥ طلب إليه شفيق منصور أن يدافع عنه فى مقتل السردار . وشكر له سعد – وهما خصمان سياسيان – دفاعه عن الحكم الوطنى . وفى القضيتين كان رئيسا الجلستين إنجليزيين : دليراوغلو وكرشو . فأسمعهما اتهام مصر للإنجليز مدويا بجرائمهم وإفسادهم فى البلاد .

وأما سعد فسيرد حديثه بعد ، مع أربعة من الجيل التالى من أعضاء الجمعية رأسوا الوزارة واحداً بعد آخر : حسين رشدى – عدلى يكن – عبد الخالق ثروت – محمد محمود[1] .

وكان حسين رشدى أولهم ولاية للرياسة فاختار للوزارة عدلى وثروت . ثم صار قائم مقام الخديو بعد خلعه سنة ١٩١٤ حتى ولى العرش رئيس الجمعية السلطان حسين كامل – وهو أورع من ولى العرش من أسرة محمد على – فاجتمع رئيس الجمعية وثلاثة من أعضاء مجلس إدارتها على عرش مصر وحكومتها .

وحسين رشدى باشا (١٩٢٨) هو رئيس اللجنة التى وضعت لمصر دستوراً على أحدث المبادئ العصرية . وكان وكيل اللجنة أحمد حشمت . وفيها الهلباوى وآخرون . من أعضاء الجمعية .

مدرسة الزعماء :

وفى عضوية الجمعية غير هؤلاء أسماء لم يجتمع فى التاريخ نظائر لها فى جمعية مصرية . هناك محمد فريد بك من سنة ١٨٩٥ والباشوات لطيف سليم وأحمد فتحى زغلول طليعة المؤلفين

(١) فى القاهرة شوارع خمسة كبيرة بأسمائهم .

فى القانون وأحمد حشمت وعلوى كبير أطباء الحكومة ، والمنشاوى (المحسن الكبير) . ومحمود سليمان وابنه محمد محمود آخر رؤساء الوزارات من تلاميذ الإمام وإدريس راغب وصابر صبرى ، وحسن عبد الرازق ولطفى السيد ومحمد يوسف بك نقب المحامين وتلميذ سعد فى مكتبه وعالم العربية الكبير حفنى ناصف بك (والد ملك حفنى ناصف) «باحثة البادية» أولى المطالبات بحقوق المرأة .

وستقرأ فى مجلس الإدارة أسماء محمد طلعت حرب باشا يظل سكرتيراً عامًّا فوكيلا حتى يموت . والدكتور على إبراهيم باشا رئيساً للجنة المعونات وفى جوار اسمه (الجراح الشهير) وعلى شعراوى باشا ثالث الثلاثة الذين طلبوا استقلال مصر فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ وآخرين سنسمع أنباءهم .

وحسبنا هنا لفت النظر إلى أمور . منها :

١ – أن الشيخ الرئيس وسعد زغلول وقاسم وحسن عاصم وعلى فخرى وإبراهيم الهلباوى أسماء ليس لأصحابها نظراء فى تاريخ مصر .

٢ – أن الزعامات الأخرى كانت تفتقدها مصر كل الافتقاد فحشمت وزير المعارف الذى نشر التعليم الابتدائى – كما يسمى الآن – فى ريف مصر وصعيدها فملأها بالنور وقد اختلف مع الانجليز من أجل الدفاع عن اللغة العربية مثلما اختلف معهم سعد زغلول . ولطفى السيد باشا أب للفلسفة وأول مدير للجامعة ورئيس لمجمع اللغة وللجمعية الخيرية وأستاذ مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ومحمود عزمى وطه حسين ومنصور فهمى . أما على إبراهيم باشا فأبو الجراحة الحديثة . والثلاثة الأخيرون مديرون للجامعة المصرية . وطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادى[1]. ومحمد فريد

---

(١) كان الأستاذ الإمام فى الفترة الأخيرة من حياته يلقى دروس تفسير القرآن فى الرواق العباسى كما سنرى بعد . وكان من عمد تفسيره تفسير (الجلالين) وأولهما (الجلال المحلى) نسبة للمحلة الكبرى وكان يعمل فى صناعة الحرير . واشتهار الجلال المحلى بصناعة الحرير من قديم أو اشتهار المحلة بذلك هو الذى جعل الإمام يخطب الجمع المحتشد لسماعه من أهل المحلة عند افتتاح مدرسة الجمعية فيها فى سنة ١٣٢٢ هـ – ١٩٠٥م فيعلن بصفته رئيساً للجمعية أن (لنا الرجاء بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها فى تأسيس قسم صناعى فى هذه المدرسة فإن المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة . وقد وعد صاحب السعادة أحمد باشا المنشاوى بأنه مستعد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعى . . . وقد علمت أن أهل المحلة ثلاثون ألفاً أو يزيدون وليس فيها إلا مدرسة للقبط وأخرى للأمريكان وأننى قد رأيت فى بعض سياحتى فى البلاد الأجنبية مدينة عدد سكانها ١٦ ألف نسمة . وقد أنشأ الأهالى فيها مدرسة كلية (جامعة) تعلم فيها جميع العلوم العالية . . . فنرجوا أن . . ترتقى مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعى . وأن يكون لنا فى القاهرة مدرسة كلية (جامعة) . . .

وسيستعين الإمام بالمنشاوى باشا ويلبى فى العام ذاته (١٠ شوال سنة ١٣٢٢) لإنشاء جامعة القاهرة . ثم يموت الرجلان فى نفس العام فيتابع سعد وقاسم وصية الإمام فى صدد الجامعة .

أما وصيته فى صدد الصناعة بالمحلة فسينفذها طلعت حرب وينشئ فيها شركة المحلة للغزل والنسيج لتصبح كبرى الشركات لصناعة النسيج فى القارة الأفريقية وأم الشركات الصناعية فى مصر . وبها أصبحت المحلة إحدى عواصم الصناعة العالمية للنسيج .

رئيس الحزب الوطني الذى ملأ مكان مصطفى كامل باقتدار بعد إنشاء الحزب الوطني بشهر وبعض الشهر[1] .

٣ – أن كلا من سعد وعدلى وثروت ومحمد محمود كان رئيس حكومة برلمانية له اختصاصات أكبر من اختصاصات الملك – فالملك يسود ولايحكم – وأن كلا منهم فاوض إنجلترا باسم مصر. وأنهم فرادى ومجتمعين أحدثوا نهضة النصف الأول من هذا القرن . واستفتح سعد عصر المنجزات الإيجابية لبلاده سنة ١٩١٩ وجاء فى أثره عدلى سنة ١٩٢١ ثم ثروت فظفر لمصر بالاستقلال سنة ١٩٢٢ . وصير السلطان ملكاً . وقدم لمصر دستوراً أعلنه الملك راغماً سنة ١٩٢٣ . وسقاه العلقم سعد وعدلى وثروت ومحمد محمود دفاعاً عنه . حتى إذا ضعف خلفاؤهم عن صيانته قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ .

٤ – إلى جوار رؤساء الحكومات الخمسة سترى رؤساء خمسة لأحزاب أربعة تعلموا العمل العام فى عضوية الجمعية : محمود سليمان باشا رئيس حزب الأمة سنة ١٩٠٧ ومحمد فريد بك رئيس الحزب الوطنى سنة ١٩٠٨ . وسعد رئيس الوفد المصرى سنة ١٩١٩ حيث محمود سليمان يمثل الوفد بالقاهرة رئيساً للجنة المركزية وابنه محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين سنة ١٩٢٥ وعدلى يكن الرئيس الأول للحزب سنة ١٩٢٢ – ١٩٢٤ .

وفى سنة ١٩٠٣ كان فى مجلس إدارة الجمعية : محمد عبده رئيساً وعدلى يكن وكيلا وسعد زغلول ومحمد فريد أعضاء !

بل كانت جلسة ١٤ يونيه سنة ١٩٠٥ آخر جلسة رأسها الإمام . وفيها تخلف درويش بك سيد أحمد أمين سر الجمعية فتولى أعمال الأمانة محمد بك فريد . ومن قبل ذلك تخلف درويش بك عن جلسة ٨ أبريل سنة ١٩٠٠ فقام بأعماله وكيل الجمعية حسن باشا عاصم وهو رئيس الديوان الخديوى .

٥ – أن أموال الباشوات المنشاوى ومحمود سليمان وإدريس راغب وحسن عبد الرازق وعلى شعراوى قد حملت أعباء النشاط العام للجمعية إلى جوار الأوقاف فى الدلتا والصعيد والعواصم فى القاهرة والإسكندرية والأقاليم والتبرعات التى لاتتوقف .

٦ – أن المصريين عامة تلقوا على أيدى الشيخ الرئيس وتلاميذه دروساً فى العمل الجماعى المنجح – وكانت تجارب الشباب الذين شيبتهم صروف الزمان وعلمتهم الحكمة ، بشريات فجر طالع

---

(١) أسلفنا الكلام عن والده فريد باشا – استقال محمد فريد من وظيفة وكيل نيابة الاستئناف إذ نكلت به الحكومة عندما أثنى على حكم البراءة فى قضية صحفية ترافع فيها الهلباوى عن المتهم بإفشاء أسرار الجيش المصرى فى السودان . وعمل بالمحاماة سنة ١٨٩٧ ثم اعتزلها ليعمل فى الجهاد الوطنى مع مصطفى كامل . فباع ممتلكاته وكانت كبيرة وقضى حياته مريضاً شريداً فى أوربا يجاهد كرئيس للحزب الوطنى فهو يعتبر أكثر الزعماء فى التضحيات المادية من أجل مصر.

برجال جدد ، سعوا إلى الجمعية الخيرية أو سعت هى إليهم مقدرة لهم ومقدرين لها ، فكانوا فى الحالتين شهادات صدق لإدراك الرئيس وفراسته . وكأنما كشف الله له لوح المستقبل .

فكل واحد من المؤسسين الأولين كان أمة فى رجل . أما من جاءوا بعدهم فأقرب مواطنيهم شبهاً بهم ، فى تحمل تبعات المقاومة الصامتة للعدو . والتحلى بالنظر البعيد والفكر المبدع . والخلق الذى يجمع على الإشادة به العدو والصديق .

٧ – وفى زمالة الجمعية دروس فى السلوك السياسى روى بعضها فريد بك :

(ا) فى ١٩٠٨/١١/٣ تألب عليه عمال (اللواء) وكان الخديو وراءهم فسارع فريد إلى لطفى السيد مدير «الجريدة» فطبعت اللواء فى مطبعة «الجريدة» وهى لسان حزب الأمة الذى يخاصمه الحزب الوطنى بعنف ملحوظ .

(ب) وفى سنة ١٩١٢ تقدم فريد بك مرشحا لمجلس إدارة الجمعية لتجديد انتخابه ، وكان رئيس الجمعية الأمير حسين كامل يعارض انتخابه لخلافه الخطير مع الخديو . فأيد الهلباوى ولطفى السيد وحسن عبدالرازق (الصغير) انتخاب فريد ونجح بأغلبية كبيرة . . وقبل الأمير أن ينهزم رأيه أمام أعضاء الجمعية العظماء .

(حـ) وعندما يشير فريد إلى هؤلاء بالتقدير يذكر أن حسن باشا كان محاميا فى مكتبه . فهذا ابن للوكيل السابق لحزب الأمة يتلقى تمرينه فى المحاماة فى مكتب رئيس الحزب الوطنى . . والحزبان خصمان لدودان !

* * *

كانت «سيادة القانون» ضماناً من الغدر الذى تهب رياحه من قصر الخديو وأماناً أرخى حبله الإنجليز للأمة لتتحرك فى إطار سياسة خارجية واقتصادية وداخلية وتعليمية تجرى مقاديرها بأيديهم .

وكان حقًّا للأمة على هذه النخبة البارعة من بنيها أن يتحركوا ، أفراداً أو مثانى أو جماعات ، فى نطاق يضيق أو يتسع أو يعظم قدر مايبدعون من طرائق حسنة فى التعامل مع الإنجليز أو القصر ، أو من إنجازات عظيمة تبقى بها الجمعية الخيرية الإسلامية عظيمة .

مع ذلك لم يترك الوشاة الجمعية الخيرية دون وقيعة بينها وبين الإنجليز . فدسوا عليها لدى اللورد كرومر أن أموالها تستعمل فى شراء أسلحة للثائرين فى السودان . وفتشت مكاتب الجمعية وأوراقها . وأسفرت الحقائق . وقابل الشيخ الرئيس اللورد كرومر . وانتهت الواقعة بتقديم معونة للجمعية . وهى لغة فى الاعتذار .

* * *

إليك بعض وقائع من عملها العادى إلى جوار أجهزة التعليم المنبثة فى القاهرة والأقاليم :

١ - احترقت مدينة ميت غمر سنة ١٩٠٢ فوجه الشيخ الرئيس نداء إلى مصر كلها وكتب فى صحيفة المؤيد مقالا جاء فيه (فإذا لهب الحريق يأكل قلبى أكله لحوم أولئك المساكين سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادى مايصهره من لحومهم . . أرقت تلك الليلة ولم تغمض عيناى إلا قليلا وكيف ينام من يتقلب فى نعيم الله وله هذا العدد الجم من إخوة وأخوات يتقلبون فى الشدة والبأساء) .

وصدق الشيخ الرئيس ، فلم يطق البقاء بداره أو بمقره أو بالقاهرة كلها ، بل راح يطوف البلاد مع صحبه ثلاثين يوماً يجمع التبرعات وهو فى الواقع يجمع أعيان البلاد على رأى عام .

وطالب حافظ إبراهيم بنصيبه ، فهزته القارعة ، وأسعده النطق ، فأنشد فيها روائعه (١) .

واستجابت مصر كلها لنداء الإمام بل واستجاب المنشاوى باشا فى سجنه (٢) لشعر حافظ :

أيهذا السجين لايمنع السجن كريماً من أن يقيل العثارا
مر بألف وإن شئت زدها وأجرهم كما أجرت النصارى .

(١) يقول حافظ :

سائلوا الليل عنهمو والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم وكيف اصطلى مع القوم ناراً

ويقارن بينهم وبين عرس الأمير حيدر فاضل سنة ١٩٠٢ .

قد شهدنا بالأمس فى مصر عرساً ملأ العين والفؤاد انبهارا
سال فيه النضار حتى حسبنا أن ذاك الفناء يجرى نضارا
يكتسون السرور طوراً وطوراً فى يد الكأس يخلعون الوقارا .

(٢) كان أحمد المنشاوى باشا فى السجن لقضية نورد تلخيصها نقلاً عن مذكرات الهلباوى التى نقلنا عنها فى كتاب (المحامون وسيادة القانون) لنرى الهلباوى وحسن عاصم والمنشاوى والخديو فى قضية .

(كان من الأغراض الخفية للقضية الأخيرة وضع حد لتدخل الخديو شخصياً فى إدارة الحكم فاتهم . . مأمور مركز طنطا بأنه حمل بعض المتهمين بسرقة مواشى للخاصة الخديوية إلى بلدة المنشاوى باشا حيث جلدوا فقدم المنشاوى والمأمور محبوسين لمحكمة الجنايات . وعهد إلى الحسينى بالدفاع عن الباشا وإلى الهلباوى بالدفاع عن المأمور وأشفق حسن باشا عاصم سر تشريفاتى الخديو على صديقه من تلك القسمة الضيزى إذ يتولى الدفاع فى هذه القضية وفى قضية التلغرافات التى استقال بسببها الزعيم محمد فريد من وظيفته (وكيل النيابة) وفى قضية الخازندار عن أسوأ المتهمين مصيراً . لكنه كعادته كان بطل المرافعة إذ أثبت كما قال : أن « المأمور كان عبد المأمور » وهنأه فى الجلسة رئيس النيابة أحمد طلعت بك الذى صار وزيراً فرئيساً لمحكمة الاستئناف .

ولما برئ موكله لم تصله كلمة شكر ولا قيمة الأتعاب فذهب إلى الإسكندرية ليقابل الخديو بعد صلاة الجمعة فلم يقابله ، كعادته ، وضرب له موعداً بعد الظهر فى القطار بمحطة سيدى جابر فتأخر عن الميعاد خمس دقائق حتى إذا أقبل لامه الخديو لتأخره فأجابه « لكننا انتظرنا سموكم ثلاث ساعات فى الظهر » فتبسم الخديو وراح يلومه على مرافعته إذ حمل على الخاصة الخديوية . فرد الباشوات الحاضرون بأنهم سمعوا وقرأوا فى الصحف أن مرافعته لم تكن شرفاً له فحسب بل كانت تشريفاً للمحاماة وقدرت أتعابه بثلثمائة جنيه أرسلت إليه . لم يفقد الهلباوى استقلاله حتى مع مولاه لأنه لم يكن يمثل الولاء ولا الوظيفة وإنما كان يمثل المحاماة مهنة النضال والاستقلال . .) .

(يقصد إجارته للأجانب أيام الثورة العرابية) .

٢ – من قبل ذلك أجلى الإنجليز جيش مصر عن السودان وأفريقيا . بهزائم افتعلوها ليحتلوها بعد أن احتلوا مصر ، وخسرت مصر ثمانين ألفاً من الجنود وتعاظمت خسائر الميزانية واختفى الذين يغيثون أسر الشهداء فرقين من بطش الإنجليز . فندب الشيخ لذلك نفسه وأهاب بالناس فلبوا .

وكان بعيد النظر إذا ألف لجنة جمع التبرعات من زملاء فى القضاء ومن كبار الأغنياء[1] للجهات الرسمية فيهم أمنة ، وللمتبرعين طمأنينة . وشجع نجاح اللجنة فى عملها قيام جهات أخرى لتساعد المنكوبين . .

هذان المثلان من المواقف العامة ينبئان عن مسلك الجمعية فى المواقف الخاصة . فهي تمد يدها للأفراد عموماً والأسر خصوصاً لتفريق مال الله فيمن يستحقونه مع توسيع أسباب الإنفاق أو الاستحقاق ، بمد يد العون لكل ذي حاجة شخصية ، أو كارثة عائلية ، كالمرض ، أو نفقات التعليم ، أو العجز عن التعليم العالى .

وافتنّت فى جمع المال فلها مهرجانات سنوية تشارك فيها الأمة ، وصلات من الأغنياء والأمراء ، والناس كافة . وعليها واجبات فى الأعياد والمناسبات . لاتستحى من العطاء القليل لأن الحرمان أقل منه . ولا تتردد فى السخاء الوفير على الأمة لأنه لا إسراف فى الخير .

وفى ليلة من ليالى رمضان جلس الأعضاء يقررون منح عيد الفطر أسرة أسرة : وأدركوا فى آخر الليل أنهم يتصاعدون بالعطاء دون شعور . فزين لهم عملهم درويش بك سيد أحمد قال (لاتحسبوا فالله يرزق من يشاء بغير حساب) .

إصلاح الأزهر

ولى الخديوى عباس حلمى العرش فى ١٨٩٢/١/٨ بموت أبيه . وكان فيه فوران فتى فى الثامنة عشرة . لم يثقب الفزع من الثوار قلبه . وكانت لجيوش الاحتلال سماعاتها ونظاراتها فى قصره . . حتى ليجرى بعض مقابلاته فى المسجد المقام بجوار قصر القبة .

ولقد حاول بعد أيام من ولايته إثبات وجوده فأقال وزارة تسبح فى بحر الخضوع للإنجليز وعين أخرى برياسة حسين فخرى . فأبى كرومر إلا أن يعود مصطفى فهمى من فوره ! . وأوشكت الأزمة تطيح بالخديو لولا أن ألف رياض وزارة بعد أيام فى ١٨٩٢/١/١٩ ليحل محله نوبار بعد عامين فيبقى

(١) كان السيوفى باشا رئيس الجمعية لكن محمد عبده كان رئيس اللجنة وفتحى زغلول سكرتيرها أما أمين الصندوق فالسيوفى باشا .

عاماً يعود بعده مصطفى فهمى نفسه ليجثم على صدر مصر ثلاثة عشر عاماً نحِسات ، رئيساً لأطول الوزارات عمراً فى تاريخ مصر.

وفى أوائل سنة ١٨٩٤ كان الخديو عند حدود مصر الجنوبية فاستعرض الجيش وأبدى بعض الملاحظات فاستقال القائد الإنجليزى كتشنر إلا أن يعتذر الخديو علناً فاعتذر بل وجه الثناء لقواد الفرق الإنجليز.

وكان طبيعيًّا عندئذ أن يمد الخديو بالأسباب إلى مواقع الأمل فى بلاده . وأن يستطيع محمد ماهر باشا وكيل وزارة الحربية الذى كان يصحب الخديو يوم حادث الحدود أن يجعل محمد عبده فى أواخر سنة ١٨٩٤ وجهاً مألوفاً للخديو . وسنرى مصطفى كامل يبدأ علاقته بالخديو سنة ١٨٩٨ وهما فى الرابعة والعشرين من العمر.

يقول أحمد شفيق باشا – وكان من عمال الخديو (ترجع حركة الإصلاح الحديثة فى الأزهر إلى أواخر سنة ١٨٩٤ لما رأى (محمد عبده) من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الإنجليز ، مال إليه وتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا فاستقبله عباس بترحاب وعطف ومال إليه أيضاً لما أنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى ، وتقابلا مراراً بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزه (قصور الخديو فى القاهرة والإسكندرية) فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق أمانيه . فاقترح الشيخ عليه أن هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخل الإنجليز ولا يعارضون فى العمل لإصلاحها لأنها دينية محضة وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وأشار على سموه أن يبدأ بإصلاح الأزهر واتفقا على أن يقدم الشيخ إلى سموه مذكراته عن وجوه الإصلاح) .

وفى غضون أشهر صدر دكريتو بإنشاء «مجلس إدارة الأزهر» فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٥ بعد تقرير قدمه الشيخ كرر فيه طريقته أيام اقترح على رياض باشا إنشاء (مجلس) للمعارف حتى لا يمس شخص وزيرها . وفى ٧ رجب ١٣١٢ اختير «مجلس الإدارة» منه ومن الشيوخ عبد الكريم سلمان زميله فى الوقائع ، وسليم البشرى (مالكى) وحسن المرصفى (شافعى) ويوسف النابلسى (حنبلى) ثم استقال شيخ الأزهر وتولى المشيخة الشيخ حسونة النواوى.

وانطلقت عجلة الإصلاح فى الأزهر يديرها مستشار عامل فى محكمة الاستئناف حريص على إصلاحه بأيدى رجاله العاملين فيه.

* * *

كان الشيخ منشئاً للنظم ، مدركاً للأولويات . فاستصدر قانوناً بالإصلاح سنة ١٨٩٦ جعل للأزهر أطباء وصيدلية ، وألزم مصلحة الصحة برعاية الظروف الصحية فيه وفى مساكن التلاميذ . وانتصف القانون للشيوخ فزادت مرتباتهم وثبتت ، بعد إذ كانت تزيد وتنقص أولا تجىء أبدا

حسب ما يتحصل من ريع الأوقاف . ووضع « نظام » لاستحقاق الدرجات وكسوة التشريفات .

وأصبح التلاميذ يحضرون الدروس بعد إذ كانوا لايحضرون . . ويدخلون الامتحان بعد إذ لم يكونوا يدخلون ، أو يدخلون حين يشاءون ! بل كان منهم من يقيد اسمه ليصيب نصيباً فى كشوف الجراية ولا يواصل التعليم .

والتفت الشيخ إلى المستشار المالى للحكومة – وهو الإنجليزى المنقبض اليد على الأزهر – ليعالنه بأن الأزهر مدرسة كمدارس الحكومة ، عليها أن تنفق عليه ، ومسجد كالمساجد ، هو أولى بأموال الخيرات من سائرها . ووعاظه أنفع للأمة ، ومعلموه يخرجون المعلمين والقضاة الشرعيين . وهو يعدُّ مدرسة الشريعة . فحقوقه فى ميزانية الدولة لاتقبل الجدل .

وانتقل الإصلاح إلى العلوم ودروس الحساب والجبر والمقابلة والتاريخ والجغرافيا فعرفت الكتب النافعة طريقها إلى عقول الناشئة وارتفع مستوى الدروس . . وأصبح مجلس الإدارة ينعقد بنظام فى الرواق العباسى بالأزهر ليقر اقتراحات الشيخ المستشار .

وفى سنة ١٨٩٩ عين الشيخ مفتياً للديار فصار قطعة من نفس الأزهر ، وعلا و-ه الأزهر البهاء ، يوم راح يلقى فيه أعظم دروسه وبين يديه التلاميذ والعلماء والرجال العظماء .

وبورك للأزهر ولمجلس الإدارة فكان الشيخان حسونة النواوى وسليم البشرى من أعظم شيوخه لما وليا المشيخة .

وبورك للتلاميذ فأصبح متوسط عدد المتقدمين للامتحان سنويا ٩٣ بعد أن كان من ٣ إلى ستة وأصبح الناجحون ثلث المتقدمين .

وكانت عين الشيخ على الطلاب – دائماً – فهم الهدف الأعلى من كل ذلك فتقررت الحوافز للمجدين ، وقواعد للتدريس والامتحان والإجازات .

وألحق المعهد الأحمدى ومعهدا دمياط ودسوق بالأزهر وفى سنة ١٩٠٣ ألحق معهد الإسكندرية .

وكان من آثار القانون الجديد قصر غلة الأوقاف المخصصة للتدريس على المدرسين بعد أن كان أبناء الموتى منهم يحلون محلهم دون نظر لمصلحة المدرسين الحقيقيين المستحقين . فأمسى معاش الأبناء مسئولية على الشيخ يؤديها من ماله الخاص ومال أصحابه مع أن من آبائهم من كانوا خصوماً له .

وجاء الشيخ بكتب جديدة لتدريسها فى الأزهر وفى طليعتها دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجانى (٤٧١) ، وعرفت العقول الشابة كتب (الوسيلة الأدبية) و (والكلم الثمان) للشيخ حسين المرصفى والكامل للمبرد والحماسة لأبى تمام ، وتحطم حاجز الخوف من أى جديد فيه منفعة .

ودزست رسالة التوحيد لمحمد عبده فى الأزهر.

وظل الشيخ يبحث للأزهر عن الكتب ويحققها ويوصى بها . خذ مثلا لذلك قوله عن عرض كتاب البصائر النصيرية فى المنطق على أعضاء مجلس الإدارة لتدريسه أنهم (رأوا أنه من أفضل مايهدى إلى الجامع الأزهر الشريف ليكون من الكتب التى تدرس فيه . . فاستخرت الله تعالى فى وضع بعض التعاليق على مارأيته محتاجاً إلى ذلك) .

وقوى ساعد جمعية إحياء التراث العربى - والشيخ رئيسها - فمكن للشيخ الشنقيطى أن يظهر المخطوطات ذوات الشأن .

ونظمت مكتبة الأزهر. ولم يبق شىء لم يعطه الشيخ للأزهر إلا نفسه ، ولسوف يعطيها .

وفى هذه الأثناء طلب إليه الخديو أن يكتب عن الحوادث العرابية وأسبابها . فكتب شهادة عيان بفساد حكم إسماعيل وتوفيق وقيام الثورة العرابية وأسباب هزائمها .

إصلاح القضاء الشرعى

فى ٣ يونية سنة ١٨٩٩ عين الشيخ المستشار مفتياً للديار المصرية فألهمته السماء أن يضيف إلى مسئولية الإفتاء مسئولية إصلاح القضاء الشرعى وقوانينه - وكان قد أفضى بذلك للخديو من خمس سنين - فقصد إلى وزير الحقانية ، واتفقا على أن يقوم بتفتيش المحاكم الشرعية فى إبان إجازة الصيف . فصنع.. وقدم تقريره الأشهر فى ٥ نوفمبر من العام ذاته .

وهذا التقرير - بموضوعه - أدخل فى باب القضاء فى حياة مستشار يذيل به سنواته الإحدى عشرة (يونية ١٨٨٨ - يونية ١٨٩٩) فى القضاء المدنى ، الذى يرعاه الجميع ، ولا يرعى القضاء الشرعى سواه ، وقد لاحت له الفرصة . وهو أكبر أهل عصره إدراكاً بمكانة الشريعة التى صنعت أمة الإسلام ، وأعلى عيناً بذلك ، بعد العمل الطويل الجليل فى تطبيق الشرائع الأجنبية . وفى جواره جماعة من رجال القانون العالميين يتصدرهم سعد ، مجمعون على إصلاح الأمة . والشريعة تقيم الأمة على أساس الأسرة ، لا الفرد . وبهذا يمتاز المجتمع الإسلامى بالتماسك من مجتمعات أوربا التى عراها التفكك وتتجه أنفس المسلمين فى إصلاح حالهم صوب قوانين الأسرة . وهى الغذاء اليومى للعمل القضائى فى المحاكم الشرعية .

قال الإمام فى التقرير (فرأيت من الواجب علىّ أن أكون على بصيرة من الأمر العظيم الذى سأدعى إلى البحث فيه . . ورأت نظارة الحقانية مارأيت فسألتنى[1] أن أمر على المحاكم مدة الصيف

---

(١) يتم هذا التعبير عن أنه يسمو بوظيفة المفتى عن أن تتلقى تكليفاً . بل الوزارة تسأله وترجوه .

الماضى وأنظر فى أعمالها وأقدم لها نتيجة ما تيسر لى من البحث فى أحوالها . . . فطفت على كثير من محاكم الوجه البحرى) .

وتتابعت أبواب ثلاثون للتقرير فى ثلاثة وثمانين صفحة كبيرة جديرة بأعلى درجات التقدير العلمى فى الشريعة والقضاء ، حيث تضع محمد عبده بين أعظم قضاة الإسلام بجدارة ، ثم تجعله – وحده – مجعل هيئات بتمامها من العلماء والقضاة والمشرعين يواجه المسلمون بها حاجات عصرهم .

وليس عجيباً – أن يكون هذا العمل الضخم فى حياة الأمة عملا عاديا فى حياة رجل . وأن ينجزه فى أربعة أشهر . . فهذا الرجل إمام .

بادرت الحكومة فطلبت إليه إعداد قانون بالإصلاح من واقع التقرير فصنع . وقدم قانوناً من أحد عشر مادة أعلن تأييدها شيخ الأزهر الشيخ سليم البشرى بخطاب مؤرخ ٦ ربيع الأول سنة ١٣١٩ (١٩٠١) . وأدخلت الحكومة فحوى هذه المواد جميعها فى إصلاحاتها المتوالية للمحاكم الشرعية وقانونى ٢٥ سنة ١٩٢٠ ، ٢٥ سنة ١٩٢٩ – إليك مثالين من مادتين من مواد المشروع :

المادة العاشرة : إذا اشتد النزاع بين الزوجين ولم يمكن انقطاعه بينهما بطريقة من الطرق المنصوص عليها من كتاب الله تعالى رفع الأمر إلى قاضى المركز . . وعليه عند ذلك أن يعين حكمين عدلين أحدهما من أقارب الزوج والثانى من أقارب الزوجة ، والأفضل أن يكونا جارين . فإن تعذر العدول من الأقارب فإنه يعينهما من الأجانب وأن يبعث بهما إلى الزوجين ، فإن أصلحاهما فبها ، وإلا حكما بالطلاق ورفعا الأمر إليه . وعليه أن يقضى بما حكما به ويقع التطليق فى هذه الحالة طلقة واحدة بائنة ولايجوز للحكمين الزيادة عليها .

المادة الحادية عشرة : للزوجة أن تطلب من القاضى التطليق على الزوج إذا كان يصلها منه ضرر والضرر هو ما لا يجوز شرعاً كالهجر بغير سبب شرعى والضرب والسب بدون سبب شرعى وعلى الزوجة أن تثبت كل ذلك بالطرق الشرعية .

* * *

أعلن الشيخ فى التقرير أنه يقدم بحثاً (فى العلل التى عم الكلام فيها ومايجب أن يوضع لها من الدواء مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله ومراعاة مصالح العامة والآخذين بأحكام الشريعة المطهرة فى عقائدهم ومعاملاتهم وإزالة ماعمت منه شكواهم مما ينسب إلى عمال المحكمة أو العوائد المتبعة فى سير أعمالها) .

وبين مدى الإصلاح فقال : (تدخل المحكمة الشرعية بين الرجل وزوجه والوالد وولده والأخ وأخيه والوصى ومحجوره . وما من حق من حقوق القرابة القريبة والبعيدة إلا ولها سلطان السيطرة عليه

والقضاء فيه وإنما تنظر من ذلك فى أدق الشئون وأخفاها ويسمع قاضيها ما لا يسمح لأحد سواه أن - يسمعه سوى ما يكون من الزوج لزوجته أو الزوجة لزوجها .

وللشريعة الإسلامية فى ذلك دقائق لايسهل الالتفات إليها إلا على من أحاط علما بكليات أحكامها . .

ولما تعلقت مصالح البيوت فى أدق روابطها بالمحاكم الشرعية كما هو الواقع اليوم تبين مقدار حاجة الأمة فى صلاحها إلى صلاح هذه المحاكم وظهر أن منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذى لو ضعف ظهر أثر ضعفه فى البنية بتمامها)

* * *

يبدأ الإمام التقرير بدور القضاء . فيتحدث عن واقع الحال :

(إذا ذهبت إلى ديوان مديرية وأردت أن تعرف محل المحكمة الشرعية فى ذلك الديوان فابحث عن أردأ مكان فيه تجده هو مكان المحكمة الشرعية).

وفى «باب القضاة» لايفوته أن يوصى بإطلاق الاختيار وهو الحنفى المذهب .

(وإنى أحب أن أصرح بأمر ربما يغضب له بعض أهل الأثرة من أهل العلم الحنفية وهو أننا مسلمون .

وليس الزمن زمن تعصب لمذهب دون مذهب . . ومن درس فقه الشافعية أو المالكية لا يعسر عليه فقه أبى حنيفة . فإن الأصول متقاربة والاختلاف فى الفروع مذكور فى كتب الفريقين . وحصر التعيين فى الحنفية يضيق دائرة الانتحاب ويلجئ إلى تعيين الضعفاء فى العلم والعزيمة . فلم لايطلق الانتخاب من هذا القيد[1])

ويقول فى الشهادة والأدلة (يوجد فى بعض كتب الفقه أمور عدت مسقطات للشهادة كحلق اللحية والعمل فى بعض الوظائف لمعونة الحكام ونحو ذلك . وقد علل ذلك الفقهاء بأن حلق اللحية مسقط للمروءة ومعاونة الظلمة فسق . وحكم أحد المفتين برد شهادة رجلين لحلق لحيتهما ، ولم يراع فى ذلك أن الأمر الأول قد ذهب زمنه لأن المدير ووكيل المديرية ومأمور المركز وهم معدودون من أهل الصلاح والمروءة جميعهم فى تلك المديرية يحلقون اللحية . ولا أرتفع إلى أعلى من ذلك . وأما الثانى فقد صرحت أمهات الكتب بقبول شهادة الفاسق . وبعضهم قيده بذوى المروءة وبعضهم أطلق . وبنوا على هذا جواز تولية القاضى الفاسق خصوصاً من كان فسقه بعمل لايتعلق بالشهادة كالشرب

---

(١) علقت صحيفة المؤيد أشهر الصحف فى ذلك العصر - وصاحبها الشيخ على يوسف (باشا) - بأن الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان أحد قضاة المحكمة الشرعية العليا من أمهر القضاة وهو شافعى المذهب.

والقذف ونحوهما . فلو أخذنا بما ألفه المقصرون فى فهم الشريعة حصرنا قبول الشهادة فيما يصدر من رعاع الناس ومجهولى الحال الذين لاتعرف أهليتهم للثقة بمقالهم . وكثير من طويلى اللحى الظاهرين بلباس الصلاح إنما يقتاتون بالكذب . وكثير من غيرهم يتنزهون أن يكذبوا مرة فى حياتهم . . أما بقية الأدلة فلا يزال القضاة يتخبطون فى أحكام الإقرار وقبول الشهادة عليه . والأدلة الخطية مهملة بالمرة لايعدها القضاة إلا مؤيدة بالشهادات . .

وعار على قوم يأخذون الأحكام من الكتب ويجلسون للحكم بدلائل الخط لاسواها أن يأبوا اعتبار الخط دليلا متى . . لم توجد شبهة التزوير) . . . . .

اقتراح لجنة لاستخراج قانون للمعاملات من الشريعة

يقول التقرير : (ماعليه العمل من أقوال العلماء فى الأحكام الشرعية مذكور فى الكتب مخلوطاً بالخلاف والبحث وطرق الترجيح . ومن رفعت إليه واقعة شرعية قد يصعب عليه الحكم فيها إلا بعد مراجعته بعض المؤلفات الطويلة وربما احتاج إلى مراجعة عدة منها فى أبواب مختلفة . وكثير من القضاة لاطاقة لهم باستخراج الأحكام من هذه المطولات . وفى الحق إن ذلك غير ميسور إلا للقليل ممن يصح توليته القضاء اللهم إلا بعد إصلاح طريقة تعليم الفقه فى الجامع الأزهر وإعادتها إلى ماكان عليه السلف . وذلك أمر بعيد المنال الآن .

نعم يجب أن يكون مقتدراً على البحث والمراجعة فى المشكلات . أما فى كل حكم فذلك من العسر بمكان . وقد كثر الخطأ فى أحكام الأوقاف والطلاق والمهور والوصايا وغير ذلك لهذا السبب . ثم إنه توجد شئون للمسلمين تقضى الضرورة بالنظر فيها وبيان الأحكام التى ترفع الضرر وتقرر العدل ولاتخالف الشرع . بل هى من قوامه كأحكام الغائب والمفقود الذى ترك مالا وهل يمكن إقامة وصى يخاصم له ويحفظ ماله ويدفع الخصوم عنه وتنفيذ الأحكام عليه بالنيابة عنه ، وهى من المسائل الخلافية فى المذاهب . والوقائع فيها كثيرة ورجال المحاكم فيها مضطربون . وكالزوجة يتركها زوجها بلا منفق أو يغيب عنها الغيبة الطويلة وتنقطع أخباره . أو يكون معروف المقر ولايمكن الوصول إليه لو حكم عليه بالنفقة . أوكان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة أو السجن لمدة طويلة وتخشى على نفسها الفتنة أولا تجد ماتنفق منه ولا من تستدين منه على حساب الزوج . ومثلها التى يكون زوجها حاضراً ولكنه لاينفق عليها وهى مضطرة لما تنفق منه ، وكذلك التى يضارها زوجها فى العشرة . فجميع ذلك مما عمت به البلوى وكثرت فيه الشكوى من جميع أنحاء البلاد ، وكثير من النساء يبحن

أنفسهن افتتاناً أو اضطراراً للقوت لأنهن لم يجدن السبيل إلى دفع الضرورة أو المخلص من الفتنة فى المحاكم الشرعية على حالتها التى هى عليها الآن .

أليس من الواجب أن نفزع إلى الشريعة الإسلامية المطهرة لنجد فيها الوسيلة إلى وقاية الأعراض والأنفس مع أن المحافظة عليها من أهم مقاصد الدين الإسلامى والشريعة السمحة ولاتعدم فى نصوصها وسيلة إلى أهم ماجاءت له . .

كل ذلك يجب أن يوضع بين يدى (لجنة من العلماء) ليستخرجوا من الأحكام الشرعية مافيه شفاء لعلل الأمة فى جميع أبواب المعاملات خصوصاً مالا يمكن النظر فيه لغير المحاكم الشرعية ، من الأحوال الشخصية والأوقاف ، ويكون مايستخرجونه كتاباً شاملا لكل ماتمس إليه الحاجة فى تلك الأبواب ويضم إلى مايستخلص فى أبواب المرافعات الشرعية ويصدر الأمر بأن يكون عمل القضاة عليه . فإذا غمض عليهم أمر راجعوا فيه من يكون فى وظيفة إفتاء الحقانية أو الديار المصرية — وعليه أن ينظر بنفسه أو مع لجنة العلماء حسب الحاجة) .

* * *

والشيخ بهذا يصحح الفساد الذى عجز نابليون عن إلحاقه بالأمة ، وقدر عليه الإنجليز . لقد احتل القاهرة فى ٢٢ يوليو سنة ١٧٩٨ وألف ديوانها فى ٢٥ يوليو وكان أول المواضيع التى عرضها على الديوان أربعة . منها اثنان عن نظام القضاء والشريعة . ورفض الديوان فى أول جلسة (١٧٩٨/١٠/١١) إحداث أى تغيير ، وفى سنة ١٨٧٥ أحدث نوبار التغيير المطلوب فى الأمرين . فجاء بقانون نابليون ومحاكم مختلطة أغلبية أعضائها أوربيين ، وفى سنة ١٨٨٣ فرض الإنجليز — بعد عام من احتلال البلاد — قانون نابليون على المحاكم الوطنية ! !

والشيخ يعيد للأذهان وجوب تنفيذ قرار الوزارة الدستورية التى رأسها شريف باشا سنة ١٨٨١ بوضع قانون للمعاملات من الشريعة أحيل وضعه على قدرى باشا (١٨٨٦)[1] فوضع كتاب مرشد الحيران ، واختفى الكتاب بعد الاحتلال البريطانى فأمر على مبارك بطبعه فطبع ووزع على التلاميذ لينقله إلى الأجيال المقبلة شباب غُلب آباؤهم على شريعتهم !

* * *

وفى سنة ١٩١٥ تألفت لجنة يرأسها وزير العدل لتنفيذ التقرير فيما يتعلق بالمحاكم الشرعية ، وفى سنة ١٩٢٠ صدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٠ وفيه بعض الأحكام من مذهب مالك وفى سنة ١٩٢٦م

---

(١) ناظر الحقانية عندئذ وأحد خريجى مدرسة الألسن . وقد صارت مدرسة الحقوق سنة ١٨٨٦ . قبل ترجم خريجوها ألف كتاب إلى العربية .

تألفت لجنة اقترحت إصلاحات منها تقييد الزواج بأكثر من واحدة فلم يقبل اقتراحها وإنما صدر القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ على هدى مقترحات الشيخ للأخذ من أكثر من مذهب . وكان تقريره الطلاق للضرر فتحاً مبيناً على المسلمين[١] .

وفى سنة ١٩٤٧ طالبت لجنة من محكمة النقض ومن الأزهر تقنين قانون مدنى من الشريعة .

وفى سنة ١٩٦٦ تألفت لجنة بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية لتجلية مبادئ الشريعة لتكون مصدراً للتقنين وأعدت اللجنة مشروع قانون للمعاملات من الشريعة . وفى سنة ١٩٧١ صدر الدستور وفى مادته الثانية (الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية والشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع)

وفى سنة ١٩٧٥ تألفت لجنة من رجال القضاء والأزهر والجامعات لمراجعة القوانين وفقاً للمنهج الإسلامى .

وفى يناير سنة ١٩٧٨ صدر قرار من وزراء العدل العرب فى مؤتمر الرباط بوجوب جعل الشريعة الإسلامية مصدراً رئيسياً أو وحيداً للتشريع . وفى آخر العام ألف مجلس الشعب المصرى لجاناً للغرض ذاته .

* * *

ومن حق تقرير إصلاح المحاكم الشرعية أن يشاد بمواجهة الإمام فيه مخاطر تعدد الزوجات فمن ذلك قوله (إنى أرفع صوتى بالشكوى مما يجمع الفقراء من الزوجات فى عصمة واحدة فإن الكثير منهم عنده أربع من الزوجات أو ثلاثة أو اثنتان وهو لايستطيع الإنفاق عليهن . . فأرى لصلاحها أن يلزم كل مأذون أن يسأل قبل عقد زواج أى رجل غير معروف بالثروة هل له زوجة أخرى ، فإن كان له فما هى الطريقة فى الإنفاق على زوجاته وأولاده ويثبت جميع ذلك فى ورقة العقد ، ثم يجب أن يحدد حد معين للثروة لمن يتزوج بأكثر من واحدة . . ذلك أدعى إلى تضييق دائرة الضرر . ولاشىء من أصول الشريعة يأبى ذلك . بل هو من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا أحق به من القادر عليه والحاكم هو أقدر الناس . ومن المعلوم فى أحكام الشريعة أنه متى تحقق أن الزوج لايستطيع الإنفاق على زوجته وأن الزواج يفسد أمر معيشته ويلجئه للخروج عن الحدود التى حدها الله له حرم عليه الزواج بلا خلاف . .)[٢] .

---

(١) يراجع مراحل فرض القانون الفرنسى الأصل على مصر فى مؤلفنا (نحو تقنين مدنى للمعاملات من الشريعة الإسلامية طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٤ .

(٢) تراجع مقتطفات من مقاله فى التعدد ص ١١٨ إلى ص ١٢١ .

ولما عرض إصلاح القضاء الشرعى على مجلس شورى القوانين وقد صار الإمام عضوا فيه ، أجازه المجلس وكان يعارضه القاضى التركى قائلا : (إن الشرع لا يحتاج إلى إصلاح) ، وحَجَّهُ الأستاذ الإمام بما صنعه الأتراك أنفسهم فقال : (أماكون الشرع نفسه لا يحتاج إلى إصلاح فسلم . لكنه فى كتبه التى فى أيدى الناس بعيد عن أفهام الخصوم . . ولا نطلب إلا عملاً سبقتنا إلى مثله الدولة العثمانية فى كتاب المجلة ، التى عليها العمل فى محاكمها المسماة (العدلية) ، وفى المحاكم الشرعية فى أبواب المرافعات جميعها . ولم يقل أحد إن الدولة فى عملها ذلك قد خرجت على الدين .

وأما مسألة امتحان القضاة فى لجنة من علماء الأزهر وانتخابهم بلجنة من كبار العلماء فيجب بيان مافيها لهيئة المجلس لأننى من اللجنتين . .

وأما لوائح المحاكم . .

وهذا الإصلاح ينحصر عندى فى أمور خمسة :

أولها : تقويم طريقة التعليم لعمال المحاكم الشرعية من قضاة وكتبة .

ثانيها : تعديل لوائح المحاكم الشرعية على وجه يكفل انتظام سيرها .

ثالثها : الاتفاق مع جماعة من شيوخ الحنفية : (إذ المحاكم تقضى بأرجح الأقوال من مذهب أبى حنيفة) على إيجاد طريقة لتقريب فهم الأحكام الشرعية . :

رابعها : وضع قاعدة لتنفيذ الأحكام الشرعية .

خامسها : ترقية مرتبات عمال المحاكم الشرعية وإلحاقهم بباقى موظفى الحكومة)

* * *

النيابة العمومية والقضاء :

وللشيخ أثر عظيم فى هيكل النظام القضائى ، إذ كان الإنجليز يسوقونه ، شيئاً فشيئاً ، ليصير إنجليزى النظام ، فقرروا إلغاء النيابة العامة وإحالة عمل النائب العام ووكلائه على القضاء ، وانعقد مجلس النظار لذلك برئاسة الخديو بناء على طلب اللورد كرومر ، ورأى اللورد أن يسأل المفتى فى ذلك مع بعد الموضوع عن اختصاصه ليفيد من تأييده . لكن الإمام أجابه بقوله : (إن هذا خطأ لايحتمل الصواب وضرر عظيم على عمل النيابة) وساق حجتين أولاهما مسلّمة وأخراهما تمس العصب الحساس للورد فتردعه قال :

(١ – إن رجال النيابة الذين يلغى عملهم من أرقى رجال البلاد علماً وعقلا ولساناً وقلماً .

٢ – وستتوجه همة من تلغى وظيفته ولايجد غيرها فى درجتها إلى الاشتغال بالسياسة فيتعبون البلاد

والمسئولين عن النظام تعبًا كبيرًا) .

قال اللورد كرومر : إن هذا كلام وجيه ونحن قد استشرنا كثيراً من العارفين بالقضاء والإدارة فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات بل وافقونا . وإن مجلس الوزراء سيجتمع الآن فى سراى عابدين برياسة الجناب الخديوى لتقرير هذه المسألة ولابد لإيقاف ذلك من ذهابى بنفسى إلى عابدين بعد إيذانهم بذلك فى التليفون .

وهذا الذى قاله الإمام قالته الأمة بعد نحو نصف قرن بمناسبة إلغاء المحاكم المختلطة سنة ١٩٤٨ . إذ قننت قوانين للإجراءات الجنائية تحل قاضى التحقيق محل النيابة ثم أدركت أن نظام النيابة العامة قد قطع أبعد الأشواط فى حمايتها .

فى الدستور :

ومن حق الأستاذ الإمام أن يذكر له فى هذا المقام قوله من ثلاثة أرباع قرن ، والإنجليز يحكمون كل صغيرة وكبيرة عندما استفتاه فى أواخر حياته المستشرق بلنت فيما يراه من دستور لمصر فرأى :

١ – أن يقيد «الدستور» الإنجليز والخديو .

٢ – أن يطلق يد الوزارة تحت إشراف مجلس النواب .

٣ – فإذا اختلفا عينت للفصل لجنة منه ومنها ومن مستشارين من محكمة الاستئناف .

٤ – أن يقتصر الدفاع عن مصر على الجيش المصرى .

فهو يقيد سلطة الحاكم ويطلق سلطة الأمة ويخضع الوزارة للشعب فى مجلس النواب ويشرك الوزارة ونواب الشعب فى حل الخلافات ويجعل القضاء ثالثهما ويلغى سبب وجود جيش الاحتلال وهو دعوى الدفاع عن مصر .

وهو منذ عهد الوقائع والعروة الوثقى يرى «السياسة» تفاعلاً كاملاً بين أعضاء جسم الأمة وأن الرأس أحوج إلى المشورة من سائر الأعضاء وأن مناصرة الحاكم فى السلم – بالشورى – واجبة وجوبها فى الحرب – بالسلاح .

أما طريقة الشورى فباقية على الأصل من الإباحة والجواز فكل طريق تتحقق بها المناصرة مشروعة ومن ذلك أشكال المجالس المنتخبة فى العصور الحديثة .

الباب الرابع

شيخ الإسلام

١٨٩٩ – ١٩٠٥

١٣١٧ – ١٣٢٣

(إن فى الإسلام من ضروب الهداية ما يعد من الأصول الخاصة بالإسلام كبناء العقائد فى القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار) .

محمد عبده

رأيتك والأبصار حولك خشّع   فقلت أبو حفص ببرديْك أم علىّ

بهذا التصور الدينى ، وتشبيه الأمام بعمر وعلى ، عبر حافظ ابراهيم عن الشعور العام يوم ولى الإمام الإفتاء بعد القضاء ، وله صلة بأبى حفص (عمر) فى شجرة النسب ، وعهد بعلى فى تصوفه ونهج بلاغته . وبهما معاً فى الفقه والقضاء . وهما القاضيان ، والمفتيان ، وإماما الاجتهاد فى الإسلام .

ولى الإمام الوظيفة بعد أن أقرت له الحكومة بحق العودة إلى وظيفة المستشار إذا أراد ، فاحتفظ باستقلاله فى الإفتاء لمجتمع صح منه العزم على إصلاحه :

لقد أجاءت الحملة الفرنسية مع ضباطها وعلمائها نساءهم ، لتشكيل مجتمع أوربى ومجتمع علمى (أكاديمى) فى المستعمرة (مصر) . وادعى نابليون فى منشور للمصريين أنه مسلم قدم ليرفع الظلم عنهم ، ثم عاجلته مقادير أوربا فرحل مذموماً لكنه خلف وراءه ذكريات مجتمع فيه تخليط .

ثم ولّى محمد على ضباط نابليون المسرَّحين قيادات جيشه وأسطوله وفتح نوافذ مصر واسعة لأصحاب الامتيازات وثبتت « مجالس التجارة » أقدامهم فتوسعت تجاراتهم فتقاطروا على الأرض الطيبة ، وفى حواشيهم دواعى الفتنة ، من شواطئ البحر الأبيض وجزره .

وأخيراً أقبل الجيش البريطانى سنة ١٨٨٢ بالفساد الأشد ، فنفقت بضاعة شُذّاذ الآفاق فى

الأسواق ، وانتشرت أخلاط من المهازات والمغامرات والتجارات تلتهم ثمرات كل شيء في مجتمع مسته الشياطين وصيّره الغزاة نهبة المنتهب .

كان التاريخ الهجرى هو التاريخ فوضع بجواره التاريخ الميلادى . ثم رفع تاريخ هجرة الرسول ! وكان الميقات عربيًّا فصار أفرنجياً ! واهتمت الحكومة بالآثار الفرعونية لينزح بها الأجانب إلى الخارج ! وطبقت القوانين الفرنسية على المصريين فى محاكمهم فلم تقدر على جعلهم أوربيين ولم تتركهم على حالهم ، فصاروا كالغرباء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وأعطى المتمصرون الفرنجة ، والمتفرنجون العرب ، معنى مرذولا لقول إسماعيل «نحن لم نعد أفريقيين نحن من أوربا » فغزا الخمارون اليونانيون والمرابون اليهود أقصى الأرض فى الدلتا والصعيد وتبجبحوا فى الريف والعواصم تحت أعلام المحاكم المختلطة فارتهنوا الملكية العقارية . وخالطوا الأسر وباعوها شهواتها ، فتكاثرت المسارح والملاهى وتناثرت الخمارات على قوارع الطرقات ، وألف أصحاب الثقافة والجاه ابتذال أنفسهم وتبديد أوقاتهم على الأرصفة ، وأُحل الميسر فى النوادى الخاصة وعلى مستوى الأمة تحت اسم «اليانصيب» . وفعل التقليد أفاعيله فخلع رجال ونساء ثوب الحياء وأمسك الكبراء بأذيال الغزاة الطويلة ولبس الآخرون أزياءهم القصيرة أو المثيرة . وتعرّى بعض على الشواطئ وتخنث كثيرون فى المراقص . وفتحت للرقص مدارس . واستوردت البيوت الناعمة مربيات للبنين والبنات من أوربا ! .

وأقيمت الحفلات الراقصة فى قصر الخديو ، ووصفها ووصف الخمر «شاعر البلاط» أحمد شوقى بدم بارد وضمير جامد [1] والشعراء يتبعهم الغاوون . والناس على دين ملوكهم . واختلط القراء بنجوم الغناء وتعاجم الناس فى بيوتهم ومعاملاتهم ، وتكلموا الفرنسية ، ثم الإنجليزية ، فى مدارس التبشير ثم فى كل مكان . وأصبح اللحن ظرافة والركاكة طرافة .

وطاولت الرءوس العارية أو المغطاة بالقبعات فى الوزارات والشركات والأوبرا والمسرح رءوساً عليها الطرابيش والعمائم ، وباهت الأجنبيات بأثواب تشف أو تصف أو تكشف المفاتن ، صواحبَ

---

(١) يقول أبو نواس :

حامل الهوى تعب   يستخفه الطرب

فيقول شوقى :

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

بل يقول : رمضان ولّى هاتها يا ساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق

حمراء أو صفراء ، إن كريمها   كالغيد . كل مليحة بمذاق

الحبرات والبراقع . والبراقع بين تركية بيضاء قصيرة أو مصرية سوداء طويلة ! وأصبح وجه المجتمع كهيئة « صندوق الدنيا »

وفى هذه البيئة الوبيئة سلط جيش الاحتلال وأعوانه من غير المصريين الإرهاب والإفقار والجهل والتفرقة على أمة منهزمة . ومكّنوا لأصحاب الخرافات ليستنيم الناس وينصرفوا إلى داخل أنفسهم ، يألمون ويجترون آلامهم . .

لقد قاوم المصريون الغزو الصليبى وانهزم الغزاة عنهم لأن المجتمع المصرى كان أعلم وأقوى وأقوم . لكن العلم والقوة والمال – اليوم – كلها أوربية . وبعوث الحكومة والأفراد تنزى إلى إنجلترا وفرنسا لتوضع فى أيديها مفاتح التغيير والتقليد إذ تعود .

واستطرد الإنجليز من جسم الجماعة إلى لسانها يريدون أن يقتلعوه بجعل اللغة الإنجليزية لغة التعليم فى المدارس . وإلى قلبها يريدون أن يقفوه بإلغاء المحاكم الشرعية ، فارتاع الرأى العام فعرضوا على مجلس الشورى مشروع قانون لتعيين مستشارين من المحاكم الأهلية فى المحكمة العليا الشرعية . فاستقال الشيخ حسونة النواوى من وظيفتى المفتى وشيخ الأزهر ولم ينثن الإنجليز إلا بعد أن رفضه مجلس الشورى بالإجماع .

* * *

أدرك محمد عبده ماتدركه الأمة كلما كرثتها كارثة ألا نجاة لها إلا بالرجوع إلى شريعتها والحفاظ على قيمها الذاتية ، وفى الأزهر قلاعها الحصينة ، وندب لمقاومة الفساد نفسه . لكن الخديو نفس بوظيفتى الشيخ حسونة عليه مجتمعتين ، وقصر تعيينه على وظيفة الإفتاء – وهو مجرد إبداء آراء – وعين الشيخ عبد الرحمن القطب النوواى شيخاً للأزهر سنة ١٣١٧ فمات بعد قليل فعين محله الشيخ سليم البشرى .

وأيقن العضو العامل فى مجلس الإدارة ، أن الخديو – وقد رفض تعيينه شيخاً للأزهر – إنما أراد أن يستبقى فى يده الأعنة فلا يرخيها للمصلحين . وشهد التاريخ أن الخديو يحرم المشيخة ومن يتولونها – لامحمد عبده – شرف مشاركتهم فى اللقب للعالم العامل ، الفارس المتصوف ، الراكض والناس يمشون ، المعطى مرتباته لمن يستحقون ، وإذا دعا لواحد من تلاميذه بخير التمس له مزيداً من الفاقة :

١ – يرونه بأعينهم فوق صهوة جواده قاصداً إلى المحكمة أو الأزهر من داره فى الناصرية . وهذه بقية الفروسية الأولى ، لكنها كذلك استمرار للبساطة الأولى واجتناب لأبهة المواكب وبيان للناس أن الشيخ يعايش قومه .

ولما قيل له إن المشايخ لايسيغون هذا أجاب : بل يليق بهم أن يكونوا كالغانيات يجررن الذيول ويتوكأن على السواعد عند الركوب والنزول . مثل (ستى هانم) !

٢ – ويراه الناس بين أظهرهم يسير على قدميه ، بعد دروسه المسائية عدة كيلو مترات فى الصيف والشتاء ليركب القطار من محطة كوبرى الليمون إلى داره فى عين شمس ، دون أن يستعمل وسائل الانتقال الفخمة الواقفة على باب الرواق العباسى فى انتظار تلاميذه ، فإذا ركب فعربة أجرة . وإذا سئل قال (إننى لو صرت خليفة المسلمين لما استكبرت عن عربات الأجرة ولا المشى عند الحاجة)

٣ – وقد يجيعه جهد النهار أو مجلس التدريس أو طول الطريق فيميل إلى دكان فيشترى علبة بسكويت فيأكل منها قضمةً قضمةً مع رفيق الطريق . قال له الرفيق : مفتى المسلمين يأكل فى الطريق ؟ قال : لأننى أجوع فى الطريق . نحن قد فاتنا عشاء الدار الآن .

وما كان الأكل وجبة طعام بل بضع قضمات بأطراف الأسنان وراء ستار الظلام .

لقد كان – رضى الله عنه – يأبى أن يوقظ أهل بيته حتى لا يشركوه متاعب تأخيره ، وأن يعجل برجوعه حتى لايضيع حقًّا للمسلمين .

٤ – ويكره كسوة التشريفة التى يلبسها المفتى فى احتفالات القصر فلا يدخلها داره . بل يودعها دار بنته زوج محمد بك يوسف وكانت فى جوار قصر عابدين . فإذا كان يوم «تشريفات» لبسها هناك وخلعها هناك .

٥ – وعاد من رحلته إلى السودان ونزل بالمنيا فشكا إليه قاض شرعى ازدياد عمله لكثرة دخول غير المسلمين فى الإسلام على يديه والتزامه تعليمهم الدين ، فقال له : يكفى أن تقول للمسلم الجديد : صل وزكِّ وصم وحج ! قال القاضى ليس بد من أن أعلمه الطهارة .

قال إمام المسلمين : قل له اغسل وجهك . وقال القاضى : لابد أن نعلمه حدود الوجه ليعرف من أين يبدأ وينتهى . .

قال إمام المسلمين : سبحان الله قل له يغسل وجهه . كل إنسان يعرف «حدود» وجهه من غير حاجة إلى «مسّاح» !

رواها لطفى السيد ليقارن بين العقليتين :

٦ – وأهدى حافظ إبراهيم ترجمته لكتاب «البؤساء» (لفكتور هيجو) (إلى موئل البائس ومرجع اليائس. فكان من رده على الهدية قوله له (تقول إن الذى وصل سببك بصاحب الكتاب اشتراكك معه فى البؤس . . سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما بدأ . وأن يجعلك فى بؤسك أغنى من أهل الثراء فى نعيمهم . والسلام) .

وحدث حافظ أن الإمام ، مع هذه الدعوة ، له أو عليه ، اشترى من (البؤساء) نسخاً يكفى ثمنها

حافظاً سنوات . لكن حافظاً كأستاذ كان معطاءاً لا يبقى على شىء ! يقول عنه عبد العزيز البشرى فى المرآة بعد عشرين عاما ونيّف .

[. . إذا طالت يده الألف (جنيه) جُن جنونه أو ينفقها فى يوم . . فهو مايبرح يطلب البؤس طلبا .. وتلك دعوة كانت للمرحوم الشيخ محمد عبده أحسب حافظا يحققها بيده إذا قصرت فى تحقيقها الأيام] . .

٧ – قال له ذات يوم : إن لك أعداء كثيرين فأجابه : ولم «تنسى» أصدقائى يا «حافظ» ! هل تعلم أحداً له مالى من الأصدقاء ؟ فتذكر «الحافظ» وقال اللهم لا

* * *

بهذه النفس الحانية ، والتوكل والخشوع والتقشف والعقل المتفتح ، بدأ الشيخ مرحلة الذروة فى حياته متطوعاً متبرعاً ، يتصدع قلبه من خشية الله ، ويتفصد جبينه عرقاً ، ليختم حياته كما بدأها مع القرآن ، فى حلقة بالأزهر .

ونُشر سجل الدروس الشهيرة فى تاريخ الأزهر ، وعاد الشباب للجامع الألفى العمر ، على مدار أيام خمسة فى كل أسبوع . فى كل يوم ساعتان . للتفسير درسان . ولأسرار البلاغة المكملة للتفسير ثلاثة .

فصل فى (المفسر)

نحن الآن فى الجامع الأزهر : ألف عام – إلا شيئاً – تفتح صدرها لإمام أعمالٍ وأقوالٍ ، يدخل التاريخ العلمى من أعظم أبوابه ، بابى القرآن ولسانه العربى . ويضرب الأمثال من نفسه فى منبر التدريس ليشهده الجميع فيبذلوا قصاراهم . . قادم من ميادين العظائم ، وحضارات ثلاث قارات ، ومحتنى حرب وسلام ، ومن التأليف والتعليم والقضاء والإفتاء ومجلس إدارة الأزهر ! قدم ليرقى المعراج الأعلى ليفوق نفسه ، فيتكلم عن الله ، بعد قرون لم يتصد للتفسير فيها أحد .

البلاغة عنده (منتهى الكمال فى إصابة الحق بالدليل مع شىء من حسن الأسلوب وجودة التأليف فى اللفظ) وهو إمام بلاغة ، يعلم أمته المعنى القرآنى وأسرار لسانه العربى ، وما فى نظمه من جمال وجودة ، والقرآن حق ودليل حق . يوقظ النفوس لتتطهر وتقاوم الخطر ، ويحرك الأفكار للابتكار واستباق التقدم .

ولا أحد ، كالإمام ، يستطيع أن يهز أنفس الناس بمعانيه وألفاظه ويجمع بين الفحوى القرآنى

ووجدان العصر وعقول البشر. وهو القائل (إن الإسلام. قد قاضاك إلى العقل ، ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته) . ولا أحد كمثله يستطيع أن يؤلف بين المنقول والمعقول أو يرفع مشيخة الإسلام إلى مستوى تفسيره .

ولئن يَسُرت عليه المقاومة المنظمة للعدو ، إذ يحمل رايات الجمعية الخيرية الإسلامية ، إنها لأقصد وأبعد من إسخاط العدو وأوسع مدى فى الإصلاح عندما تكون درساً فى أسرار البلاغة وإعجاز القرآن وتفسيره .

لقد أنشأت الدولة الفاطمية الأزهر سنة ٣٦١ هـ لتنشر فقه الشيعة ، فصيرته مصر مدرسة لكل المذاهب. وصيرته فريضة الجهاد منطلقاً لمقاومة التتار القادمين من الشرق والصليبيين والفرنسيين والإنجليز القادمين من الغرب . وسيقاوم الشيخ فيه الاحتلال البريطانى بالكتاب والسّنة واللسان العربى والتاريخ الإسلامى ، وهذه مقومات الوجود العربى ، يضع بها أقدام قومه على الطريق ولديه المؤهلات :

فهو فقيه حنفى من (أهل الرأى) علاّمة فى العبادات والمعاملات وعالم لغوى وأديب مقطوع القرين [1] . وخبير بالسنة والسيرة ، وبالتاريخ الإسلامى والعالمى ، ودنيا الناس .

---

(١) لا يتسع المقام للكلام عن تبحر الإمام فى اللغة أو فى الأدب أو عن أسلوبه . وجملة القول إنه كان فى الذروة من كل ذلك منذ عهد الطلب ، ثم ازداد بدراسات المقامات ، ونهج البلاغة وأسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، كما فرض على نفسه وهو فى أعلى وظائفه أن يحضر امتحان طلاب دار العلوم وكانوا أمل اللغة العربية ولا يزالون .

وأسلوبه من أعلى أساليب اللغة العربية فى كل أعصرها . بلغةً مرحلةً فمرحله ، وإن شئت قلت سنة فسنة . ويتبّدى ذلك فى الفرق بين سجعه فى رسالة الواردات وبين ترسله الرصين فى الحاشية على شرح الدوانى ، وبين هذا وبين أسلوب الوقائع المصرية العصرى المترسل المنساب فى كل باب ، لتقتدى به الصحف .

وما هى إلا فروق سنوات خمسة فى بواكير الشباب تزداد جمالاً وكمالاً بالمعارف المكتسبة فى المواقف والمراكز المتنوعة ، وبخاصة ما أضافت إليه صياغة الأحكام من ضبط ودقة ، ودراساته الفرنسية المتعمقة ، وأسفاره فى القارات الثلاث ، من حلاوة وطلاوة تعلمها عليه المنفلوطى ومصطفى عبد الرازق وعبد العزيز البشرى ومصطفى صادق الرافعى ، ويمكن تتبع آثاره فى كتابتهم بكل وضوح . وأظهر مثل لأسلوبه (رحلة صقلية ، وترجمته الذاتية ، فى الشكل والمضمون . وقد استكثرنا من الشواهد منها فى هذا الكتاب . يسأله تلميذه حافظ إبراهيم وهو الشاعر الفحل فى اللغة العربية لبيان ما أعجزه بحثاً لدى المتخصصين من معنى قول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

فيجيبه منْ فوره :

(يريد أنهم إذا غضبوا سلّوا سيوفهم وأشرعوا رماحهم فكان بريقها كالهتك لحجاب الشمس التى يظهر به نورها ويتألق شعاعها إلى أن يمكنوها من صدور أعدائهم فتخرج وهي تقطر دماً ، ويخفى ذلك البريق . فالضمير فى قوله (أو قطرت دماً) عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهى معلومة بالقرينة)

والبيت أحد بيتين قيل فيهما لبشارين برد .

يقول الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر (أعتقد أنه إذا جاوزنا عصر السلف لانجد رجلا رزق فهماً فى هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الإمام محمد عبده. ولقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها كما منحه البصر فى أمور الدنيا. ومن الحق على المسلمين أن يترسموا خطواته للإصلاح الدينى إذا أرادوا إعزاز دينهم ورفعة أتباعه فى دنياهم . . .).

وإلى جوار الإمامة الدينية والبلاغة، منهجه العلمى بكمال التحرى والتحقيق، وأمانة الاستخلاص واستمرار التنقيح والتحقيق، والاستماع ممن خالفه - كما يشترط الإمام الشافعى فى المنهج العلمى ومحمد عبده هو القائل: (ما وعظك مثل لائم ولا قوّمك مثل مقاوم).

لقد أوفد مبعوثاً إلى اسطنبول لتحقيق نسخة من (أسرار البلاغة) جاءته من طرابلس الشام مع وجود النسخة التى درسها فى بيروت فى الثمانينات ليقدم الكتاب إلى مجلس الأزهر، وليستلفت إليه نظر الأمة بتقريظ نشره المنار - يقول فيه: (لم أر كتاباً فى هذا الفن لابقلم متأخر ولا متقدم يقرب من هذا الكتاب فى حسن الأسلوب وجمال المعنى ورونقه. وهو جدير بأن ينتفع به الأستاذ، ويقتطف منه التلميذ، وتزين به كل مكتبة فى مشارق الأرض ومغاربها)[1].

* * *

= إنك تجىء بالشعر المتفاوت. تقول شعراً نثير به النقع ونخلع القلوب:

إذا ماغضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلة ... ذرى منبر صلى علينا وسلما

وتقول:

ربابة ربة البيت ... تصبّ الخلّ فى الزيت
لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت

وأجاب بشار:

(لكل شىء وجه وموضع: الأول جد، والثانى قلته لجاريتى، فهى تجمع البيض وتحفظه وهذا عندها أحسن من (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) (لامية امرئ القيس).

وكان الإمام محسوداً على أسلوبه يقول: (يقولون إن ملكة البيان سهلة التحصيل وإنهم إن شاءوا لما أعجزهم أن يقولوا فيحسنوا، ويكتبوا فيجيدوا، لا وربك إنهم لأعجز شىء عن أدنى مراتب البلاغة، وإن أدمغتهم محشوة بشروح التلخيص وحواشيه وتقريراته، ولكنها خلو من ذوق البيان، بعيدة عن فهم أسرار البلاغة . . . إن فن الإنشاء عزيز المنال . .

قضيت فى تعلم الإنشاء خمسة عشر عاماً. وما أظن أن ملكة كانت تنضج فى أقل من هذا الزمن، مع حسن الاستعداد والأخذ بجد فى تحصيل الوسائل. والإكثار من التمرين).

ويقول للناشئين اقرءوا كتب الأدب، واحفظوا من مختار الشعر وجيد النثر، وحركوا أفكاركم وخيالاتكم . . .).

(١) أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للجرجانى منهجان يدرسان الآن فى السنتين الأخيرتين فى كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية.

ونحن الآن فى الرواق التاسع والعشرين ، أحدث أروقة الأزهر – أقيم فى سنة ١٨٩٨ بجوار الباب الغربى الكبير ، وسمى الرواق العباسى لبنائه فى عصر الخديو عباس – طبقات ثلاث :

فى الثالثة ديوان المفتى وفى الثانية غرف فيها حجرتا الطبيب والصيدلى .

أما الأولى فقاعة ذات محراب ، يغشيه رخام فيه رسوم نباتية . والأعمدة الاثنا عشر من رخام أبيض تحمل قبة مزخرفة مبرقشة ، والأرضية رخام أبيض ، مساحتها نحو خمسمائة متر مربع تسع نحواً من خمسمائة جالس متربع . يتوافد المتفقهة إليها من كل حدب أمام منصة متواضعة .

قدم الشيخ إليها تحيط به هالة من « طريقة الحياة » التى صيرته مألفاً للناس ، ميمون الصداقة مأمون العداوة ، مأمولا فى الحالتين . داره مثابة لذوى الحاجة ، وأخباره معلومات عامة للزملاء ، وهم العليمون بإسرار كل منهم وإعلانه ، كدأب أصحاب الحرفة الواحدة المتنافسين أو المتصادقين .

وللعلم عموماً ، والدينى منه خصوصاً ، كرامة يتضافر المسلمون فى الغيرة عليها ، وأضواء تستلفت المنظار الخاص الذى ينظر به الناس إلى العالم فيكبره ويصغره فى تناسب عكسى مع حبه للدنيا وزهده ، أوكبر ماله وصغره ، أو يسر حاله وضنكه .

والشيخ صوفى يخاف الترف فيفرق فى الناس كل ما ازداد عن نفقته ويسكن داراً بالأجرة ، تصحبه تعاليم الشيخ درويش إلى بيروت وباريس والقاهرة . إذا أقلع عن تدخين الشيشة فى بيروت جعل ماكان ينفقه عليها صدقة . كل شيء فى داره يسيط وسريره من حديد . وزهده فى الطعام مشهور وهو القائل : (إن من ضعف الإنسان حاجته للطعام – لوددت لو أمكننى الاستغناءعنه)

وهو يدفع للمحتاجين ثلث مرتباته أو ثلثيها ، فله بحكم وظيفته مرتبات فى مجلس الأوقاف الأعلى ومجلس الشورى ومجلس إدارة الأزهر . يقرر لها مستحقين ويعطى وكيله كشفاً بهم ليوزعه عليهم – كما روى شاعر النيل حافظ إبراهيم .

* * *

والشيخ أعبد قومه لله يصفه الشيخ رشيد رضا ، وقد لازمه فى خصوصياته ، فيشهد الله بعد ربع قرن من وفاته على : (أن هذا الرجل أكمل من عرفت من البشر ديناً وأدباً ونفساً وعقلاً وخلقاً وعلماً وصدقاوإخلاصاً . . . الحقيق بلقب المثل الأعلى من ورثة الأنبياء فى هذا العصر) .

كان رضى الله عنه يختلف مع الفقهاء الذين يرون الخشوع والتدبر فى العبادة من الأمور « المستحبة » ومع المفسرين الذين يرون أن أكثر ما فى القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الإيمان خاصة « بالإيمان الكامل » ويرى أن هذه النظريات تفتح الأبواب للترخص وعدم محاسبة النفس على لوازم الإيمان .

والفقهاء يرون ذلك «فتوّة» المتصوفة وهو يراه من «واجبات الإيمان».

يقول الشيخ محمد بخيت[1] (المفتى اللاحق) (كنا دائماً نقدمه فيؤمنا فى صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه).

صلاته صلاة متصوف فيها خشوع الجامع مع الله ، فإذا لم يتيسر الخشوع وكمال الخضوع لصلاة الظهر جمع بين الظهر والعصر. وابن عباس يحدث أن النبى ﷺ صنع ذلك.

يقف كالوتد لصلاة التهجد فى منتصف الليل على قول أو فى ثلثه الأخير - على قول - حتى أذان الفجر ، إن مقيماً وإن على سفر ، حتى تعالت شكاة حافظ إبراهيم . وكان كثير الترحال معه . فقال : كان ينغص علىّ الليل بصلاته حتى آخر الليل . بل كان يضن علىّ بالنوم إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر فيطرق الباب ينادى (ياراقد الليل إلى كم تنام !).

وقد يدخل عليه رشيد رضا فى داره غرفة لم يكن يظنه فيها ، فيفاجئه مرآه (بيده كتاب ينظر فيه وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه تشرق بها وجنته وتتنطّف بها لحيته . . قلت ما هذا الكتاب ؟ قال سيرة النبى ﷺ . . كان تأثير سيرة النبى عليه الصلاة والسلام فى قلبه يلى تأثير القرآن الكريم)

وكان عَفُوًّا ، خصيصته الأولى خصيصة الشريعة الأولى وهى الرحمة : ومنها سماحته مع كتّاب المقالات والشكايات ضده[2] فإذا كدر الجحود الذميم صفوه ، كانت خدماته للجاحدين ترضيةً لنفسه عن نفسه . لقد ذهب فى يوم واحد إلى اللورد كرومر والخديو[3] وناظر النظار ليقيل عثرة عدو لاذ به .

والذين لايعرفون أسرار صنائعه يرون أخبارها بادية على وجوه العارفين .

تنبئك مرآته عن دخيلة نفسه : فتوة تشير إلى القوة التى تميز بها بين أترابه طول حياته . يرفض أن يقبل أحد يده ويصافح الناس منتصب القامة رافعاً رأسه . كأنما أحكم الخالق وضع الرأس بين الكتفين العريضين ليلفت النظر إلى جمال تكوينه ! ليس بالطويل البائن ولا بالقصير . سواء البطن

---

(١) كان من معارضى حركة الإصلاح التى يتزعمها الإمام . ولد سنة ١٨٥٤ - ١٢٧١ وتوفى سنة ١٩٣٥ - ١٣٥٤ وتخرج فى الأزهر وولى القضاء الشرعى سنة ١٢٩٧ وله مؤلفات قيمة . وهو أشهر من تولوا الإفتاء بعد الإستاذ الإمام وسيرأس سنة ١٩٢٢ لجنة إحياء ذكرى الإمام بمناسبة مرور سبعة عشر عاماً على موته .

(٢) قبض مرتبه فى مرة فى بيروت ثم عرف بموت والد لصاحب له فسلمه مرتبه . وبقى طاوياً أياماً لا يعرف مايصنع ، وإذا بحوالة قادمة من مصر بدين قديم بعث به مدين كان قد نسيه وكأنما جاءت لنجدته .

(٣) وأعداؤه عليمون بهذه الرحمة يقول لشيخ كبير كان يحقق معه فى حضرة شيخ الأزهر لأنه قدح فيه (إن سوء نتيجة تلاميذك تكفى لفصلك ولكن يغرك منى أننى أعلم أن عندك أولاداً كثيرين تغلب على قلبى الشفقة عليهم) وستقرأ كلمات عن رحمته بالناس وأبناء الكاشحين من أهل الأزهر فيما بعد .

والصدر واسع الصدر عظيم المنكبين ، مدور الوجه واسع الجبين ، أسمر اللون فى وضاءة . كث اللحية أبيضها ، له فودان أبيضان وعينان نفاذتان ، كأنهما شرارتان ، ترسلان البريق النفاذ إلى الأفئدة . ووجه كريم ، حلو التقاسيم ، يشيع الحنان والدفء من حوله . كأنه همسات رحمة ، يفتر عن أسنان لؤلؤية منتظمة . جاء سامعوه يتلمسون وقع الدرّ من فيه . وهو يتريث إذ يلقيه بين أيديهم ليلتقطوه .

أما لباسه فكما وصفه الشيخ رشيد رضا : نظيف غاية النظافة (فى ملبسه ومأكله وسرير نومه بدون أبهة . جبة وقباء من ذات الزيق للرقبة ليست زاهية اللون ولا لامعة كأصحاب الجاه ونعله كنعال الرجال العاديين لا العلماء)

* * *

لايجلس على الأرض بل يصنع صنيع الأوروبيين فيجلس إلى المنصة . ولايصنع صنيع الأزهريين فى عصره فيهز جزءه إذا تلا القرآن .

يقول الشيخ الترمانينى الوافد من حلب ليتلقى عليه : (كانت توضع له منصة فى وسط الرواق العباسى فيجلس عليها ويستقبل القبلة ويوضع بجانب المنصة كرسى مرتفع ، فوقه فانوس كبير داخله أربع شمعات – والقبلة منورة بكثير من نور الغاز الذى يجرى فى أنابيب خاصة – وترى الجميع جلوساً متربعين وكأن على رءوسهم الطير فلا تسمع لهم صوتًا ولانحنحة ولاهمهمة . . وكلهم آذان واعية وعيون محدقة إذا عرض لأحدهم إشكال فلا يجرؤ على أن يسأله فى الحال وإنما يؤخره إلى ما بعد انتهاء الدرس ، فإن الشيخ يجلس بعد انتهاء الدرس برهة قصيرة ليجيب على مايرد من الأسئلة .

أما كيفية إلقائه فلا يحدر فى كلامه ولا يسرع فى إلقائه . كان كلامه مقطعاً جملة جملة بلهجة فصيحة وبلاغة نادرة بحيث يتسنى للكاتب البطئ أن يكتب عليه ما يسمعه منه دون تصحيح . وكان جهورى الصوت .وكان فى أثناء قراءته يشير بسبابته اليمنى ويضم باقى أصابعه إلى كفه ويبقى السبابة منصوبة ثم يقبل بيده اليمنى ويعيدها كأنه يستعين بها على الإلقاء . .)

وأما السيطرة على الألباب ، والجرس الذى يستولى على الأنفس ، فيشهد بهما شيخان للأزهر لكل منهما قدم صدق فيما يشهد به ، فالشيخ المراغى – قاضى القضاة – يراه (مثلاً عالياً فى طريقة الإلقاء والتفهيم ، وفى العبارة الصحيحة النافذة إلى القلوب . وكان دائرة معارف ، يجد اللغوى فيها حاجته ، والفقيه رغبته ، والمتكلم بغيته ، ويجد علماء الاجتماع فيها تطبيق آى القرآن على معارفهم . وكانت صرخاته المدوية منبهاً للغافل ومحركاً للجامد) .

والشيخ مصطفى عبد الرازق – وهو الجميل الوجه ، العذب الصوت – يقول (وأشهد الله لقد

كان جمال الشيخ محمد عبده من الجنود التى سخرها الله لعبقريته . وكان صوته العذب المؤثر من الجنود التى سخرها لعبقريته أيضاً)

* * *

اكتظت القاعة الكبرى بالناس ، وتراصف الرجال فى ردهة الرواق حتى الباب ، وفى الحضور شباب وشيب جاءوا لسماع معانى القرآن وألفاظه من فم المجوّد القديم . وفيهم من الأزهر شيوخ كبار وصغار ومن أعيان البلاد ورجال القضاء والإدارة والتعليم ومجلس الشورى والجمعية الخيرية ، وقد يكون فيهم — مجتمعين أو منفردين — سعد أو قاسم أو حسن عاصم ، أو على فخرى أو الهلباوى أو لطيف سليم ، أو حسين رشدى أو عدلى يكن أو عبد الخالق ثروت ، أو أحمد حشمت ، أو فتحى زغلول ، أو محمد فريد ، أو عبد الكريم سلمان ، أو محافظ القاهرة محمد ماهر باشا (والد رئيسين للوزارة فيما بعد على ماهر باشا وأحمد ماهر باشا) أو ثلاثة سيرشحهم للقضاء فى السودان : هم الشيوخ محمد شاكر ومحمد هارون ومحمد مصطفى المراغى الذى سيرأس المحكمة العليا الشرعية بمصر ويلى مشيخة الأزهر ، أو أستاذان سيرشحهما للتدريس بكلية جوردون فى السودان هما محمد الخضرى وعبد الوهاب النجار ، وسيملآن الدنيا علماً فى الجامعة المصرية ، وقد تجد عبد العزيز جاويش لسان الحزب الوطنى وقلمه ، أو إسماعيل صبرى [1] المحافظ الشاعر ، أو محمد صالح المستشار ، أو المؤرخ الكبير أحمد تيمور ، أو أستاذينا محمد زيد الإبيانى وأحمد إبراهيم (أستاذى الشريعة فى مدرسة الحقوق) . أو الشيخ مصطفى العنانى أو حفنى ناصف وكلاهما صحح أصول الطبعة الأولى للمصحف المتداول بمصر من سنة ١٣٣٧ هـ ، أو شيخنا على سرور الزنكلونى الذى ستلهب خطبه الأزهر سنة ١٩١٩ ويتخرج فى مدرسته محمود شلتوت شيخ الأزهر . أو طه البشرى وعبد العزيز البشرى ولدى شيخ الأزهر ، أو عبد الرحمن قراعة المفتى اللاحق ، أو محمد عز العرب نقيب المحامين الشرعيين فيما بعد ، ودائماً نجد حافظ إبراهيم ومصطفى لطفى المنفلوطى وعبد المحسن الكاظمى .

وأخيراً جاء فتى غض الإهاب هو مصطفى عبد الرازق ثم لحقه أخوه على .

أما رشيد رضا فهو التلميذ صاحب (مجلة المنار) التى تنشر التفسير ، وهو بذلك يدون بين

(١) رجع من بعثته ثم تدرج فى مناصب القضاء حتى صار مستشاراً ومحافظاً للإسكندرية ، ولما عزم مصطفى كامل على إلقاء خطبة بالإسكندرية نبهت الداخلية على المحافظ بمنعها صيانة للأمن ، فرفض منعها وتعهد شخصياً بصيانة الأمن . ونقل بعد ذلك وكيلاً لنظارة الحقانية ، فكان دائم التردد على مصطفى كامل فى دار اللواء . وهو الشاعر الشهير ومراثيه لمصطفى كامل سنة ١٩٠٨ ولفريد سنة ١٩١٩ من غرر الشعر ، وكان صديقاً حميماً لمصطفى وفريد ، توفى سنة ١٩٢٣ عن تسعة وستين عاماً .

المدونين ومثله على ذو الفقار المستشار[١] ومحافظ القاهرة فيما بعد ، لكن رشيد رضا يعرض ما يدونه فيما بعد ليقول فيه الشيخ الكلمة الأخيرة فيدفعه إلى المطبعة .

* * *

والشيخ مكيث متريث . فسر سورة العصر فى سبعة أيام وهى سورة ثلاثية الآى بين ثلاث مثلها هن أقصر سور القرآن . وهو سريع البادرة مليح النادرة . فى طبعه ذلك المزاج الرفيع من الثقة بالله ، التى تهب القوة وما يقابلها فى الأنفس العظيمة وهو الرحمة ، ومن الحلم والأناة اللذين يحبهما الله ، ومن البديهة الحاضرة . لاتفرط الفرطات على لسانه إذا بغتته مسألة بل يتبادر ليشرح صدور الحضور :

دخلت درسه فتاة فى نحو الثانية عشرة تتخطى الصفوف لتسر إلى أبيها كلمات وخرجت . وبهت السامعون فسكت الشيخ هنيّة ، ثم قال : (يظهر دى المرأة الجديدة اللى بيقولوا عنها فى الصحف) .

وقيل له يوماً : فلان حفظ صحيح البخارى . قال : لقد زادت نسخة فى البلد .

يجلس جلسة المتواضع الخاشع . وفى ذهنه تفاسير الطبرى (٣١٠) وابن عطية (٥٤١) و البيضاوى (٦٨٥) وابن كثير (٧٧٤) وتفسير الجلالين[٢] (المحلى (٨٥٣) والسيوطى (٩١١)) وأبى السعود (٩٨٢) والزمخشرى[٣] يتوسع فيما أغفله السابقون ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث اللغة – فللغة درس مستقل – كما يختصر فى الروايات التى لا يتوقف على فهمها إدراك معانى الآيات ، ويتوكأ فى بعض الأحايين على عبارة تفسير « الجلالين » أو غيره يقرؤها وينقدها إن استحقت نقداً . ثم يتكلم بما فتح الله عليه مما يحتاج إليه الناس للهداية والعبرة .

ولئن كانت ثقافات الحاضرين شتى ودرجات عملهم متباينة إن الشيخ مربٍ صقلته التجارب ، تخاطب نفسه أنفس سامعيه بمعانى آيات تخاطب الفطرة والعقل معاً ، وهما لا يفتآن يتجددان ويجددان .

ولكلام خالقها – جل ثناؤه – إعجاز يسيطر على العقول بمعانيه التشريعية والتهذيبية وألفاظه

---

(١) كان عضو يسار فى دائرة الاستئناف مع سعد زغلول . وقيل إنه كان ثالثاً لسعد وقاسم عندما رفضا التصديق على القانون الجديد ، ثم انضم بعد قليل للأغلبية التى قبلت القانون .

(٢) أولهما الجلال المحلى (٨٦٤ هـ – ١٤٥٩ ميلادية) نسبة إلى المحلة إحدى حواضر الوجه البحرى بمصر . اشتغل ببيع الحرير ثم انصرف للعلم .

وثانيهما الجلال السيوطى (٩١١ هـ – ١٥٠٥ ميلادية) نسبة لأسيوط إحدى حواضر الصعيد بمصر . له ٥٠٠ مؤلف أو أكثر .

(٣) سأله رشيد رضا إذ كان تلميذاً بطرابلس ، والشيخ يصطاف فى لبنان – وهو مستشار – عن أنفع التفاسير فقال : الكشاف للزمخشرى (لدقته فى تحديد المعانى ونكث البلاغة بالعبارة الدقيقة المختصرة . وما فيه من نزعات الاعتزال لا يخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة) وظاهر أن أساس التفضيل أساس البلاغة .

وعباراته ، بل حروفه وموسيقاها ، تجد كل نفس فيه ما ترتجيه من البلاغة أو الفصاحة أو الحلاوة أو الطلاوة .

ومن تجاوب الفطرة مع القرآن فتح أمثل الناس فطرةً القارات الثلاثة فى ربع قرن من هجرة صاحبهم ﷺ . وقال سالم مولى أبي حذيفة يوم استحر القتل بالقراء يوم اليمامة (بئس حامل القرآن أنا إن أُتيتم من قِبَلى) وحفر لرجليه حتى بلغ أنصاف ساقيه وظل يحمل الراية حتى استشهد . ومن بعد هذه المعركة انطلق المسلمون بجيوشهم فى الشرق والشمال والغرب والجنوب .

ونبع الهدى فى القرآن زخار لا يتوقف ولا ينحصر .

سئل الإمام جعفر الصادق لم صار الشعر والخطب يُملّ ما أُعيد منهما ، والقرآن لا يمل ؟ فأجاب (لأن القرآن حجة على أهل العصر الثانى كما هو حجة على أهل العصر الأول ، فكل طائفة تراه عصراً جديداً . ولأن كل امرئ فى نفسه متى أعاده وفكر فيه تلقى منه فى كل مدة علوماً غضة) .

وطعم معه أبو حنيفة ذات يوم فرآه يرفع يده حمداً لله ويقول : (اللهم هذا منك ومن رسولك) قال أبو حنيفة : أجعلت مع الله شريكاً ؟ فأجابه : إن الله فى كتابه يقول : [وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله] .

قال الإمام الأعظم لأهل السنة : (لكأنى ما سمعتها إلا الساعة) .

* * *

ولئن ظهر من عمل إمام الشيعة وإمام أهل السنة أن القرآن أهدى إذ يسمع ، وأجدى إذ يتلوه إمام ، إن مدى الهدى لأوسع عندما يفسَّر للجماعة .

روى الشيخ رشيد رضا أنه اقترح على الإمام أن يضع تفسيراً للقرآن فأجابه :

(إن القرآن لا يحتاج لتفسير كامل من كل وجه فله تفاسير أتقن بعضها ما لم يتقنه الآخر ، ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات . ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل . ثم إن الكتابة لا تفيد القلوب العمى وإنما تفيد القلوب المتيقظة العالمة بوجه الحاجة إليها . ورأيى أن الكلام المسموع يؤثر فى النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء ، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشاراته ولهجته فى الكلام كل ذلك يساعد على فهم مراده) .

وشتان ما بين اقتراح التلميذ واقتراح الإمام : الأول يتغيا التأليف العلمى المجرد ، والثانى « يصنع » الأثر العلمى المرجوّ فى أمة قوامها « عمل » المسلم بعقيدته والدعوة إليها .

وفى اجتماع الطلاب لتدارس أصل الإسلام ، فى القرآن ، بين يدى الإمام ، إحياء لقوة يبددها التقاطع ، وتعاضد فى الاتجاه إلى الله . ومن ذلك كان النبى عليه الصلاة والسلام يفسر الآى ، إذ

تنزل ، لصحبه مجتمعين فى المسجد .

وشتان ما بين قراءة التفسير فى كتبه ، وإلقائه على أنفس متحابّة مشرئبة للاستقبال والتلقى ، تحملها أذواقها على التشوف للمعنى العظيم الذى يدلى به المفسر القدوة ، كهيئة الصلاة الجامعة خلف إمام ، أو الحجيج حول البيت الحرام . فإذا انفرط العقد تفرقت الجماعة بالفحوى الكريم تهتدى وتهدى به ، وبالسلوك الذى عاهدت الله عليه ، لتجعله مجعل عهود جديدة بين الناس .

والتدريس فعل يفعله صاحبه فى قرائح سامعيه كما ينفعل بأحاسيسهم فى إبانه فيكافئهم بأمور غضة كما يعبر الإمام جعفر الصادق ، ومعان يضىء بها وجه الزمان .

وفيما أسلفنا من أسماء الحضور مصداق ذلك . فهؤلاء رجال قد تأثرت بهم الأجيال فى أطوار تحتاج إلى تذكيرها بما ينبغى لها . وفى ذلك بعض قول الإمام (الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات)[1] .

دروس التفسير على هذا ، بدايات جهاد جماعى جديد ، كان الإمام -كدأبه- أول العاملين فيه .

كأنما كان رحمه الله ينظر بنور الله إذ أشار إلى أن العمر لا يتسع لتفسير كامل . فكذلك أرادت السماء . إذ لم تزد الدروس عن سنوات ستة من المحرم ١٣١٧ حتى المحرم ١٣٢٣ فقضى الإمام فى جمادى الأولى من تلك السنة . ولم ينقص التفسير عن الأجزاء الخمسة الأولى إلا شيئاً . وتوقف عند الآية ١٢٥ من سورة النساء [ومن أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهَه لله وهو محسنٌ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا] .

أجل : توقف حيث شاءت السماء أن تحييه بما حيت به أبا الأنبياء :

أما تفسير الجزء الثلاثين فألقاه فى بيروت والجزائر ، كما قدمه ليدرسه تلاميذ الجمعية الخيرية الإسلامية .

ولم يقف رشيد رضا حيث وقفت الحياة بالإمام بل أكمل التفسير وأطلق عليه « تفسير المنار » .

وفيما يلى نقول مما يأذن به المقام وما قد يجزئ فى الدلالة على اتجاهاته بوجه عام فى أمور بذاتها فى العقيدة والسياسة والاقتصاد والاجتماع نستفتح منها بفاتحة الكتاب .

وقد وضعنا لها عناوينها :

---

(١) وقول الشيخ المراغى عن أثر هذه الدروس [ترك بذور الإصلاح والتعليم الدينى وتعليم علوم العربية وبذور إصلاح القضاء الشرعى وبذور إصلاح المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية] .

وحدة الدين – أصول خاصة بالإسلام – أنواع الضلال

قد أرشدتنا هذه الكلمات الوجيزة (وإياك نستعين) إلى أمرين عظيمين هما معراج السعادة فى الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الأعمال النافعة ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا . لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفه حقه أو يخشى ألا ينجح فيه ، فيطلب المعونة على إتمامه وإكماله . فمن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب من أحد المعونة على إمساكه . أما من وقع تحت عبء ثقيل يعجز عن النهوض به وحده فإنه يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة فى الاستقلال به .

وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك ، وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذى يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الأغيار ، ويفك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين والشيوخ والدجالين ، ويطلق عزائمهم من قيد المهيمنين الكاذبين من الأحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حرًّا خالصاً وسيداً كريماً ومع الله عبداً خاضعاً ، [ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً] . .

(ومن هنا نعرف أن الذين يستعينون بأصحاب الأضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير ذلك من المصالح ، عن صراط التوحيد ناكبون وعن ذكر الله معرضون) .

وفى تفسير : [صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين] يقول بين ما يقول (. . ومنها سؤال : كيف يأمرنا الله باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وإرشادات لم تكن عندهم ، وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده ؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد . وإنما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان . وأما الأصول فلا خلاف فيها . . فالاعتقاد بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستوٍ فى الجميع . وأزيد هنا أن فى القرآن من ضروب الهداية ما قد يعد من الأصول الخاصة بالإسلام ، كبناء العقائد فى القرآن على البراهين العقلية وبناء الأحكام الأدبية والعملية على قواعد المصالح والمنافع ودفع المضار ، وكبيان أن للكون سنناً مطردة تجرى عليها عوالمه العاقلة وغير العاقلة ، وكالحث على النظر فى الأكوان للعلم والمعرفة بما فيها من الحكم والأسرار التى يرتقى بها العقل وتتسع بها أبواب المنافع للإنسان . وكل ذلك مما امتاز به القرآن . والجواب فى هذا أنه

تكميل الأصول الدينية الثلاثة التى بعث بها كل نبى مرسل وجعل بناؤها رصيناً مناسباً لارتقاء الإنسان . أما تلك الأصول وهى الاعتقاد الصحيح ولو بالتسليم وعبادة الله تعالى وحسن المعاملة فهى التى لا خلاف عليها) .

* * *

ويقول : والضالون على أقسام :

القسم الأول : من لم تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق إلى النظر ، فهؤلاء لم يتوافر لديهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل من الحس والعقل وحرموا رشد الدين . فإن لم يضلوا فى شئونهم الدنيوية ضلوا لا محالة فيما يطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى . . . على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة وما به يسعدون فى الدنيا والآخرة ، فمن حرم الدين حرم السعادتين . أما أمرهم فى الآخرة فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم . وقد يعفو الله عنهم . وهو الفعال لما يريد .

وأزيد فى إيضاح هذا أن الذين حرموا هداية الدين لا يعقل أن يؤاخذوا فى الآخرة على ترك شىء مما يعرف بهذه الهداية . وهذا معنى كونهم غير مكلفين . وعليه جمهور المتكلمين . لقوله تعالى فى سورة الإسراء [وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا] . . . وما يعطيهم الله تعالى إياه فى الآخرة على حسب حالهم فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة يكون جزاء عادلا على أعمالهم الاختيارية ويزيدهم من فضله إن شاء .

القسم الثانى : من بلغته على وجه يبعث على النظر فساق همته إليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق إلى الاعتقاد بما دعى إليه ، وانقضى عمره وهو فى الطلب ، وهذا القسم لا يكون إلا أفراداً متفرقة فى الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء فى حياتهم الدنيا . أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الأشاعرة إلى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى .

وينقل هذا الرأى مثله من أبى الحسن الأشعرى . وعلى رأى الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضى بحظه من الجهل .

القسم الثالث : من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم فى فهم ما جاءت به أصول العقائد . وهؤلاء هم المنحرفون فى اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وماكان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول . . وإنى أشير إلى طرف من آثارهم فى الناس : يأتى الرجل إلى دوائر القضاء فيستحلف بالله تعالى وبالمصحف الكريم وهو كلام الله القويم أنه

مافعل كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية فى وجهه فيأتيه المستحلف عن طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم الولاية فيتغير لونه ثم تضطرب أركانه ثم يرجع فى أليّته ويقول الحق . . فهذا ضلال فى أصول العقيدة ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الأصلية لطال المقام .

القسم الرابع : ضلال فى الأعمال وتحريف للأحكام عما وضعت له . . ولنضرب لذلك مثلا الاحتيال فى الزكاة بتحويل المال إلى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضى قليل من الحول الثانى حتى لا تجب فيه الزكاة وظن المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة .

ثلاثة أقسام من هذا الضلال أولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها فى الأمم فتختل قوى الإدراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الأعمال ويحل بها الشقاء . . ويسلط عليها من يستذلها ويستأثر بشئونها ولا يؤخر لها العذاب إلى يوم الحساب وإن كانت ستلاقى نصيبها أيضاً . فإذا تمادى بها الغى وصل بها إلى الهلاك ومحى أثرها من الوجود . لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر فى أحوال من سبقنا . .

أما فى الأفراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة . . .

ثم يقول (فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالا على الفصول التى يفصلها القرآن تفصيلا . فكان إنزالها أولا موافقاً لسنة الله تعالى فى الإبداع .

وعلى هذا تكون الفاتحة جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما تقول إن النواة أم النخلة . فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة حقيقة ، لا كما قال بعضهم إن المعنى فى ذلك أن الأم تكون أولا ويأتى بعدها الأولاد) .

وعلى مثل هذا الفحوى يجتمع العلماء :

يقول الجلال السيوطى :

(افتتح سبحانه كتابه بهذه السورة لأنها جمعت مقاصد القرآن . لذلك كان من أسمائها أم القرآن وأم الكتاب والأساس فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال . قال الحسن البصرى : إن الله أودع علوم الكتب السابقة فى القرآن. ثم أودع علوم القرآن فى المفصل[1] ثم أودع علوم المفصل فى الفاتحة . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة . أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان ، وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشرى . . . وقال البيضاوى وهى مشتملة على الحكم النظرية والأحكام العملية . . وقال الطيبى هى مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التى هى مناط الدين . . قال : وجميع القرآن تفصيل لما أجملته الفاتحة فإنها بنيت على إجمال ما يحويه القرآن مفصلاً ، فإنها واقعة فى

(١) حزب المفصل يبدأ من سورة محمد إلى آخر القرآن .

مطلع التنزيل . والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الكلام لأجله . ولهذا لا ينبغى أن يقيد شىء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق) .

التكافل الاجتماعى

ويستمر الإمام فى تقديم الدواء الذى تطبّ به السماء لأدواء عصره بالقاعدة الأساسية فى الشريعة وهى أن تعيش « وتجعل » غيرك يعيش . لا أن تعيش « وتترك » غيرك يعيش أولا يعيش أو أن تعيش وحدك .

لنقرأ تفسير الإمام فى سورة الفجر (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونَعَّمه فيقول ربى أكرمنِ . وأما إذا ما ابتلاه فَقَدَر عليه رزقَه فيقول ربى أهانَنِ . كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراثَ أكلا لمًّا وتحبون المال حبًّا جمًّا) .

يقول (وأنت ترى أحوال الناس إلى اليوم لا تزال كما ذكر الله فى هذه الآية الكريمة فإن أرباب السلطة والقوة يظنون أنهم فى أمن من عقاب الله ، ولا يعرفون شيئاً من شرعه يمنعهم عملا مما تسوق إليه شهواتهم . . والفقراء الأذلاء قد صغرت نفوسهم عن أنفسهم فهم لا يبالون بما يفعلون ، وإذا ذكروا الله فإنما هى حروف وأصوات لا تمتاز فى شىء عن أصوات بقية الجمادات .

يقول (كلا بل لا تكرمون اليتيم) إلخ أى لو كان غنيكم لم يعمه الطغيان ، وفقيركم لم يطمس بصيرته الهوان . . . لوجدتم الشفقة تحرك قلوبكم إلى « التعاون» على طعام المسكين الذى لا يجد ما يقتات به مع العجز عن تحصيله . . .

وإنما ذكر التحاضّ على الطعام ولم يكتف بالإطعام فيقول ولم تطعموا المسكين ، ليصرح لك بالبيان الجلىّ أن أفراد الأمة « متكافلون» وأنه يجب أن يكون لبعضهم على بعض عطف . بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع التزام كلٌّ لما يأمر به وابتعاده عما ينهى عنه .

ثم إن إهمالكم أمر اليتيم وخلو قلبكم من الرحمة للمسكين لم يكن عن زهد فى لذائذ الحياة الدنيا كما هو شأن بعض من يسأم الحياة ولا يكون له هم إلا بالتخلص من متاعبها ، فيعكف على شأن نفسه وينخزل من العالم ولا يهتم بشئونهم ، بل إنكم مع ذلك تأكلون التراث أكلا لمًّا . والتراث الميراث واللم الشديد كما ذهب إلى ذلك جمهور اللغويين . ولا حاجة لتفسيره بمعنى الجمع ثم ارتكاب التأويل . أى أنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم وتشتدون فى أكله حتى تحرموا صاحب الحق من حقه ، (وتحبون المال) مطلقاً ميراثاً أو غيره (حبًّا جمًّا) أى كثيراً . . فشرهكم إلى المال

وقَرمكم إلى اللذات ، وانصراف أنفسكم إلى التمتع بها وشعوركم بمقدار الحاجة إلى المال فى تقويم شئونكم ، ثم قسوة قلوبكم وشلل وجدانكم إلى حد لا يألم لحال المسكين . . . كل هذا دليل على أن ما تزعمونه من اعتقادكم بإله يأمركم وينهاكم وأن لكم ديناً يعظكم زعم باطل) .

ويعود إلى التفصيل والتنبيه فى تفسير سورة البلد فيقول : (بعد أن أخبر الله جل شأنه بأن الإنسان خلق فى كبد لام الجاهل المغـرور على استغراقه فى غروره حتى كأنه يظن أن لن يقدر عليه أحد . . وبعد أن وبّخ المرائين الذين ينفقون أموالهم طلباً للشهرة أراد الله أن يبين لهؤلاء وأولئك أنه سبحانه وتعالى مصدر لأفضل ما يتمتعون به : البصر والنطق والعقل المميز بين الخير والشر والنفع والضر فهو مهدى ذلك إليهم . وهو القادر على سلبه منهم . وما أعجز من يفقد بصره ونطقه وعقله . .) .

* * *

ويقول فى تفسير (وأما بنعمة ربك فحدث) (أى أنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير فأوسع فى البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة فإن هذا من الفخفخة التى يجب أن يتنزه عنها النبى ﷺ .

ولم يعرف عنه فى امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقد أو عروض ولكن الذى عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً) .

ويقول ، ليحرك المستسلمين للمستبدين ، فى تفسير : (إن مع العسر يسراً) بعد (فإن مع العسر يسرا) ، (أعادها بلفظها فقال : (إن مع العسر يسرا) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقتها . قد تقع أمم أو أشخاص فى ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق . ثم يجدون الضعف من هممهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقابهم . . ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود . . ومن هذا تجد الأمم التى تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد ألفت ذلك حتى صار يصعب عليها أن تحتمل غيره ، ولا تزال تحن إليه ، وكلما طلب إبعادها عنه اندفعت بالإقبال عليه ، فهذا نوع من اليسر وإن كان أشأم من العسر. ولكن أليست النفس راضية به مطمئنة إليه ؟ . .) .

والشيخ يفسر الدين بأنه العمل بالدين .

يقول فى تفسير : (ويمنعون الماعون) (ثم أعاد ذكر الوصف الذى يتحقق به التكذيب بالدين مع الصلاة فقال : (ويمنعون الماعون) والماعون كل ما يستعان به . فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الأعمال إلا ما يرى الناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم

أو نقصاً يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم . . أولئك لا تنفعهم صلاتهم . . فخاصة غير المصدق بالدين التى يمتاز بها عن المصدقين – هى احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلدغهم آلام الحاجة ، وحب الأثرة بالمال ، والتعزز بالقوة ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس .

فهل نجد نصًّا أصرح من هذا فى تعريف التصديق بالدين ؟

فهل للمسلمين . . أن يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من أنفسهم بما يتلونه فى هذه السورة الشريفة ليعرفوا هل هم من قسم المكذبين أو المصدقين ، وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة التى لا أثر لها إلا فى ظواهر أعضائهم ، وبهذا الجوع الذى يسمونه صياماً ولا أثر له إلا فى عبوس وجوههم . . فلا يخرجون من الصلاة إلا وهم ذاكرون أنهم عبيد له يلتمسون رضاه فى رعاية حقوق براياه . ويجعلون من الصوم مؤدباً للشهوة . . ثم يؤدون الزكاة المفروضة ولا يبخلون بالمعونة فيما ينفع الخاصة والعامة !

أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ أفلا ينظرون إلى ما نزل بهم من الضعف والذلة وتسلط الأمم عليهم وانتقاصها أرضهم من كل جانب . « إن صورة الانتساب إلى دين لا تغنى عن اتباع هديه الصحيح » الذى يدل عليه النص بعد التواتر فى النقل وإجادة التدبر من العقل

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يقول الإمام (فمن الواجب على كل أمة تريد أن تنجو من الخسران أن تقوم بهذا الفرض وهو التواصى بالصبر .

فإذا طرأ على عوائد الأمة أو نزل بها من الحوادث ما يبغض إليها التناصح أو يحبب إليها التساهل فى فريضة التواصى كان ذلك إنذاراً بحلول الخسار ، ولا يجوز لأحد أن يتعلل بذلك التساهل إذا وقع من الأمة ويقنع نفسه بأنه عاجز عن النجاح فى نصيحته ، ولهذا يكفيه أن ينكر المنكر بقلبه . وبذلك ينجو من الخسران الأخروى إن لم ينج من الخسران الدنيوى كما يتوهمه بعض المسلمين اليوم خصوصاً أولئك الذين عرفوا بينهم بالعلماء . .

يحتج كثير من عامة أولئك العلماء بحديث : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه) . ولكنا نقول إنه لا يصح الاحتجاج به فى ترك « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» . فإن تغيير المنكر عند رؤيته شىء يتعلق بأمر خاص وهو المنكر المعين الواقع من الشخص المعين وقد يتسامح فى معاملة الشخص المعين فى حالة مخصوصة لشأن مخصوص . . ولكن

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لم ينحصر فى طلب تغيير المنكر فى هذه الحالة المحددة بل ذلك شامل للوعظ العام فى المساجد والطرق والأسواق والمنتديات وفى أوقات الاجتماع الخاصة ، وفى الحديث مع الأصحاب والأحبة وفى كل حال من أحوال الاجتماع خاصة وعامة . ومثل هذا يستطيعه كل واحد من الناس على حسبه . فلا يمكن لأحد أن يزعم أنه عاجز عن القيام بفرض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإطلاق) . .

قوم كانوا مع الله فكان الله معهم

يقول فى تفسير قوله تعالى : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) . (ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

(هذه أمة أنشأها الله عن قلة ورفع شأنها إلى ذروة العلى . . هال ظهورها الهائل كل نفس وتحير فى سببه كل عقل ، واهتدى إلى السبب أهل الحق فقالوا : (قوم كانوا مع الله فكان الله معهم . جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسننه فأيدهم بنصر من عنده) . . .

وماكان . . بتصور أن هذه العصابة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن فى نفوسها عقائد دينها . هذه الأمة الإسلامية يبلغ عددها اليوم زهاء أربعمائة مليون ومع ذلك ترى بلادها منهوبة وأموالها مسلوبة . . .

هذه الأمة التى كانت الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يدٍ وهن صاغرات استبقاء لحياتهن ، وملوكها فى هذه الأيام يرون بقاءهم فى التزلف إلى تلك الدول الأجنبية . . .

كيف لا نلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يغتصبون ديارنا ويستذلون أهلنا . . وهذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لايبذلون فى الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة . كل واحد يود لو يعيش ألف سنة وإن كان غذاؤه على الذلة . . إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً ، ويقولون فى إقدامهم حسبنا الله ونعم الوكيل . . ألا ياأهل القرآن لستم على شىء حتى تقيموا القرآن وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهى .

ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقرأوا منه : (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) . . . (أفلا يتدبرون القرآن أمْ على قلوب أقفالها) .

التأويل – التفويض – استقلال الإرادة وحرية الفكر

والشيخ يبسط آراءه فى الاعتقاد فى غير موضع . ومن ذلك رسالة التوحيد – وقد ارتقى بها علم العقائد فى العالم الإسلامى كما يقرر المؤرخون – وينادى بالرجوع إلى سلف الأمة حيث الوحدة الفكرية الكاملة فى الأصول وإن اختلفوا فى فروع . ينزهون الذات الإلهية عن المشابهة والجسمية والمكانية ويفوضون الأمر لله فيما يوهم التشبيه ولا يذهبون وراء ما يعنيهم من ظاهر النص . يقول :

(والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد : العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء ذلك فنزعات شياطين وشهوات سلاطين . والقرآن شاهد على كلٍّ بعمله . . وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به . فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك فى شىء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد . وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض إلى الله فى علمه . وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى) .

ويعلن حرية المسلم الكاملة وعدم خضوعه أو خضوع تفكيره إلا للخالق وحده فيقول : (تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من القيود التى كان يعقدها بإرادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها مشتقة من الإرادة الإلهية أو أنها هى – كإرادة الرؤساء المسيطرين أو إرادة موضوعة اخترعها الخيال ، كما يظن فى القيود والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء . . صار الإنسان بالتوحيد عبداً خالصاً لله . . ولا يقربهم من الله إلا طهارة النفس من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء . . ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة . . طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . أنحى الإسلام على التقليد . . . بهذا وما سبقه تم للإنسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر . . .) .

* * *

وربما ساغ لنا أن نختم تقولنا بحديثه عن لغة التاريخ إذ تنطق بحتمية انتصار الإسلام .

(سطع الإسلام على الديار التى بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلامه ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً ، وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار وكاد يتزحزح إلى ما وراءه . لكن الله بالغ أمره . فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً وحملوه إلى أقوامهم فعمهم منه ماعم غيرهم . جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة . لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية . . لم جاءوا وبماذا رجعوا . . ؟ استقر المقام بكثرة من هؤلاء فى أرض المسلمين . . . ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعةً مع كمال فى يقين ، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لا من العوادى عليه . ثم جمعت ما شاء الله من الآداب وانطلقت إلى بلادها قريرة العين . . .

ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى تيسيره . وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلاً ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد ﷺ ، وإن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف عنه معنى إلا فى صورة العبادة لا غير . . .

هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، جاء قوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . . .) .

فصل فى (المفتى)

الفتوى إخبار عن حكم الله تعالى . وليست هى الحكم . وشرطها أن يجتهد المفتى رأيه ولا يقلد غيره .

ولما قال ﷺ لأمير الجيش الذى طلب إلى العدو النزول على حكم الله (إنك لا تدرى أتصيب

فيهم حكم الله أم لا . ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك) كان ينبه الناس على أن آراءهم « اجتهادات » تحتمل الخطأ والصواب .

وفى منهج محمد عبده جماع مناهج الأئمة . فهو يقول مقالة الشافعى : (كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم وعلى المجتهد طلبه) وأبى حنيفة (لى أن أجتهد كما اجتهدوا) ويعمل « بالمصلحة » وسد الذرائع كمالك ويقرر « حرية التعاقد » إلا على محرم كابن حنبل .

ويقول مقولة ابن تيمية : (كل ما احتاج إليه الناس فى معايشهم ولم يكن سببه معصيةً هى ترك واجب أو فعل محرم لم يحظر عليهم) . . و (الشارع لا يحظر على الإنسان إلا ما فيه فساد راجح أو محض ، فإذا لم يكن فيه فساد أو كان فساده مغموراً بالمصلحة لم يحظره أبداً) .

والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : (المسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو أحل حراماً) ويقول : (الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله فى كتابه وماسكت عنه فهو عفو)

فالإباحة هى الأصل الذى تبدأ منه اجتهادات الفقه ، وفيها سعة للخلاف وفى الخلاف رحمة .

والشيخ قادم إلى وظيفة الإفتاء من منصة القضاء . حيث ميزان الحياة الواقعة للجماعة ، والحاضر المتشوف إلى مستقبل أفضل .

والشيخ يمتاز من كل شيوخ عصره ومن رجال الفقه المدنى العظماء فى القضاء بأنه يجمع إلى أصول المنهج الإسلامى العالى وفروعها سنوات عشرة من دراسات القانون الفرنسى ومحاولات منع خطره على الجماعة الإسلامية فهو طلبة الأمة غير منازَع .

* * *

سجلت فتاوى الإمام فى دار الإفتاء فى دفترين كبيرين فى كل منهما خمسمائة فتوى ونّيف . أحدهما خاص بفتاوى وقف ومواريث والوقف فيها أغلب . والثانى خاص بفتاوى فى سائر المسائل .

ولقد عمدنا إلى اختيار « متنوعات » من فتاوى الدفتر الثانى حيث العلاقة وثيقة بما هو جار فى ساحات القضاء من أمور تحتمل الاجتهاد ، حتى نشرك القارئ فى امتحان المنهج الفقهى للإمام وهو فى « حالة عمل » وفى امتحان خصائص « الرجل » إذ يواجه نوازل الحياة الواقعة ، بأصول الفقه الإسلامى الديناميكية الميسّرة ، وبنزاهة المتصوفة الحريصين على الخير والتقدم دون ترهل حضارى .

وكأن وزارات الدولة والأفراد ، فى مصر أو خارجها ، كانوا فى انتظار وصول الإمام إلى دار الإفتاء لتتقاطر عليها الاستفتاءات من كل الجهات . ولا غرو . فالإمام عنوان الرحمة فى الشريعة واقتدار فقهها على التوطئة للتقدم . وهو « المفتى » فى كل مراحل حياته . منازعه مشهورة كاشتهاره ،

وآراؤه منشورة فى كل مكان . وهو يعايش «الجماعة» ويهدى بعمله وبفقهه ، وييسر الدنيا للناس ويحبب إليهم الآخرة .

استفتح دفتر الفتاوى الأول بنص تبليغ الخديو بنفسه إلى الإمام الأمر العالى بتعيينه (فضيلتلو حضرة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية – بناء على ما هو معهود فى فضيلتكم من العالمية وكمال الدراية قد وجهنا لعهدتكم وظيفة إفتاء الديار المصرية وأصدرنا أمرنا هذا إلى فضيلتكم للمعلومية والقيام بمهام هذه الوظيفة . وقد أخطرنا عطو فتلو رئيس مجلس النظار بذلك . الختم عباس حلمى) ٣ يونيو سنة ١٨٩٩ – ٢٤ محرم سنة ١٣١٧ .

مع القضاء – أحكام الإعدام :

أما الدفتر السابق على الدفترين فآخره آخرة فتاوى الشيخ حسونة النواوى . وقد شاءت السماء أن تكون طلباً لرأى المفتى فى حكم بالإعدام وأن تكون أولى فتاوى محمد عبده طلباً لرأيه فى حكم بالإعدام – مع ندرة الفتاوى فى ذلك – لتسجل ، للوهلة الأولى ، لمحمد عبده فوارق كبيرة بينه وبين غيره وإن كانوا –كالشيخ حسونة– رجالاً عظماء .

جاء فى آخرة فتاوى الشيخ حسونة (سئل بإفادة من محكمة استئناف مصر مؤرخة ١١ محرم سنة ١٣١٧ – ٢١ مايو سنة ٢٥٣/٩٩ مضمونها . . . . وكذا ها هى أوراق القضية وعددها ٢٢ مرسلة مع هذا لإبداء رأى حضرتكم وإعادتها بالإفادة . (وأجاب) صار الإطلاع على إفادة سعادتكم المسطورة أعلاه . . . والذى يقتضيه الحكم الشرعى أنه متى ثبت القتل عمداً بالطريق الشرعى فلولى الجناية القصاص شرعاً والله أعلم. والأوراق عائدة كما وردت) .

أما الفتوى رقم ١ فى دفتر الشيخ محمد عبده فأحيلت فى ٢٩ من المحرم سنة ١٣١٧ – ٨ يونيو سنة ١٨٩٩ ومضمونها أن محكمة الاستئناف قضت ضد . . المتهم بقتل . . مع سبق الإصرار وحددت للحكم جلسة ١٥ يونيو فأجاب بتاريخ ٢ صفر بما نصه :

(اطلعت على قضية تهمة محمد على حميد بقتل عبد الوارث السيد عمداً مع سبق الإصرار والترصد فوجدنا عليه كثيراً من القرائن التى تدل على ارتكابه جريمة القتل . لكنها مع كثرتها لا تكفى للحكم عليه بعقوبة الإعدام لأن اليقين لا يبلغ بها إلى الحد الذى يسوغ الحكم بعقوبة لا يمكن تدارك الخطأ فيها لو ظهر بعد ذلك لسبب من الأسباب .

خصوصاً ودلائل سبق الإصرار غير متوفرة لجواز أن يكون خاطر الجناية ورد بذهن القاتل عند امتناع المقتول عن إعطائه النقود التى طلبها منه . ولا يسهل القطع بأنه كان عازماً على قتله عند

الامتناع . والأمر لوليه . والأوراق طيه عدد ٥٧) .

وأول ما نلاحظه أن الشيخ حسونة أعلن «الحكم الشرعى عند ثبوت القتل» وأعاد الأوراق كما وردت ورد الإفادة ومعها ٢٢ ورقة ولم يطلع على القضية أو على الحكم المرسل إليه .

أما المفتى الجديد فطلب القضية واطلع على أوراقها كلها وعددها ٥٧ ورقة فالتزمت المحاكم بإرسال ملفات القضايا إليه لا مجرد الإفادة بالحكم وإرسال أوراقه . كما ناقش (القرائن) وتصدى لركن سبق الإصرار والترصد الذى استدعى الحكم بالإعدام ونبـه على الشأن الخاص لهذه العقوبة . فصنع صنيعين عظيمين فى تاريخ الفقه والقضاء فى العصر الحديث .

أولها : إقرار الأخذ بالقرائن لثبوت القصاص . فقد كانت المحاكم الشرعية السابقة على نظام القضاء الوطنى تستلزم شاهدى رؤية أو إقراراً ، للحكم بالقصاص . فإباحة المفتى للإثبات بالقرائن إصلاح قضائى بتجديد فقهى ، يقره ابن القيم وابن تيمية وغيرهم مسبوقين إلى ذلك بفقه الصحابة وقضائهم بالقرائن . ويفتح الأبواب للإثبات بالأدلة العصرية العلمية والطبية أو التى تُستَمد من واقع الناس .

ولقد لفت الإمام النظر إلى ذلك فى تقرير إصلاح المحاكم الشرعية الذى قدمه فى ٥ نوفمبر .

ولو تقدم رجال الفقه بمثل هذا الإقرار للقرائن فى الإثبات لبقى للشريعة سلطانها الذى ألغى من قانون العقوبات فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٩٧ .

والثانى : أن الإمام كان قاضى نقض من أعلى مستوى فى هذه القضية – إذ لفت نظر المستشارين إلى سبق الإصرار وتخلفه .

ومايزال هذا الركن مدار الاهتمام الأول لقضاء المحكمة العليا فى القضاء الجنائى ، وبوجه خاص ، لف النظر إلى وجوب القطع باستمرار سبق الإصرار والترصد فى ذهن القاتل حتى يحدث القتل ، وسيشهد عالم القانون بعد ثلاثين عاماً عبد العزيز فهمى أول رؤساء محكمة النقض المدنى – وثانى نقيب للمحامين – يثير زوبعة من جراء استمرار إصرار متهم يزعزع التعذيب شعوره .

ويمضى عام ويتكرر التعقيب نفسه مع رئيس عظيم لمحكمة الجنايات . فى الفتوى ١٧٠ بتاريخ ١٣ ربيع أول سنة ١٣١٨ فنقرأ (سئل) بإفادة من حضرة قاسم بك أمين رئيس دائرة الجنايات الكبرى . . مضمونها أنه مرسل مع هذا . . . المتهم فيها عازر منصور بقتل اسكاروس حنا عمداً مع سبق الإصرار . . لإبداء رأيه فيها وإعادتها للمحكمة قبل يوم الخميس المقبل وأجاب « اطلعت على أوراق الجناية . . . . ولم أجد القرائن المحتفة بالجناية المثبتة للتهمة كافية فى اليقين التام بثبوتها ولهذا

لا تكفى للحكم على المتهم بالعقوبة المنصوص عليها فى المادة ٢٠٨ عقوبات . وقد تسمح بالحكم بعقوبة تقديرية مما يلى تلك العقوبة متى صحت الدعوى والمرافعات على وجهها الشرعى . والله أعلم » .

وتمضى شهور فيكتب إلى محكمة الجنايات الكبرى ورئيسها سعد بك زغلول فى ١٦ جمادى الآخرة سنة١٣١٨ - ١٠/١٠/١٩٠٠ - فى الفتوى ٢١٣ - (اطلعت على القضية المذكورة فى ذفتى هذا ولم أر مساغاً للحكم بالإعدام على واحد من المتهمين لأنه لا يوجد دليل يوجب الجزم بأن أحدهما بعينه هو القاتل والآخر شريك . فإن كان يراد الحكم عليهما معاً فذلك ليس مذهب أبى حنيفة بل مذهب مالك فى المتألبين على القتل والله أعلم)

والمعمول به قانوناً مذهب أبى حنيفة [1] .

وفى ١٩ الحجة من نفس العام أجاب بصحة العقوبة . . .

ويلاحظ - وقد راجعنا نحو ألف فتوى للإمام - أن الفتاوى التى طلبت إلى المفتى بصدد أحكام الإعدام بلغت من الندرة عدداً قد ينم عن شيوع الاحتياط من تعقيبات دار الإفتاء .

* * *

فى شئون الأسرة :

- فى ٢ ربيع آخر سنة ١٣١٨ استفتته وزارة الداخلية فى زوجات المحكوم عليهم أو إطلاق عصمتهن وتعذر الأسباب التى تكفى القاضى للفصل فى ذلك . فأجاب إجابة شافية من فقه التقرير الشهير الذى توقع فيه هذه المشاكل بعينها ، وأعد لها مشروع القانون . وأنهى إجابته بقوله : (وإنى أرسل لسعادتكم هذا المشروع مع تصديق صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر ليرفع إلى الجناب الخديو ليصدر الأمر بمقتضاه ، بناء على إفتاء شيخ الجامع الأزهر ومفتى المالكية ، وإفتاء مفتى الديار المصرية ، وموافقة نظارة الحقانية دون إرساله لمجلس شورى القوانين لعدم الضرورة لذلك فى الأحكام الشرعية . .) .

وكما صدقت آراؤه فى تقريره صدقت فى استعجاله استصدار القانون فستبقى محتوياته أكثر من ربع قرن حتى تصدر بها قوانين !

وفتاوى الشيخ كلها من مشكاة واحدة نضرب عليها أمثالا معلّمة :

---

(١) قدم المحكوم عليهما طعنا بالنقض فى الحكم ورفض الطعن فى ١٧ نوفبرسنة ١٩٠٠ برياسة صالح ثابت باشا وعضوية دى هلس وقاسم أمين ويوسف شوقى وأحمد زيور .

– سئل عن رجل حلف بالطلاق الثلاث أن زيداً فعل كذا وبسؤال زيد عما فعله أنكر فهل يقع الطلاق ؟

(أجاب – لا يقع بهذا الحلف طلاق على الرجل المذكور . ولا عبرة بإنكار زيد الفعل المحلوف عليه . ما لم يقر الحالف بعدم إتيان زيد ذلك الفعل الذى حلف زيد أنه فعله . والله أعلم) .

– سئل عن رجل تزوج بامرأة فى إحدى البلاد وأراد أن ينتقل بها إلى مصر لضرورة معيشته وأبت زوجته أن تسافر معه فهل تجبر على مرافقته ؟ (فأجاب إذا كان الزوج المذكور قد أوفاها عاجل صداقها وكان أميناً عليها ولا يقصد بنقلها إلحاق ضرر بها كان له حق نقلها معه إلى حيث يريد . وإذا امتنعت الزوجة من ذلك الانتقال تعد ناشزة لا نفقة لها ولا كسوة . .) .

– سئل عن رجل تزوج امرأة كلما أرادت أن تزور أبويها يمنعها زوجها ويدعى أن ذلك غير جائز شرعاً . (فأجاب : لا يجوز للزوج أن يمنعها من الخروج لزيارة أبويها كل جمعة إن لم يقدرا على إتيانها فى منزلها . كما لا يجوز له أن يمنع أبويها من الدخول عليها لزيارتها كل جمعة . . وقال أبو يوسف . . وذكر فى البحر . . .)

– سئل عن رجل تزوج بطليانية ورزق منها بولد يبلغ عمره خمس سنوات ثم طلقها وسافر خارج البلاد وبعد عودته وجده فى حالة لا تليق بمقامه ويخشى عليه أن تغرس فى نفسه أخلاقاً وقواعد تنافى الآداب . . هل له أن ينزعه منها ؟

(وأجاب : الحاضنة الذمية – ولو مجوسية – كالمسلمة يبقى الولد عندها إلى أن يعقل دينه وقدر على ذلك إلى سبع سنين لصحة إسلامه حينئذ . فإن خيف عليه أن يألف الكفر فينزع منها وإن لم يعقل دينه . .) .

– سئل فى الدوطة عند المسيحيين (فأجاب : فكما يلزم مبلغ المهر فى ذمة والد الزوج إذا ألزم نفسه به فكذلك يلزم مبلغ الدوطة فى ذمة والد الزوجة متى ألزم نفسه بها . .) .

– سئل من إبراهيم باشا حسن عند زواج ابنه على إبراهيم رامز (الجراح الذى كان ينافس على إبراهيم باشا) من ألمانية (فأجاب بأن زواج المسلم بالكتابية جائز شرعاً) .

– سئل . هل طالب العلم يعتبر شرعاً عديم الكسب حتى ينظر فى تعميم المعاملة بموجبه على كل طالب علم فى الأزهر غير ذوى الماهيات والمرتبات ؟ (فأجاب : المنصوص عليه فى كتب المذهب أنه إذا كان الابن من أبناء الكرام ولا يستأجره الناس فهو عاجز . وكذا طلبة العلم إذا كانوا عاجزين عن الكسب ولا يهتدون إليه . لا تسقط نفقاتهم عن آبائهم إذا كانوا مشتغلين بالعلوم الشرعية وفيهم رشد . .) .

متفرقات :

– تسأله وزارة المالية عن الإعلام الشرعى وقيمته (فأجاب : الإعلام الشرعى غير كاف فى ثبوت وراثة . . لأنه لم يتضمن حكماً شرعيًّا صادراً فى دعوى صحيحة من خصم على خصم وشهادة بيّنة عادلة بل هو مجرد إشهاد) .

– وتسأله عن رجل أحيا أرضاً مواتاً وصرف فى إصلاحه أموالاً كثيرة . . أرادت الحكومة أن تجرى صورة المبايعة لواضع اليد لإثبات التمليك رسميًّا . . فهل ، والحال ما ذكر ، يسوغ لأحد أن يأخذه بالشفعة نظراً للعقد الصورى الحادث فى هذا العام ؟ (فأجاب : حيث إن إحياء الموات يعطى حق الملكية لمحييه خصوصاً وقد وضع اليد على الأرض التى أحياها مدة ست عشرة سنة ، وهى مدة يسقط بها حق المطالبة ، فالأرض كانت بذلك ملكاً صحيحاً لمن أحياها . ولم يكن للحكومة حق البيع . فالبيع الصادر فيها قد صدر على غير ملك لها فهو صورة لا حقيقة لها . وواضع اليد على الأرض مالك لها قبل البيع بسبب الإحياء بوضع اليد ، فتلك الصورة التى عبر عنها ببيع لا أثر لها فى إكساب حق الشفعة) .

– وسأله سائل من نابلس فى فلسطين عن طوفان نوح فأجاب جواباً يهمنا منه قوله فيه : (على كل من يعتقد بالدين أن لا ينفى شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التى صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلى يقطع بأن الظاهر غير مراد . .) .

– **ومن أشهر فتاوى الإمام تحليل الإيداع** فى صندوق البريد . على اعتبار أن الحكومة تستغل أمواله على سبيل « المضاربة » . وحسب الرأى مكانة فى التطور الاقتصادى أن يكون مثالاً لتجويز التعامل مع الحكومة دون اتهامها باستغلال شعبها كالمرابين . فالحكام فى جملة أمرهم خدام الشعوب والحكومات أنظمة تتغيا أن يكسب الناس . وتعمل لهم بأموالهم أو أموال بعضهم .

– ومن أشهرها كذلك فتياه باتساع عقد المضاربة لوجه التأمين الذى استفتى فيه مما أطلق أجنحة التأمين فى التعامل (السؤال . . . رجل اتفق مع جماعة (قومبانية)[1] على أن يعطيهم مبلغاً معلوماً فى مدة معلومة على أقساط معينة للاتجار فيما لهم فيه الحظ والمصلحة ، وأنه إذا مضت المدة المذكورة ، وكان حيًّا ، يأخذ المبلغ منهم مع ما ربحه من التجارة فى تلك المدة . فإذا مات فى خلالها يأخذ ورثته

---

(١) مجلة المحاماة السنة الخامسة (١٩٢٥) ص ٥٦٣ رقم ٤٦٠ – مجلة نور الإسلام العدد التاسع من المجلد الأول ص ٦٧٩ .
والقومبانية السائلة فى الفتوى هى شركة جريشام للتأمين .

أو من يطلق له حال حياته أخذ المبلغ المذكور مع الربح الذى نتج مما دفعه فهل ذلك يوافق شرعاً ؟

الجواب اتفاق هذا الرجل مع هؤلاء الجماعة على دفع ذلك المبلغ على وجه ما ذكر يكون من قبيل « المضاربة » . وهى جائزة – ولا مانع للرجل من أخذ ماله مع ما أنتجه من الربح بعد العمل فيه بالتجارة . وإذا مات الرجل فى إبان المدة وكان الجماعة قد عملوا فيما دفعه وقاموا بما التزموه من دفع المبلغ لورثته أو لمن يكون له حق التصرف فى المال ، أن يأخذ المبلغ جميعه مع ما ربحه المدفوع منه بالتجارة على الوجه المذكور) .

وإجراء المضاربة بالمال ابتغاء تعاون أمر القرآن به وحضت عليه السنة ، مادامت خالية من أسباب الفساد ، منهج سليم فى الاقتصاد ، فيه من صيانة المصالح العامة والخاصة ما يستغرق خلافات المتفقهة وأقيستهم على عقود لا تصلح لقياس . وأساس نظرية التعاقد عند المسلمين حديثه ﷺ (المسلمون عند شروطهم إلا شرطا حرم حلالاً أو أحل حراماً)[١] .

واستفتى فى الاستعانة بالكافرين فأجاب بما نصه :

(قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير المسلمين . وإن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أبنائهم وما فيه خير لهم ، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الأسوة الحسنة بالنبى ﷺ وأصحابه . وأن من كفرهم أو فسقهم فهو بين الأمرين إما كافر أو فاسق . فعلى دعاة الخير أن يجدوا فى دعوتهم وأن يمضوا فى طريقهم ولا يحزنهم شتم الشاتمين ولا يغيظهم لوم اللائمين فالله كفيل لهم بالنصر إذا اعتصموا بالحق والصبر) .

واستشهد بابن خلدون وبعمل السلف من عهد عمر إلى عبد الملك بن مروان كما استشهد بالأحكام السلطانية للماوردى .

---

(١) يخرج الحجوى (١٣٧٦ هـ) فى كتابه الفكرى السامى المسألة تخريج القاضى سعيد بن محمد بن محمد العقبانى وهو فقيه مالكى ولد بتلمسان سنة ٧٢٠ هـ ١٣٢٠ م وتوفى سنة ٨١١ هـ ١٤٠٨ م فيما سمى (بقضية تجار البزمع الحاكة) بمدينة سلا وجملة أمرها (أن تجار البز رأوا توظيف مغارم كثيرة عليهم . فاتفقوا على أن كل من اشترى منهم سلعة دفع درهماً عند رجل يثقون به ، وما اجتمع من ذلك استعانوا به على الغرم . وأراد الحاكة منعهم بدعوى أنه يضر بهم وينقص من ربحهم . قال العقبانى = فحكمت بإباحة ذلك بشرط ألا يجبر واحد من التجار على دفع الدرهم) .

فالدرهم فى القضية قسط اختيارى للتعاون وليس لغيرهم أن يتضرر من تعاونهم ، ولو كانوا خياطين تضرهم أسعار القماش إذا ارتفعت .

واستفتاه مسلمو الترنسفال [1] :

فى البقر يضربه نصاراهم بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله – هل يحل لحمه ؟ فأفتى بحل ذلك والله يقول (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) .

قال الشيوخ إنها هى الموقوذة المحرمة وقال الشيخ إن الموقوذة هى ما ضرب بشىء غير محدد كالحجارة والخشب حتى ماتت . وهذه ذبحت قبل أن تموت .

واستفتوه فيمن يلبسون القبعة كالأجانب :

فأجاب (أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج عن الإسلام والدخول فى دين غيره فلا يعد مكفراً . وإذا كان اللبس لحاجة من حجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك) .

واستفتوه فى صلاة الشافعية خلف الحنفية :

فأجازها (وإلا كان لأصحاب كل مذهب مسجد كالمذاهب فى النصرانية لكل مذهب كنيسة)

البدع :

وفى مقال كتبه الشيخ فى الثلاثين من عمره عنوانه (إبطال البدع) فى عدد الوقائع المؤرخ ٣٠ نوفمبر ١٨٨٠ = ٢٧ ذى الحجة ١٢٩٧ تعليقاً على فتوى لشيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية بتحريم ضرب الطبول فى المساجد (الباز) أبلغتها وزارة الأوقاف إلى المساجد (. . هذه طلائع خير تبشر بحياة الشريعة الحقة . . . ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الأوقاف أن المنع خاص (بالباز) وطريقة السعدية أو بالطبل على الخصوص بل هو صريح فى عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصلٍّ أو إخلالا بحرمة مسجد . ولا يخرج من حكم المنع أيضاً ما يفعل من نحو ذلك بأضرحة الأولياء رضى الله عنهم . وإن لم تكن مساجد لمنافاتها للأدب الواجب فى حقهم . على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بآلات لهو على العموم . .

ويشمل حكم المنع أيضاً الازدحامات التى تكون بالمساجد الشهيرة فى أيام تعرف بالحضرات كيومى الأحد والأربعاء بمسجد السيدة زينب ويومى السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين ، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعاً . . .) .

---

(١) كانت الفتوى الترنسفالية وسيلة لحملة من الخديو وصحفه لتأليب الرأى العام فى مصر والإمبراطورية العثمانية ضد الإمام .

الدوسة :

وفى مقالين معاصرين عنوانها (إبطال الدوسة) بتاريخ ١٥ /٢ /١٨٨١ = ١٢٩٨ هـ وتاريخ ٣ /٤ /١٢٩٨ يعود للكلام عن البدع فيقول (ومن أفظع تلك البدع بدعة الدوسة وهى أن ينطرح الناس مصطفين أحدهم لجنب الآخر ثم يعلو على ظهورهم أحد « المشايخ » بحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهى إلى آخرهم ! وهم مسلمون من أهل الإيمان قد أقر الله بتكريمهم . . وقد جعلهم الله فى الدرجة الثالثة من عزته سبحانه وتعالى فقال : (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ، فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهاناً على التراب ليطأه حافر من البَهْم وقد نهت الشريعة عن إهانة أجساد الأموات فضلاً عن الأحياء ! . . .

أولا يعلم الجاهلون أن مصر وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما يكاد يذهب بهجة الشريعة ، وأن العلماء فى الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفاً من سطوة الظالمين ؟ أما الآن . . فلا يخش العلماء لومة لائم فى إنكار المنكر . . .)

تعدد الزوجات :

وفى مقال معاصر لذلك نشرته الوقائع بتاريخ ٧ /٣ / ١٨٨١ عن حاجة الإنسان للزواج يمهد للكلام فى اليوم التالى عن حكم الشريعة فى تعدد الزوجات نجد آثاره بعد نحو ربع قرن فيما كتبه قاسم أمين وبعد نصف قرن فى حركة النهضة النسائية .

يقول الإمام (قد أباحت الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهن وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة . قال تعالى (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) . . فإن الرجل إذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقها اختل نظام المنزل . . من ذلك أن النبى ﷺ كان يطاف به وهو فى حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الأكتاف حفظاً للعدل . فلما كان عند إحدى نسائه سأل فى أىٍّ بيت أكون غداً ؟ فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة فأذنّ له فى المقام عندها مدة المرض . فقال هل رضيتن ؟ فقلن نعم . فلم يقم فى بيت عائشة حتى علم رضاهنّ . . فقد روى فى الصحيح أن آخر ما أوصى به ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفى كلامه : (الصلاة الصلاة . وما ملكت أيمانكم . لا تكلفوهم ما لا يطيقون . الله اللهَ فى النساء فإنهن عوانٍ فى أيديكم — أى أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) . وقال : (من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى — وفى رواية لم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيه مائل) وكان

يعتذر عن ميله القلبى بقوله : (اللهم هذا (أى العدل فى البيات والعطاء) جهدى فيما أملك ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك) أى الميل القلبى . وكان يقرع بينهن إذا أراد سفراً .

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة فى القسم فى البيتوتة بإجماع الأئمة . وفيها وفى العطاء أعنى النفقة عند غالبهم . . وقالوا إن العدل من حقوق الزوجية فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً . . وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضى وجب نهيه وزجره فإن عاد عزر بالضرب لا بالحبس ، وما ذلك إلا محافظة على المقصد الأصلى من الزواج وهو التعاون فى المعيشة وحسن السلوك فيها .

أفبعد الوعيد الشرعى وذلك الإلزام الدقيق الحتمى . . يجوز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلا عن تحقيقه ؟ . .) .

ويختم الشيخ المقال بقوله : (فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة إذا لم يقدروا على العدل كما هو مشاهد عملا بالواجب عليهم بنص قوله تعالى : (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فهى مقيدة بآية فإن خفتم ، وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد فى الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الأولاد وحفظ النساء من الغوائل التى تؤدى بهن إلى الأعمال غير اللائقة ولا يحملوهن على الإضرار بهم وبأولادهم ولا يطلقونهن إلا لداع ومقتضٍ شرعى . .) .

* * *

وفى عدد مارس سنة ١٩٢٧ من المنار نشر الشيخ رشيد رضا أنه وجد فى أوراق الإمام الفتاوى التالية وأضاف أنه ينشرها لتصدى الحكومة لتقييد التعدد : (السؤال الأول : ما منشأ تعدد الزوجات فى بلاد العرب قبل بعثة النبى ﷺ .

السؤال الثانى : على أى صورة كان الناس يعملون بهذه العادة فى بلاد العرب خاصة .

السؤال الثالث : كيف أصلح نبينا هذه العادة ؟ وكيف كان يفهمها) . وذكر أن الإمام قال فى جوابه عن السؤال الثالث بعد بسط رأيه .

« (فالإسلام قد خفف الإكثار من الزوجات ووقف عند الأربعة ثم إنه شدد الأمر على المكثرين إلى حد لو عقلوه لما زاد واحد منهم على الواحدة .

وأما المملوكات فقد جاء حكمهن فى قوله تعالى : (أو ما ملكت أيمانكم) « النساء الآية ٣ » وهو إباحة الجمع بينهن ، وإن لم يكن من الرجل عدل فيهن لأن المملوكة لا حق لها . وللمالكها أن يتركها للخدمة ولا يضاجعها البتة . وقد اتفق المسلمون على أنه يجوز للرجل أن يأخذ من الجوارى ما يشاء بدون

حصر . ولكن يمكن لفاهم أن يفهم من الآية غير ذلك : فإن الكلام جاء مرتبطاً بإباحة التعدد إلى الأربعة فقط وأن الشرط فى الإباحة التحقق من العدل . فيكون المعنى : أنه إذا خيف الجور وجب الاقتصار على الواحدة من الزوجات أو أخذ العدد المذكور مما ملكت الأيمان فلا يباح من النساء ما فوق الأربع على كل حال . ويباح الأربع بدون مراعاة للعدل فى المملوكات دون الزوجات لأن المملوكات ليس لهن حق فى العشرة على ساداتهن . .)[1] .

والشيخ يضيف إلى ما فات قوله : (أما جواز إبطال هذه العادة (أى عادة تعدد الزوجات) فلا ريب فيه . أما أولا فلأن شرط التعدد هو التحقق من العدل وهذا الشرط مفقود حتماً وثانياً قد غلب سوء معاملة الرجال لزوجاتهم عند التعدد وحرمانهن من حقوقهن فى النفقة والراحة ولهذا يجوز للحاكم وللقائم على الشرع أن يمنع التعدد دفعاً للفساد الغالب – وثالثاً : قد ظهر أن منشأ الفساد والعداوة بين الأولاد هو اختلاف أمهاتهم . .

ولهذا يجوز للحاكم أو لصاحب الدين أن يمنع تعدد الزوجات والجوارى صيانة للبيوت عن الفساد .

نعم . ليس من العدل أن يمنع رجل لم تأت زوجته منه بأولاد أن يتزوج أخرى ليأتى منها بذرية فإن الغرض من الزواج التناسل . فإذا كانت الزوجة عاقرا فليس من الحق أن يمنع زوجها أن يضم إليها أخرى ، وبالجملة فيجوز الحجر على الأزواج عموماً أن يتزوجوا غير واحدة إلا لضرورة تثبت لدى القاضى ولا مانع من ذلك فى الدين البتة . وإنما الذى يمنع ذلك هو العادة فقط) .

* * *

ولم يخالف الشيخ الناس إلى ما ينهاهم عنه . فقد اقتصر إنجاب زوجته على بنات ثلاث وولد مات فقرّ عيناً بها وبهن وصحبها فى منفاه حتى توفاها الله ، فتزوج ورزق بنتاً رابعة وبقيت زوجته وحدها معه حتى وفاته .

وجرى أصحاب الإمام على أثره فدلوا على الوحدة الفكرية الكاملة فى أخص شئونهم فسعد زغلول لم ينجب ولم يتزوج غير أم المصريين . وقاسم أمين والهلباوى وحسن عاصم وعلى فخرى وحسين رشدى وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود ولطفى السيد ومحمد يوسف وعثمان يوسف وهيكل وطه حسين ومنصور فهمى ومحمود عزمى والشيوخ محمد مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق

---

[1] (١) فى هامش المنار (هذا هو المنصوص فى فقه المذاهب المشهورة . ولكن قالوا إن مايجب للزوجة يستحب للسرية . وفى كتب الحنابلة نقول تفيد أنه يجب على السيد أن يحصن مملوكه ومملوكته بالزواج بشرطه) .

وعلى سرور الزنكلونى وعلى عبد الرازق ومحمود شلتوت لم يكن لواحد منهم فى عصمته أكثر من زوجة واحدة .

وسبق رفاعة رافع الجميع فتزوج بنت خاله وكتب لها وثيقة أنه إذا تزوج عليها طلقت . ولم يتزوج غيرها بل صاحبته طول حياته .

التصوير والنحت :

وللشيخ بيان أشبه بالفتوى يبيح بها التصوير والنحت فى مقال كبير عن رحلته إلى صقلية[1] إليك فقرات منه فيها « صورة » فتوى :

(لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج . . هل تدرى لماذا ؟ إذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر وضبطه فى دواوينه والمبالغة فى تحريره خصوصاً شعر الجاهلية وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل فإن الرسم ضرب من الشعر المرئى يرى ولا يسمع والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى . إن هذه الرسوم قد حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة من أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الإنسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم . وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة لا يسهل عليك تمييز بعضها عن بعض . ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد الفرق ظاهراً باهراً يصورونه مثلاً فى حالة الفزع والجزع . والخوف والخشية . والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ، — ولم أجمعهما هنا طمعاً فى جمع عينين فى سطر واحد لأنهما مختلفان حقيقة — ولكنك ربما تعتصر ذهنك لتحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ومتى يكون الجزع وما الهيأة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك . أما إذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت فإنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . إذا نزعت نفسك إلى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك رأيت أسداً ، تريد رجلا شجاعاً ، فانظر إلى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير تجد الأسد رجلا أو الرجل أسداً . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة وشكر لصاحب الصنعة على الإبداع فيها . .) .

---

(١) يظهر حنين الإمام إلى الماضى العظيم لصقلية فى مقاله . لقد فتحها للمسلمين « قاضى المسلمين » أسد بن الفرات على رأس الأسطول العربى . وازدهرت فيها الحضارة الإسلامية وبقيت للعرب السلطة نحو ثلاثة قرون وهى — كالأندلس — رأس جسر غزا به العرب عقل أوربا . منذ سقطت بلرم سنة ٨١٣ للميلاد فى يدهم وامتد نفوذهم إلى روما سنة ٨٤٦ وبقوا فى صقلية حتى سنة ١٠٩٢ وأنشئت جامعة نابولى لترجمة العلوم العربية .

ثم ينتقل من البلاغة إلى الفقه « بتصوير» سؤال وإصدار « فتوى » .

(ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام وهى ما حكم الصور فى الشريعة الإسلامية إذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئآت البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية هل هذا حرام أو جائز أو مندوب أو واجب ؟

فأقول لك : إن الرسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد مُحى من الأذهان . فإما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة وإما أن ترفع سؤالا إلى المفتى وهو يجيبك مشافهة فإذا أوردت عليه : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون) أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح ، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك إن الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين : الأول اللهو والثانى التبرك بمثال من ترسم من صورته من الصالحين . والأول مما ينقضه الدين والثانى مما جاء الإسلام لمحوه . والمصور فى الحالتين شاغل عن الله أو ممهد للإشراك به ، فإذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات . . . وقد صُنع ذلك فى حواشى المصاحف وأوائل السور ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضوع لنزاع . . أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه . . .

وبالجملة إنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين . لامن جهة العقيدة ولا من جهة العمل .

على أن المسلمين لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها ! وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بالأولياء . . لا شك أنه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد وبين صور الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية . .) .

الباب الخامس

خيانة الخديو

(واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعت على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله لك . .) .

حديث شريف

لو وقف التاريخ عند نفى الأستاذ الإمام مرة أخرى فى شبابه لسلكه بين أتراب له من زعماء الثورة الفرنسية قضوا نحبهم فى زهرة العمر . . ولو وقف عند إرسائه دعائم الدولة والأمة لسلكه بين لدات من « الآباء المؤسسين » فى الثورة الأمريكية ، أو عند إصلاح الأزهر ، لخصّه بأنه (المعطى دم الشباب) للجامع الهرم . أو عند الاهتمام الخاص والعام باللغة وعلومها لسجل له أنصع الصفحات لاهتمامه بالإسلام ولسان القرآن . أو عند إصلاح القضاء الشرعى ، لخلده خلود القيم التى تقوم عليها الأسرة وهى نواة الأمة . أو عند تفسيره للقرآن ، لخلده خلود المعانى التى لفت إليها أنظار عصره وكل عصر بعده .

لكن حياة الإمام إمام . تهدى بالفعل والقول وبمجرد الوجود على الأرض ، مركز ثقل يحفظ للدنيا توازنها .

الزعيم فى البرلمان :

فى ٢٥/٦/١٨٩٩ عين الإمام عضواً فى مجلس الشورى وكانت الحكومة ناشزة عليه ، فردها الإمام إليه بحكمته ، وظفرت الحياة البرلمانية فى مصر بسنوات خمس ، حدثنا عنها زميلاه فى المجلس وفى الجمعية الخيرية .

قال حسن عاصم ليبين موقعه من الدولة والأمة والحكومة : (كان بين أهل الحل والعقد فى الحكومة وبين مجلس الشورى شىء أشبه بالخلاف فى الرأى أدى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من

المشروعات التى كان المجلس يرى الخير للأمة فى عدم العمل بها . وصرفت النظر عن كل أوجه التعديل التى كان المجلس يرى أن الصلاح والنفع للأمة فى تعديلها .

فلما جاء الأستاذ إلى المجلس ونظر فى الأمر نظرة الحكيم البصير ، وعرف أنه ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج ، وإنما هو سوء التفاهم باعد بين المشارب على تقاربها ، سعى رحمه الله فى أن يزيل أسباب هذا الخلاف وكان ما أراد . وعرفت الحكومة أن المجلس إنما يطلب ما فيه سعادة الأمة ويبتغى الخير لها . وأن ليس لها غرض فى مصادمة آراء الحكومة ومطالبها مادامت تتفق مع مقصده . وعلم المجلس أيضاً أن الحكومة لا تقصد إلى شىء وراء ما يقصده لمصلحة البلاد ، وبذلك اتفقت الكلمة فى الغالب . ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يعسر حله) .

لقد كان عند قيام الثورة يخشى على الأمة عجزها عن الانتفاع بالحكم النيابى ، ولما صار واحداً من نوابها واتته الفرصة لإثبات قدرتها ، وألقى الجميع إليه مقاليد القيادة . . قال حسن عبد الرازق ليبين مقامه فى الزعامة وكيف وضع « المشترع العظيم » تقريره العظيم لإصلاح القضاء الشرعى موضع التنفيذ ، وكأنما كان يسابق الزمن :

كان (واسطة العقد فى مجلس الشورى والتفت حوله القلوب وعرف الكل مكانته وكان إخوانه فى مجلس الشورى يلجئون إليه إذا اشتبه الأمر وخفى الصواب . . وكان منذ نقله إلى وظيفة الإفتاء لايزال يلفت نظر الحكومة ويلح عليها لتلافى هذا النقص (عيوب نظام المحاكم الشرعية) فعهدت إليه أن ينظر الأمر . . . وشكلت لجنتين تحت رياسته : الأولى مركبة من أفاضل العلماء والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل أيضاً . وكلفتهما بوضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعى . فكان رحمه الله مع ما فيه من المرض يواصل العمل فى ليله ونهاره حتى أتمه ورفعه إلى الحكومة قبيل قيامه إلى الإسكندرية ببضعة أيام والله يعلم ما سيئول إليه بعده أمر هذا المشروع الخطير[1] .

ومجمل ما يقال إنه لم يُعمل فى المجلس مدة وجوده عمل إلا كان له فيه الرأى الرشيد ، والقول السديد . وما انتخبت لجنة فى مشروع إلا كان أول المنتخبين . ولم يتألف وفد لمفاوضة الحكومة إلا كانت له الصدارة . . إذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً . وإذا قدمت اللوائح

---

(١) تكفل سعد زغلول بالمشروع إذ صار وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦ وأعد قانوناً بإنشاء المدرسة فأنشئت ورأسها محمد عاطف بركات باشا ، وخرجت الجيل العظيم للقضاة الشرعيين . أما إصلاح القوانين فتكفلت به لجان تتابعت على مدى النصف الأول من القرن العشرين .

الإدارية لم يكن أقل من أهلها علماً بدقائقها . . . . وإذا جاءت المسائل المالية رأيته ماهراً بأساليب الحساب عارفاً بفنون الاقتصاد . . كالقطر حيثما وقع نفع) .

* * *

ولئن كان اهتمام المجلس التشريعي والحكومة بالقضاء اجتماعاً للسلطات الثلاث فى الدولة على الإصلاح بعمل الإمام فى المجلس الذى صار عضواً فيه ، أوكان هذان الاهتمام والاجتماع هما رجع الصدى لصوته فى التقرير الشهير ، أوكان جهاده الدينى بإصلاح الأزهر وتطهير العقيدة ، وتحرير الفكر ، وتفسير القرآن ، عمله اليومى طول حياته ، إن جمعه بين اللغة والدين فى منهاجه التعليمى وبين تقنين المعاملات وتقنين أحكام الأسرة فى التقرير المشار إليه ، هو فى واقع أمره ظاهرة دستورية يقدمها إمام العصور الحديثة للأمة العربية عامة ، ومصر خاصة ، لتتمسك بمقوماتها السياسية والاجتماعية . فهذه الأمور الثلاثة (الدين والشريعة واللغة) أمور «تأسيسية» «أو دستورية» لا كيان من دونها لدولة عربية .

ولما أخذ واضعو دستور سنة ١٩٧١ إخذه فى أواخر القرن العشرين مستجيبين لإصرار الأمة بعد تجارب مخفقة بدساتير متعددة من أول القرن ، دلوا على سبقه بمقدار قرن فى الفكر الدستورى للأمة ، وعلى سبقه الأعظم بتنفيذ ذلك بنفسه فى الأمور الثلاثة وجمعه بينها فى ميادين كفاحه . وآية ذلك نص المادة الثانية من دستور مصر سنة ١٩٧١ (الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية ومبادئ الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع) .

وبالشريعة التى تحمى القيم الإسلامية وتجتمع عليها الأمة العربية ، والدين الذى تتمثل فيه عقيدتها الجامعة ، وباللغة التى ترتبط بها ألسنتها وأفكارها ، نشأت القومية العربية . ولا قيام للوحدة العربية بغير هذه العناصر الثلاثة . فالقومية والوحدة العربيتان تشهدان كذلك بالسبق لإمام العصور الحديثة .

* * *

ولئن كان عجيباً سبق الإمام فى أمور دستورية ، إن الأعجب أن يكون « رجل إدارة » لا ضريب له . والإدارة أعقد من الزعامة والقيادة . إذ هى تنفيذ يومى يجرى على أيدى رجال آخرين ، كثيرين كثرة عملهم فى أجواء شتى ، بين تيارات متعارضة ، لمصالح مختلفة الغايات والوسائل ، على وجه الدوام . والإدارة أشد تعقيداً إذا كان المدير عالماً فى الدين مطلوباً منه الأداء العادل والشرعى ، أى النموذجى ، لكل حركة وسكنة . ومن ذلك تجرى العادة بألا يكون رجل الدين أو التشريع أو القضاء أو التعليم أو الفنون (رجل إدارة) أو (رجل دولة) .

ونجاح الإمام فى إدارته وصحبه للجمعية الخيرية ، أو لمجلس إدارة الأزهر أو الأوقاف أو لوظيفة الإفتاء ، أو لنشاط مجلس الشورى ، ليس إلا تكرار أو استمرار نجاحه فى إدارة الوقائع المصرية وتوجيه محرريها الخالدين وهو فى الثلاثين من عمره . وكان إصلاحاً قومياً انتهى إلى تحريك شعور عام أو رأى عام أشاد به فى مذكراته [١] .

لقد قدر على نفسه ، فقدر على قيادة القادة . ودار منذئذ فى الفلك الخاص به وأمسى لا تبغته عظيمة وتواتيه سعة أفقه فى كف الظالمين عن ظلمهم فينصفهم من أنفسهم وينصف الناس منهم ، وينتصر للحق والحقيقة . ويدفع الطواغيت إليهما ، بهدوء وثقة :

إليك أمثالا :

يستنصحه كرومر فى موضوع النيابة العمومية المعروض على مجلس الوزراء برياسة الخديو لإقراره ، وقد سبق أن تحدثنا عنه ، وماكان ذلك إلا صيغة فى طلب تأييده للمشروع . فلا يفلح دهاء الدهىّ فى إبلاغه غرضه ، ويعلن الشيخ وجه المصلحة العامة ويسوق إليه الطاغية عن طريق مصلحته الخاصة !

ويعوذ به الخديو يوم عزم كرومر سنة ١٨٩٨ أن يمنع دولة الخلافة تعيين القاضى الشرعى لمصر . وكان ذلك آخر مظهر لعلاقة مصر بدولة الخلافة والخديو لا يرى قطعها لحساب المحتلين وبمناسبة شرعية . فينصحه محمد عبده أن يعلن لكرومر أن « الضمير الدينى » يمنعه أن يتصرفُ ذلك التصرف . فتراجع الطاغية . ولم تنقطع العلاقة الشرعية إلا بعد إعلان إنجلترا حمايتها على مصر سنة ١٩١٤ .

وذات يوم هرول إليه الخديو يخبره أن الطاغية مصمم على اقتحام قصره بحثاً عن رجل أرمنى (ليون فهمى) زور أختام دولة الخلافة فى إسطنبول ، وطلبت إسطنبول إحضاره من مصر ، فجمع

---

(١) قال (وأول مابدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التى كانت متبعة فى النظارات والإدارات . فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعانى المطلوبة منها .

فلم تمض بضعة أشهر حتى ظهر فضل ذوى الإلمام باللغة العربية من موظفى الحكومة . وخصهم رؤساؤهم بمخاطبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الإدارات . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير وعم ذلك المديريات كما عم النظارات (الوزارات) . . . وذلك هو تاريخ إصلاح التحرير فى مصالح الحكومة ومازال يتقدم إلى اليوم .

وهكذا كان شأن الجرائد . . . كانت تتسابق فى إظهار مزاياها فى التحرير حتى ترضى إدارة المطبوعات . وصلح بذلك كثير من أساليب الجرائد التى لم تكن لها عناية بتهذيب العبارات وتسابقت الأقلام فى تنقيح الألفاظ وضبط المطالب فتمت بذلك نهضة التحرير التى كانت بدأت من سنين وكان الضعف يقعدها والخوف يرعدها .

سهلت بذلك المواصلات بين الأنفس فى الأفكار . وخف عليها التعبير عما فى الضمائر وكثر الكاتبون وغزرت مادة المتكلمين وتيسر التعارف بين المتباعدين ونشأ فى الناس نوع من الألفة أحدثه ألشعور بجامعة اللغة . وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه أصبح وهو يشرف على فضاء يسع أمته . وأخذ يشعر بأن له حركة عامة فى المقصد العام كما أن له حركة خاصة إلى الغرض الخاص . .) .

الشيخ بين الحقيقة والحق فى نصحه . فأشار على الخديو بأن يستوثق مما إذا كان الرجل موجوداً أو غير موجود فى قصره أو فى اليخت (المحروسة) الذى قد ينقله إلى إسطنبول ، فإذا لم يكن موجوداً أعلن الخديو للملأ أن كرومر يريد اقتحام قصره وأنه يرفض ذلك وإنما يأذن لعميد القناصل أن يفتش ما شاء . . فتراجع الطاغية مخافة أزمة ، وخلّى الخديو سبيل الرجل .

فى مصر وخارج مصر :

والشيخ أشد فتاء ومضاء إذ يحدر من الخمسين إلى الستين . تجيئه المناصب العالية منقادة فيحولها من « مراكز قيادة » إلى « مواقع عمل » ويجعل « السلطة » التى له « مسئولية » عليه .

آتاه الله صحة نفس وجسم راضها بالتصوف . وفؤاداً كله التقوى والشجاعة والزهد فيما يتكالب عليه بنو الدنيا . فلا تتساءل من أين جاءه الوقت ، والطاقة ، والتوفيق ، ليجمع بين كل أعماله وليجعلها مصداق أقواله ، مع الاستكثار من تبعاته ، وتلقيه التكاليف من نفسه وزيادتها بازدياد فرصه فى مواقع عمله :

ساعتان فى كل درس ، خمس ليال فى كل أسبوع ، طوال أعوام ستة ! يحتاج التحضير لها إلى أيام وليال مع التفرغ الكامل . فوق أعمال المجلس التشريعى الدائب الدائم وأعمال مجلس إدارة الأزهر المقيم فى « موقع العمل » . وآمال أمة تطلب لدى الجمعية الخيرية تعليماً لا تقدمه الدولة وأموالاً تعين القانع والمعتر . ودار إفتاء لا تتوقف عن الجواب عما يرد من شتى الأرجاء ، والتفسير القرآنى يطبع ، والأبحاث والترجمات تترى فى مجلة المنار فتجلجل فى الآفاق والشيخ تلاحقه « الملازم » . . ويكتب من أوربا إلى تلميذه رشيد رضا[1] (١٩٣٥) أو من مصيف رأس البر فيقول عن رأسه ورأس البر (رأس البر لا عقل فيه ولا عمل . ذلك لا يمنع إرسال ملازم التفسير . كلام الله يرد القارّ من العقول ويعمر الخراب منها)

وثمة (الدرس العالى الخاص) فى الدار ومن حضاره قاسم أمين ومحمد كرد على وشفيق العظم وإسماعيل صبرى وفتحى زغلول وأحمد المحمصانى وأحمد إبراهيم وفيه ينقد مجلس النظار فيسميه (جمعية الصم البكم) ويقول عن الكبراء (هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة التى يدعون بها كبراء .

---

(١) ولد سنة ١٨٨٦ وأتم تعليمه بطرابلس بلبنان ولقى الأستاذ الإمام فى مصيفه سنة ١٨٩٤ ومعه فتحى باشا زغلول ثم قدم إلى مصر مهاجراً فلزمه واستشاره فى إصدار مجلة إسلامية فاستحسن الإمام أن يكون اسمها (المنار) وساعد على نشرها وجمع المشتركين لها . وأوصاه ألا يكتب فى السياسة واختصها بمقالاته وترجماته وإرشاداته وفيها نشر تفسيره . وللشيخ رشيد بهذا درجة بين تلاميذ الإمام .

نحن نستخدمهم ولكن لانخدمهم) وفى المجلس فقه وأصول وبلاغة وسيرة وغير ذلك .

ويستعمل حافظ إبراهيم تصوير الإمام لمجلس الوزراء فى وداع كرومر عند استقالته عقب حادث دنشواى فيقول له :

يناديك : وليت الوزارة (هيئةً من الصمّ) لم تسمع لأصواتنا صدى

ويتجلى الإمام فى فن التراجم[1] حيث ينساب الفيض الإنسانى فى الكلمات ، وتجرى الحياة فى الترجمات . وينتهز الفرص ليعلم ويلفت النظر ويقضى حق عظماء جيله . كمثل ماكتب عند موت الشيخ على الليثى شاعر الخديو إسماعيل ، لينبه الخديو الذى حل محل أبيه وجده ، وبينه الوزراء والعلماء والشعراء قال .

(. . . وأول قول قاله للخديو (توفيق) أن نصحه قال : قدأمكنك الله من رقابهم (الثوار) وأجدر بك أن تعفو عنهم فتملك أفئدتهم بالمرحمة ، وتستعبد أحرارهم بالإحسان . ذلك خير من أن تدمى قلوبهم بالعقوبة وتورث العداوة أعقابهم . .) مكانة من الشجاعة لم يصعد إليها أحد غيره ، ومنزلة من الفضل وحب الخير لم تسع معه سواه .(شعربعض محبى الانتقام من الوزراء . . . فأرسل إليه يطلب منه أن يذهب إلى أملاكه فى ناحية الصف ليقيم بها . ورأى من الخديو رغبة فى ذلك . فانطلق مغاضباً ولزم بيته ينظر فى شئونه نحو سنة من الزمان . وأفاق الخديو مما كان غشيه . فطلب من الشيخ رحمه الله أن يأتى إلى حضرته فأبى أن يجيب طلبه . وترفع أن يبادر إلى أمر كان غيره يلتمس إليه الوسائل ، ويستشفع إليه بالحق وبالباطل . واستمر يتحصن بعزة نفسه إلى أن وافاه الخديو فى عزبته بالصف مصحوباً بحرمه ، وحاشيته وحشمه ، فأكرم الشيخ لقاءه وعاد بعد ذلك إلى الإخلاص فى ولائه) .

والبُرُد فى غدو ورواح بينه وبين العلماء فى أقصى الأرض وأدناها حول الشعر والأدب والاجتماع وفلسفة الأشياء ، يقرِّظ المؤلفات ويعلق على الترجمات ، ويزجى أبلغ الثناء على المتبرعين للغرض العام ، ويخص علماء العالم الإسلامى بكفل من اهتمامه ، مسلمين ومسيحيين ، فإبراهيم اليازجى[2] وسليمان البستانى وأسرتاهما أصدقاء دائمون . من عهد بيروت .

وفى بيروت كان القس إسحق تيلر يدعو لتوحيد الأديان ويثنى عظيم الثناء على الإسلام ، ومن

---

(١) من تراجمه ترجمة للشريف الرضى فى مقدمة نهج البلاغة – وللسيد جمال الدين – وللبارودى – ولرياض باشا – وترجمته لنفسه .

(٢) عالم لغوى مسيحى قضى حياته فى بيروت يهز بشعره الوطنى الأمة العربية . هاجر إلى مصر فى أواخر حياته . له كتاب (نجعة الرائد فى المترادف والمتوارد) كان شعره يسجل فى منشورات سرية . أصدر فى مصر مجلة البيان – مات سنة ١٩٠٦ .

مصر يكتب الإمام إليه (أنت أول رئيس دينى صدع بالحق فى أهل ملته . . وأن هذا الأمر الذى قمت به لعظيم الفوائد . . تحس منه تحرك أهل الملتين إلى الملاقاة على صراط الوحدة . .)

ويرد على خطاب له بقوله : (كنت فى القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التى أجمع عليها أهل الأديان الثلاثة . وفيها يرى الزائر كأن دوحة واحدة هى الدين الحق تفرعت عنها . .) .

* * *

ويتزل الفيلسوف الروسى (الكونت تولستوى) عن ماله كله للفقراء ويسيح فى الأرض سياحة الصوفية القدماء : إبراهيم بن أدهم وشقيق وبشر الحافى . فتوقع عليه الكنيسة عقوبة الحرمان ، فتمتد بصيرة الشيخ إلى بعيد ليربط بين القيم التى يفسر بها القرآن لقومه فى الرواق العباسى وبين ما يجب على الأمراء والعلماء والقساوسة والناس قاطبة ويكتب إلى تولستوى .

(عين شمس فى ١٨ أبريل سنة ١٩٠٤ .

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى . . وكما كانت آراؤك ضياء يهتدى به الضالون كان مثالك فى العمل إماماً يهتدى به المسترشدون . وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء كان مدداً من عناية الله للفقراء . وإن أرفع مجد بلغته وأعظم جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشاد لهو الذى سموه بالحرمان والإبعاد ، فليس ما كان من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست من القوم الضالين — مفتى الديار المصرية محمد عبده) .

فى هذا الخطاب جلى محمد عبده لتو لستوى صورته ، وجلى لنا حقيقة محمد عبده ، فى جسارة رام يصيب بطلقة واحدة ، أهدافاً متباعدة ، فى قلوب الحكومات والجماعات ، فيندد بالأغنياء وينوه بالفقراء ، ويقرن اسمه بوظيفته (مفتى الديار المصرية) ، وهى دولة رأسمالية على رأسها صاحب ملك عريض وفى مرافقها جيوش من المستعمرين . بل يندد برجال الكنيسة الذين قرروا حرمان الفيلسوف ويعتبر الحرمان الدينى من القساوسة ، أعظم كسب ناله المحروم ! ويعلن أنه ليس من الضالين ليكون القساوسة — بمفهوم المخالفة — هم الضالين .

ومن ناحية أخرى كان صدى صوته يصدع مسامع الخديو ، مذ كان فى ربيع العام ذاته يأكل مال الأوقاف بالباطل ، ويضن بها على عمال المساجد وأئمتها ، والشيخ يمطره بالاحتجاجات فى شكل قرارات أو مذكرات إلى مجلس الأوقاف .

* * *

ولا يثنيه الألم من ظلم صاحب العرش فى مصر عن الأمل فى خدمة العلم عند صاحب العرش فى مراكش ، فيكتب إلى مولاى عبد العزيز يطلب أصلا من « مدونة مالك » لتطبعه جمعية إحياء

الكتب العربية التى يرأسها – وهى أولى جمعيات إحياء التراث الإسلامى – فيذيع بعملها فيقول : (. . . وخاصة عملها أن تبحث عما كان يفقد من كتب السلف وتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما اندرس من علوم الأولين . . وهى الآن تبحث عن مدونة الإمام مالك . . وقد تأكد الفقير (يقصد نفسه) أن نسخة كاملة من الكتاب توجد فى جامع القرويين . .) .

ولا تنام عينه عن المجاهدين : يقول فى رسالة جوابية إلى عبد الحميد الزهراوى من مجاهدى حمص بسورية : (فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك ، تجعل لهم حظًّا من عمل يومك . . أسأل الله أن يشد أزرك . . وأما صلتنا فصلة آمال وأعمال وهى خير صلة) .

وعبد الحميد الزهراوى واحد من الأبطال الذين سيقطع الأتراك رءوسهم فى الساحة العامة سنة ١٩١٦ .

* * *

والشيخ يستقبل الصحفيين الأجانب والمصريين والمستشرقين . وقد يجود الزمان على صحفى إنجليزى بمشهده على ظهر جواده فى صحراء عين شمس أو فى طريقه إلى داره فيصوره لنا فى (صورة إنسان يقول الناظر إليها إنها برزت من كتب الأنبياء الأقدمين شيخ حسن البزّة جهير يمتطى فرساً كميتا جميلا يقبل نحونا على مهل) . والرسول عليه السلام يقول «عليكم بكلّ كميت أغر محجل» .

والشيخ يصطاف فى كل عام بأوربا أو إسطنبول أو فى الشام وفى صحبته تلاميذ له أو فى الإسكندرية أو رأس البر حيث يصطاف معه قاسم أمين ، وكان يقول : إننى أجدد نفسى بالسفر .

وفى سنة ١٩٠١ رجع من أوربا فاستقبله مصطفى لطفى المنفلوطى بقصيدة شفت عن مواقف خصومه . وتقاطر الناس لاستقباله على محطة القاهرة ، وكثرة عمائم الأزهريين فيهم تستوقف النظر . وانطلقت الوفود تترى إلى داره بعين شمس حتى لتزيد قطارات السكة الحديد لمواجهة تلك المناسبة .

وفى سنة ١٩٠٣ عاد من رحلته للخارج فاستقبله تلميذه مصطفى عبد الرازق – وكان فى الثامنة عشرة – بقصيدة مطلعها :

أقبل عليك تحية وسلام   ياساهراً والمسلمون نيام

فكتب إليه الإمام :

(ولدنا الأديب :

خير الكلام ما وافق حالا وحوى من النفس مثالا . تلك أبياتك العشرة رأيتنى والحمد لله متربعاً فى سبعة منها كأنها الكواكب التى تسكنها الملائكةُ ومَا بقى كأنه الشُّهب نور للأحياء رجوم للأشقياء . . ما سررت بشىء سرورى بأنك شعرت من علم حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك . ذلك أنت ولله أبوك .

ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ وجه الفضاء . ولكنى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء أن يمتعنى الله من نهايتك بما تفرسته فى بدايتك . وأن يخلص للحق سرك ويقدرك على الهداية إليه وينشط نفسك لجمع قومك عليه . والسلام)[1] .

واستجابت السماء فأمسى مصطفى فى نهايته – كما كان طول حياته – خيراً كله خالصاً للحق سره .

وتكاثرت على يد الرجل الصالح أمارات عطف السماء بالاستجابة للدعاء والرجاء .

فى سنة ١٨٩٩ عين عضواً فى مجلس الشورى ، وكان رئيسه عمر لطفى باشا وقد أسلفنا اتهامه له وللخديو بالتآمر على الأمة سنة ١٨٨٢ . فكان الإمام يدعو الله أن يجد له مخرجاً حتى لا يوجه إليه كلمة وتأجلت الجلسة الأولى إلى أول أغسطس ومات الرئيس فى ١٧ يوليو .

ويروى الشيخ مصطفى قوله إذ ترك إدارة الأزهر سنة ١٩٠٥ (يظنون أننى بخروجى من الأزهر تركته مرعى خصيباً لشهواتهم (يقصد الخديو) ترتع حيث تشاء . إلا أننى ألقيت بين جوانح هذا المكان شعلة لا تنطفئ . إن لم تلتهب اليوم أو غداً ، فستلتهب فى ثلاثين عاماً فتكون ضراماً) .

وفى أقل من نصف هذا الأجل قامت ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة تلاميذه . وكان الأزهر ضراماً يلهبه تلميذه « الشيخ الزنكلونى » إذ يخطبه . وفى سنة ١٩٣٠ صب الزنكلونى غضبه على الملك فؤاد ، ففصله وعشرات من تلاميذه العلماء .

* * *

والشيخ قارئ لا تغمض عيناه عن الصحف الواردة من الخارج وقد يترجم ما يعجبه لينشر فى

---

(١) أثر هذا الفيض من المحبة فى تنشئة التلاميذ ليس له حدود . وهو الذى زاد العلاقة بينهم وبينه وثاقة . اقرأ كتابه القصير إلى أمير البيان شكيب أرسلان (١٨٧٩ – ١٩٤٦) – تلميذه فى المدرسة السلطانية إذ يكتب إليه شكيب – بعد عامين من تركه المدرسة – يستشيره فى القدوم إلى مصر.

(حضرة الأمير الفاضل – من نحو ساعة وصلنى رقيمك . . . وقد زال عنى ما كنت أجد من تأخر رسائلك . . وكان أحب إلى أن تسبق كتابك . . . أما الفخام فلا أرى فيهم فخيماً وسواء لا قيتهم أم لم تلقهم فأنت عندى أفضل من جميعهم . وإنك إن تلقهم لم تلق شيئاً . فتعال وليكتف كل منا بصاحبه . . . وأما المصاريف فلا تحتاج فيها لغير المراكب والوابورات حتى تصل إلى القاهرة . . . وأقم ماشئت فلن تجد سائماً ولا مالاً ولا متبرما . فقم فى أول وابور إن شئت والسلام – ليلة ٩ فبراير ١٨٩٠) .

ويروى الأمير شكيب أنهما مرا ذات ليلة أمام دار فيحاء فوقف الإمام وقال : هذا بيت صاحبنا . وتنهد . . دار محمود سامى (البارودى باشا) وقال شكيب : لم يتنهد على غربة سامى . بل على غربة مصر .

ولم يجمعه الإمام بالفخام بل زار معه سعد أفندى زغلول – وكان محامياً – والشيخ على الليثى . فهذان مستقبل مصر وماضيها . وأصحبه الشيخ عبد الكريم سلمان ليزور بعض العلماء فلاحظ على الشيخ الأحمدى الظواهرى أنه لايعرف أين يوجد جبل لبنان . فى الغرب أم فى الشرق.

مجلة المنار[١] وعيناه على صحف الداخل يقرأ مقالاً عن انتخاب الجنرال جارفيلد رئيساً للولايات المتحدة فيكتب (. . إن هذا الرجل لم يصل إلى ما وصل إليه بلزوم أعتاب الكبراء . . هكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس بالصفات الفاضلة وسعة المعلومات وبذل الجهد فيما يعود على البلاد من الخير) .

ويقرأ فى جريدة المؤيد سنة ١٩٠٠ ترجمة لمقال (هانوتو) وهو وزير خارجية سابق لفرنسا يزرى فيه بعقائد المسلمين ليبرر استعمار بلادهم فرد عليه الإمام بقوة . واستفتح بنفى النزاهة العلمية للباحث ، بقدح كأنه مدح قال :

(قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو تتميماً لبحثه السابق – وبحثه دافق من غيرته على شئون دولته) واستطرد لمناقشة قوله إن فكرة (الإله الإنسان) ترفع قيمة الإنسان وتدفع إلى الجد والدأب وإن عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر تدفعهم إلى الخمول .

ومن حجج الشيخ الكثيرة فى رده واحدة تكفى لإدحاض رأى هانوتو وهى أن بالقرآن ٦٤ آية تثبت حرية الإرادة الإنسانية – فالإجبار الذى نسبه هانوتو إلى المسلمين ليس من الإسلام[٢] وهو فى غير موضع ينبه على أن السعادة التى يعيش فيها الآخرون مفتراة . يقول : (قد يمر بخاطر الإنسان أن يسأل . . . وما بالنا نرى من غير المؤمنين من متع بالسعادة فى هذه الدنيا أمما وأفراداً وترى من المؤمنين من يغمره الشقاء أمماً وآحاداً . . . فندفع عنه الخاطر بأن مايراه فى بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب . . . قال ماكس نوردو فى كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدننا) .

(إن الناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ولم يكونوا فى زمان أبعد عنه منهم فى هذا الزمان) ثم قال ماترجمته « أنك لو طرقت أى باب تسأل : هل مرت السعادة بهذا البيت لأجابك مجيب : إذا شئت فاطرق باباً آخر فإن السعادة لم تمر ببيتنا » وهو يقول ذلك بعد أن ذكر حال الأمم الأوربية جميعها . .) .

---

(١) مثل ترجمته نبذة قرأها فى جريدة فرنسية لحديث البرنس بسمارك (مستشار ألمانيا) عن الإحساس بالله الذى يدفع الجنود إلى التضحية بالنفس منها قوله : (لو لم يكن لى إيمان بالعناية الإلهية التى قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير وأثر باطن لطرحت لساعتى ما حملته من أثقال الوظائف . . . ولولا يقينى بحياة بعد الموت ماكنت من حزب الملكية . . . لولم أكن مخلصاً فى دينى لوليت ظهرى جميع الحاشية . .) ويعلق الشيخ على ذلك بقوله (الإعتقاد بالله واليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما (بسمارك) إلى مالم يدركه فيه مفاخر ولم يكثره فيه مكاثر) .

(٢) فى هذا العهد هاجر إلى مصر من العراق عبد المحسن الكاظمى الملقب بشاعر العرب فهلل للإمام فى قصيدته العينية وفيها يقول :

فجاءوا إلى الإسلام يعترضونه سفاها فشاموا أن واديه مسبع
وأقسم أنى لو شحذت مقالتى لراح بها (هانوت) وهو مضّع (مقطع)

وكان مصطفى كامل فى عشريناته قد امتدت الأسباب بينه وبين الخديو . لكن الإمام لا يغفو عن فرطاته إذا أعطى رأس العائلة المالكة مجداً لا يستحقه ، عندما اقترح إقامة احتفال قومى يوم ٢١ / ٥ / ١٩٠٢ لمرور مائة عام هجرى على تولية محمد على فطلع على الناس مقال من نار فى مجلة المنار لسان محمد عبده [١] ، يضع أمر عرش محمد على فى نصابه ، حتى لا تطمس حقائق حكمه بتحيات زيوف ، وبهذه الثورة على (محمد على) سبق الإمام قومه بخمسين عاماً تماماً .

ولم يمنع هذا الخلاف المتعدد الأطراف بين الأستاذ الإمام من جهة وبين أسرة محمد على وأذنابها من جهة أخرى وبينه وبين مصطفى كامل من جهة ثالثة ، أن يحضر فى ١٩٠٢/٢/٢٧ احتفال مدرسة مصطفى كامل بتوزيع جوائزها . حيث كان رئيس اللجنة الأمير محمد إبراهيم ووكيلها حسن عاصم ، فالتعليم صيحة الجهاد التى أطلقها . وهى الآن تتردد فى كل مكان .

* * *

---

(١) إليك بعض ماجاء فى المقال :

(ماالذى صنعه محمد على ! لم يستطع أن يحيى ولكن استطاع أن يميت . كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، أخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً . . وتكرر هذا مراراً حتى فسد بأس الأهالى وزالت ملكة الشجاعة فيهم . . أخذ يرفع الأسافل ويعليهم فى البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ، ورثه عن أصله الكريم ، حتى انحط الكرام وساد اللئام . . . ليصير البلاد المصرية جميعها إقطاعاً له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة .

ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع للسلطان العثمانى فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب أوالأوربيين ، فأوسع لهم فى المجاملة وزاد لهم فى الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات . . . فاجتمع على البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذل سامهم الأجنبى إياه . . . قالوا إنه أطلع نجم العلم فى سماء البلاد . نعم . عنى بالطب لأجل الجيش وعنى بالهندسة لأجل الرى . . ليستغل إقطاعه الكبير .

هل فكر فى إصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرنؤودية ؟ هل فكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر فى باله أن يجعل للأهالى رأياً فى الحكومة فى عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن من ذلك شىء! أين البيوت المصرية التى أقيمت فى عهده على قواعد التربية الحسنة . ؟

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا فى البلاد ما استفادوا ؟ كلا . . .

أين الزراعة والصناعة . .

هل شعر مصرى بعظمة أسطوله ؟ . .

أى دين كان دعامة لسلطان محمد على ؟ دين الكرباج ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده . وإلا فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الإسلامى الجليل ؟

لايذكرون إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين . نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدله بشىء من النقد يسمى (فائض رزنامة) لايساوى جزءاً من الألف من إيرادها وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر مالوبقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة وقرر له بدل ذلك مايساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة !) .

وقد حان الوقت لإنشاء جامعة بأموال الشعب بعد أن أثبتت المدارس الأهلية قدرتها . [١]

والجامعة وحدها هى القادرة على إحياء الحضارة العربية القديمة ونشر الحرية الفكرية . ومن أجل ذلك رحل فى سنة ١٩٠٣ إلى أوربا ، فزار فرنسا – بعد أن أصدر وزير معارفها إذنا له بزيارة معاهده – وقصد إلى المؤرخ المستشرق الذى أنصف الحضارة العلمية العربية (جوستاف لوبون) وكان الإمام قد كلف فتحى زغلول بتعريب مؤلفه ، فوجده على سفر . وأبحر إلى إنجلترا فزار جامعتى أكسفورد وكمبردج – أعظم جامعتين فى ذلك الزمان – ليشهد النشاط الجامعى على الطبيعة ، ويعود إلى مصر بآرائه . وندبت أكسفورد المؤرخ (بويل) لصحبته واستقبلته هيأة التدريس فى كمبردج على المحطة وفى كمبردج صلى وراءه المستشرق (ادورد براون) .

فى لندن لقى الفيلسوف البريطانى (هربت سبنسر) وسنقرأ فيما بعد فى مذكرة دأب على أن يحتفظ بها فى جيبه – ملاحظة إمام المسلمين على إفلاس الفلسفة : (حار الفيلسوف فى حال أوربا وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء ؟ الرجوع إلى الدين . الدين هو الذى يكشف الطبيعة الإنسانية ويعرفها لأربابها فى كل زمان لكنهم يعودون فيجهلونها) .

وفى العام ذاته سافر إلى الجزائر حيث فسر سورة العصر . وإلى تونس حيث ألقى محاضرة سنعود إليها . ومر فى أثناء عودته بصقلية فرسم الصورة الأدبية الناطقة فى مقاله الكبير (رحلة صقلية) ، ليتعلم عليها دقة الوصف وبراعة التصوير ورقة التعبير وفصاحة اللفظ حافظ إبراهيم ومصطفى عبد الرازق ومصطفى لطفى المنفلوطى . والأول شاعر النيل والأخيران أرق وأرقى أصحاب الأسلوب فى هذا القرن .

فإذا انضاف هؤلاء الثلاثة العظماء إلى الزعيم سعد زغلول ، أخطب العرب فى هذا العصر

---

(١) نشر جبر فيل بعد وفاته عن التعليم المصرى فى عهده (إنه لايكاد يقدر إلا على تعليم رجل محترف ومن المستحيل أن يستطيع هذا التعليم تكوين عالم أوكاتب أو فيلسوف فضلاً عن تكوين نابغة . . . فلا ترى فى الطبقة المتعلمة الرجل الباحث ولا المفكر ولا الفيلسوف ولا العالم ولا ترى الرجل ذا العقل الواسع والنفس العالية الكريمة أو ذلك الذى يرى حياته كلها فى مثل أعلى يطمع فيه ويسمو إليه)

وكان الإمام يرى أن مهمة الجامعة (تقوم على تعليم العلوم وفقاً للمناهج الحديثة وتسهم فى تجديد الحضارة العربية القديمة) .

وقد عبر حافظ إبراهيم شاعر الإمام عن اغراض الجامعة فى قصيدته ومطلعها :

حياكم الله . أحيو العلم والأدباء ... إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا

ولا حياة لكم إلا بجامعة ... تكون أماً لطلاب العلا وأبا

وأخطب الخطباء فى تاريخ مصر [١] ، تكاملت بين أيدينا أبعاد واضحة لإمام صانع أئمة ، يقتدى بهم كل من كتب أو نطق باللغة العربية فى القرن العشرين للميلاد أو بعده . مما يسوغ لنا أن نقرر أن إصلاح اللغة العربية على أيدى مدرسته هو واحد من أكمل إنجازاته .

فى هذه الفترة طلب إليه بعض المستشرقين (بلنت وآخرون) أن يكتب ترجمة حياته فتوقف مليا ثم أنشأ يكتب ، ولم يتمم . وكان ماكتب فيها قمة أدبية كرحلة صقلية[٢] .

(١) يشهد لبلاغة سعد القضائية لغة أحكام هى المثل الأعلى للقضاة وشهادة الهلباوى لمرافعاته . إنه كان « أعجوبة المحاكم » أما الشهادة له كخطيب عالى ففيها قول خمسة من أعلام اللغة العربية فى هذا القرن لم يكن فيهم واحد من حزبه : هم السكندرى وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى وعلى الجارم وأحمد ضيف قالوا فى كتابهم تاريخ الأدب العربى (أخطب الخطباء غير مدافع وأفصح الفصحاء غير منازع . يجمع إلى جهارة الصوت فصاحة المنطق وسلامة الألفاظ وبراعة التعبير . كأنه سيل لا يعوقه شىء بل إنه يجرف فى سبيله كل شىء) ويقول حافظ ابراهيم [... فلو أنك عرضت على سعد ملك الرشيد على أن يهجر الخطابة لنـأى عنه بجانبه ولرجع مهرولا إلى الزعامة فإن أفلتت فإلى المحاماة] .

(٢) هزت رحلة صقلية مشاعر الأستاذ الإمام ففاض قلمه بأحاسيس فى كل باب : فالعرب قد دخلوا إسبانيا سنة ٩٣ وغلبوا على جنوب فرنسا حيث مصبا نهرى الرون والجارون ، وكما يقول المؤرخ الإنجليزى جبون : (كان فى وسعهم لو مشوا ألف ميل أخرى أن يصلوا إلى مرتفعات سكوتلندا شمال إنجلترا أو حوض الراين شمال ألمانيا) أما صقلية فقد فتحها قاض هو أول قاض عقد له لواء الأسطول – أسد بن الفرات سنة ٢١٢ – وهو فقيه بدأ مالكياً وانتهى حنفيا فهو قاض فقيه حنفى مالكى ، مثله . ومن صقلية والأندلس بدأ غزو العلم الإسلامى لعقل أوربا وأنشئت فى أوربا جامعات بتمامها لترجمة علومهم ولهذا كانت إيطاليا مهد النهضة العلمية وإسبانيا أسبق الدول إلى القوة فى العصور الحديثة .

يبدأ الأستاذ الإمام مقاله الكبير (٢٥ صحيفة من القطع الكبير) تعرض سياحة الإمام فيها خمسة أيام لم يضيع منها دقيقة . ولكل حرف أو كلمة رنينها ومغزاها . فاستفتح بآية من سورة الحج يناسبها المقام : (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها . .) وتلاحقت درر الوصف والتعليق ، وحسبك هنا كلمات تنم عن سائر المقال .

(. . . توجد كنيسة الملك . ولا حاجة إلى وصفها كذلك . إلا لو كان الله يحب أن تزين له معابده وتنقش لمجده مساجده كما يحب ذلك ملوك الأرض . . . فوجدت فى الممر . . حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة : (. . . خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية . . بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسمائة) . ثم فى أعلى الحجر سطور بالحرف اليونانى يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هى حضرة الملك روجار النورمندى الذى دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب وكان لسانه الرسمى فى حكومته اللسان العربى واليونانى . . .

. . رأيت فى خزينة الجواهر من قصر الملك صندوقاً عربياً فى طول نحو ثلثى ذراع .... وهى من صنع العرب أيام دولتهم . .) .

(. . . لذلك كان نائب الملك يصحبه كردينال . . . كما نقول عندنا المفتى أو شيخ الإسلام فى عهد الملوك الذين لاتسمح أوقاتهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون إليه . غير أن المفتى أو شيخ الإسلام إنما يجيب على مايسأل عنه أو يؤدى ماكلف به ، أما الكاردينال فكان يبتدئ فى المشاورة ويقترح المطلب ويقيم نائب الملك على المذهب ويكف يده عن العمل الذى لا يرضاه ويحمله على بسطها فيما يتوخاه كانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية فى نظام واحد لافصل فيه بين السلطتين . . .

ثم أخذنى السادن إلى قبة قريبة من الكنيسة وقال لى : إنها على شكل عربى . . . أخبرنى أن الإسبانيين عندما غلبوا على سيسليا (صقلية) سلبوا ما كان فى هذه الكنيسة . . بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معى : يظهر أن كل فاتح يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئاً من عمل من سبقه . فكان كل منهم يقوم بما يراه واجباً عليه) ويقول لينصف العرب من أعدائهم ومن أنفسهم :

ولما نشر فرح أنطون فى مجلة الجامعة بحوثاً تفيد محاربة الإسلام للحرية الفكرية كتب الإمام رده الخالد وسنعود إليه بعد .

ابن أبيه

« ولى الأمر » أمير يحكم بالشرع ويرد الأمر عند الحاجة إلى أولى العلم بالشرع .

ويوم تتعطل الشريعة ويتوارى العلماء يتراءى الأمراء الفسقة ، كهيئة بنات آوى ، فى جلود أسود :

كانت فرنسا ومؤسساتها الدستورية وصحافتها ضائقة الصدر بإنجلترا لانفرادها باستعمار مصر . فوسع صدرها جهاد المصريين . ومن ذلك صدرت العروة الوثقى فى باريس سنة ١٨٨٤ وبلى مصطفى كامل الخطب ونشر المقالات فيها فى التسعينات من القرن ، وأغرم بالدراسات الفرنسية حتى ليترك مدرسة الحقوق الخديوية ليتخرج بشهادة من كلية الحقوق فى تولوز سنة ١٨٩٤ وهو فى العشرين . كما كانت الحكومة تبعث بعثاتها إلى فرنسا لدراسة القوانين الفرنسية المطبقة فى مصر .

فلما كان الثامن من أبريل سنة ١٩٠٤ عقدت فرنسا وإنجلترا ماسماه المؤرخون (الاتفاق الودى L'Èntente Cordiale وفى أولى مواده نص صريح (ليس فى نية إنجلترا تغيير سياستها الحالية فى مصر وتتعهد فرنسا من جانبها بألا تعرقل عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى) .

هكذا اتفق الطرفان على دوام الاحتلال ولم يبق لمصرى أمل فى فرنسا . وأوجس الخديو خيفة على عرشه فصنع ماصنعه أبوه ، فوقف تحت العلم البريطانى فى ١٩٠٤/١١/٩ عيد ميلاد ملك الإنجليز .

= (ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسوا هذه الكنيسة بسوء برغم عظمة سطوتهم . . .ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ممن كان يهدم مساجدهم ويخرب معابدهم . فحيا الله أيامهم . . .)

لقد استولى العرب بعد فتح صقلية على كنيستى القديس بطرس وبولس فى روما سنة ٢٣٣ هـ – ٨٤٦ م للهجرة ثم جلوا عنهما مصونتين . . .

ويستطرد الأستاذ الإمام فيقول : موجهاً الكلام لكل العصور (لاجرم أن الإسلام عربى وأحق الناس برعايته والوقوف عند حدوده – بعد فهم حقيقته – هم العرب . فأين هم ؟

يمكن أن يقول قائل : فى جزيرة العرب أو الشام أو العراق أو فى مصر أو الجزائر أو تونس أو المغرب الأقصى . أفلم يكفك هذا العدد فى أكثر من ألف بلد ؟ . . ولكنى أقول له : إنما يكون أولئك إذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم . فإن لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم فليسوا بهم . فلى الحق أن أقول عن العرب : فأين هم ؟ . . .) .

وقبل تعيين ياور انجليزى له ! وأكب على وجهه يلتمس كل فرصة للثراء . كالمحكوم عليه بالإعدام إذ يستكثر من الطعام[١]

وأخذ يناور مصطفى كامل . فقطع الزعيم الشاب صلته به فى أكتوبر سنة ١٩٠٤ . ثم أصلاه ناراً حامية فى (اللواء) يوم أحال للمعاش حسن عاصم فى ١٩٠٤/١١/٢٦ إذ أخفقت المؤامرة بين الخديو و (زرفوداكى) على مجلس الأوقاف لمبادلة أراضى بناء له فى الجيزة بتفتيش « مشتهر » . ولم يعد الخديو يطيق جوار الشرفاء .

وساء استسلامه للإنجليز كل من قاربه حتى ليترافع الهلباوى ضده ، وهو مستشاره ، عن متهمين بسرقة من جزيرة له تسمى جزيرة الزبرجد . ثم يترافع ضده عن أحمد حلمى عندما اتهم بالقذف فى الخديو – بعد أن لوح رئيس الوزراء مصطفى فهمى ووزير العدل (رشدى) للهلباوى بأن الخديو لايقبل ذلك – فأدرك قصدهما وقذف فى وجه الخديو بوظائفه الثلاثة : ثم ترافع !

* * *

لكن جشع الخديو لا يمنع بيوت الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه .. وكان الإمام قد استصدر قراراً من المجلس الأعلى للأوقاف فى ١٨ فبراير سنة ١٩٠٤ بزيادة ميزانية المساجد ومرتبات الأئمة بمبلغ ١٨٠٠٠ جنيه ، فأصدر الخديو قراراً فى ١٩٠٤/٥/٣١ بوقف القرار حتى لاتتحمل أوقافها – وهى فى نظارته – مبلغ ١٨٠٠٠ جنيه ، فقدم الإمام – باعتباره عضواً فى المجلس الأعلى – مشروع قانون من ٢٣ مادة ومذكرة إيضاحية مما قاله فيها :

(وحيث إن هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بإيقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من « جناب ولى النعم الأفخم » وحيث إن ترك هؤلاء الخدمة (للمساجد) تهلكهم المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون ، ليس مما يليق بمصلحة خيرية تجود بالكثير من أموالها فى وجوه البر والخير على الفقراء والمساكين ، وأجدر بها أن تفيض بشىء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة هذه المحال الطاهرة . . .) .

* * *

وليس بدعاً وقد استوثق الخديو لنفسه بالزلفى إلى الإنجليز ، أن يبعث إلى اللورد كرومر بميزانية المساجد كأنما يشكو حملة محمد عبده عليه ، ثم يرفع السرّاق الأقنعة ويعلو فحيح الأفاعى فى الأزهر

---

(١) خاطب حافظ إبراهيم مصر فى أعقاب الاتفاق الودى بقصيدة كبيرة مما جاء فيها :

أيعجبنى منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبى
وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها الطبيب (المتنبى)
أمور تمر وعـــيش يمر ... ونحن من اللهو فى ملعب

وفى الصحف أو تقدم الشكاوى ضد الإمام من المشايخ [١] أو يرتفع الصوت الكريه للصحف المأجورة . أو تطلع إحداها بصورة لمفتى الديار يخاصر امرأة أجنبية وكلبها يعبث بأطراف جبته ! ويثبت الطبيب الشرعى تلفيق الصورة . فكلها صحف أطلقتها أموال ولى النعم . يقول عنها أحمد بك قمحة قاضى محكمة عابدين – وهو من فحول رجال القانون .

(وحيث إنه مما يدعو إلى الأسف ظهور بعض جرايد فى هذا العهد يحررها أناس منزلتهم من العلم والفضل تدور بين الشك واليقين . حتى لقد يقود زمام بعضها من لادراية له بشىء من القراءة والكتابة على الإطلاق مثل صاحب جريدة الفونوغراف فإنه من الأميين كما ظهر فى قضية شهد فيها أمام إحدى المحاكم حيث وقع الشهادة بالختم مُصرحاً بأنه لاعلم له بالكتابة . . . وحيث إن الضرر على المجتمع الإنسانى من وجود تلك الوريقات المنحطة التى لاتنطق إلا بسفساف القول . . .) .

قضية النيابة ضد صاحب جريدتى البابلد وغلو المصرى والأرنب . وكان عنوان المقال موضوع المحاكمة (المستر محمد عبده مفتى الديار المصرية) حكم ١٩٠٤/٢/٦ .

فى هذه الأثناء كان النصحاء – مبعوثين ومتطوعين – يراوضون الإمام على ماروى الشيخ رضا حيث قال :

(ومن هؤلاء الناصحين العارفين أو أمثلهم خليل باشا حمادة الشهير الذى تولى الأوقاف العامة بمصر ثم وزارة الأوقاف فى الأستانة .

خرجت معه (الإمام) ليلة من الأزهر بعد العشاء كعادتنا فى ليالى دروسه فقال لى إن حماده باشا عندنا فاذهب بنا إلى عين شمس نتعشى معه . فذهبنا . فكان جل حديث الباشا معه فيما جاء من الإسكندرية لأجله هو إقناعه بترك الخديو يتصرف فى الأوقاف كما يشاء لأجل أن يتركه يتصرف فى إصلاح الأزهر كما يشاء . وكان يقول له على المائدة مراراً (ياسيدى الأستاذ أبوس إيدك . والله إن إطلاق الحرية لك فى إصلاح الأزهر خير لك وللإسلام والمسلمين فى الدنيا والآخرة من كل ماتوفره من مال الأوقاف لديوانها . .) . قال الأستاذ الإمام – عفا الله عنه – أنا أعلم هذا . ولكن وجدانى ومراقبتى لله تعالى لاتمكننى من إقرار ما لا يبيحه الشرع . والباطل لايكون وسيلة إلى الحق) .

---

(١) فى الوقت الذى كان المشايخ يصنعون ذلك كله كان محمد عبده يصنع صنيعاً آخر ذكره فى تأبينه خليل مطران بعد شهور – وهو صاحب جريدة الحوائب المصرية التى كانت تنشر للمشايخ ضده – (إن أنجال المشايخ بالأزهر كانوا يتناولون مرتبات آبائهم بالوراثة فرأى الأستاذ فى ذلك غبناً للعلماء لأن هذه المرتبات إنما هى وقف عليهم فأعاده الأستاذ إليهم وعوض أنجال المشايخ بما كان يجمعه بسعيه فى رأس كل شهر من أمواله وأموال محبيه . ولقد شوهد وهو ساع هذا السعى عقب اعتزاله الأزهر وقيام الشيوخ فى وجهه محاربين) .

فى أواخر ذلك العام دعت حكومة السودان الإمام لزيارته فزاره فى النصف الثانى من يناير سنة ١٩٠٥ وهو الذى يرشح له قضاة وأساتذة فى كلية جوردن وبهذا سُعد السودان بأعظم العلماء : محمد الخضرى وعبد الوهاب النجار وقضاة القضاة محمد هرون ومحمد شاكر ومحمد مصطفى المراغى .

* *

عاد الأستاذ الإمام فى شهر فبراير فلم يكد يصل حتى نفث الخديو حقده جهرة فى شكل طلب إلى مجلس إدارة الأزهر بمنح كسوة التشريفة للشيخ راشد إمام حاشيته . ورفض المجلس لأن القانون يشترط أن تمنح لأكابر العلماء . . .

وإذا بصحيفة الخديو (المؤيد) تبدأ الحملة على إصلاح الأزهر – وهى المعروفة بصلتها بالخديو .

فنى ٥ المحرم سنة ١٣٢٣ (١٠ مارس ١٩٠٥) تحت عنوان (خطاب مفتوح إلى سمو مولانا الخديو المعظم) نشرت خطابا وقعه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى يقول فيه (وأرجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس (معاهد الأزهر) بعنايتكم وأن تقطعوا منها جرائيم الفساد والانحطاط) .

وفى ٧ المحرم يعقب خليل مطران فى صحيفة الجوائب المصرية بحديث أجراه مع الشيخ الشربينى سأله فيه (ماذا يرى مولانا فيما قام اليوم يلتمسه الشيخ الظواهرى ؟) مما يدل على أن الجوائب تلاحق المؤامرة . وأجاب الشيخ الشربينى (الظواهرى إنما نطق بلسان كل محب للأزهر) .

وفى ٩ المحرم أعاد المؤيد نشر حديث الشيخ الشربينى بتمامه مع الترويج له مما يدل على أن الخطاب المفتوح والحديث التالى له حلقتان فى سلسلة .

وفى ١٠ المحرم استقال شيخ الأزهر الشيخ البيلاوى .

وفى ١٣ المحرم عين الشيخ صاحب الحديث شيخاً للأزهر . .

أما صاحب الخطاب المفتوح (الشيخ الظواهرى) فسيُعيَّن شيخاً للأزهر عقب استقالة المراغى – من جراء إصلاح الأزهر سنة ١٩٢٩ ويفصل الظواهرى تلاميذ محمد عبده والمراغى كما سنرى بعد .

وفى ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣ (٢٢ مارس سنة ١٩٠٥) أقيمت حفلة إلباس كسوة التشريفة الكبرى لشيخ الأزهر الجديد وحضرها مفتى الديار وخطب فيها الخديو فأنب شيخ الأزهر لرفض المجلس منح الكسوة لإمام حاشيته . . ثم أضاف « أن أول شىء يطلبه هو أن يكون الهدوء سائداً فى الأزهر وألا ينشغل علماؤه إلا بتلقى العلوم البعيدة عن الزيغ وشغب الأفكار » وأضاف « ان فى المجلس عضواً ينوى أن يستقيل » . وأدرك الحضور قصده . وفى الإمام حدة أثبتها على نفسه فى لقائه لوزير الحربية الانجليزى سنة ١٨٨٤ لدى مواجهة السلاطة من أصحاب السلطة . لكن العواصف لاتزلزل جنانه أو

تزل لسانه . هناك أفحم وزير الحربية البريطانية فى مكتبه ، وهنا سنراه يساقط من قمة المعرفة على الخديو ، فى قصره ، درساً فى القانون ، دون أن يسقط حقاً للأزهر .

قال : (إن للمجلس قانوناً أصدره الخديو فإذا رأى أن يكون منح كساوى التشريف بناء على إرادته الشخصية فليصدر قانوناً جديداً بمايراه) فاحمار وجه الخديو ووقف لينهى المجلس .

ولم تكن المسألة تتعلق بالدين ليتعين على الإمام أن يجبه الخديو برده بل هى مسألة حق لمجلس الأزهر ، قد يجزئ فيها مذكرة تكتب فى الغداة ، لكن دفع العدوان على الأزهر ديدن الإمام . ومن الحزم مبادرته فى موقعه كيلا تكون للخديو الكلمة الأخيرة .

ولئن جبن الخديو مرتين فى هذا الموقف الواحد حين لم يذكر الأسماء وحين أنهى الجلسة ، إن الأستاذ الإمام شجع مرتين ، إذ جبهه برده ولم يستقل بناء على تلويحه ، فلو قدم الاستقالة من فوره لأشبهت أن تكون بناء على أمر الخديو وأن تكون إقالة وإذن لسجلت للخديو سلطة على مجلس الأزهر .

* * *

رجع الإمام إلى داره منتصراً لكنه استشار رجاله فأشار سعد وفتحى وقاسم ومحمد راسم عليه بالاستقالة حتى لايتجه بطش الخديو إلى الأزهر ذاته ، فبعث الإمام بها إلى شيخ الأزهر رئيس مجلس الإدارة فى ٢٠ محرم سنة ١٣٢٣ ، ٢٥ مارس سنة ١٩٠٥ واستقال عبد الكريم سلمان متضامناً معه .

* * *

روى الشيخ رشيد رضا أنه حين قدم إلى مصر فى آخر سنة ١٣١٥ (١٨٩٧) لخص له الأستاذ الإمام واقع الحال أيامئذ :

١ – أن إصلاح الأزهر إصلاح لأهل الإسلام وخدمة للإسلام .

٢ – أن عقبة كؤودا تقف فى وجه الإصلاح هى عقلية المشايخ .

٣ – أن الإصلاح طويل الأمد لو شهده فى حياته لمات سعيداً .

٤ – أنه حاول أن يبدأ بعظائم الأمور وأشاروا عليه بالتدرج .

٥ – أنه لافائدة له من العمل فى الحكومة إلا تمكينه من إصلاح الأزهر وأنه لم يحصل إصلاح يذكر حتى سنة ١٣١٥ (١٨٩٧) .

وروى أن قرار إنشاء مجلس إدارة الأزهر نص على أنه لا يجوز لمجلس الأزهر ولا لشيخ الأزهر عزل محمد عبده أو عبد الكريم سلمان .

وروى قول الإمام له ذات يوم، : إما أن يعمر الأزهر أو يتم خرابه – فإذا يئست من إصلاحه تركت الحكومة واخترت أفراداً أربيهم لينهضوا بالدعوة .

وروى أنه لما استقال عزم على بناء دار فى جواره لذلك الغرض لولا أن عاجلته منيته .

قالوا إن لسعد كلمة مشهورة قالها له من قبل « سيفسدك القوم قبل أن تصلحهم » ولم يكن أحد ليفسد الإمام وحياته جهاد لمقاومة الفساد . وإنما كان للإمام – فى مواجهة السلاطين – مكان تدخره له السماء فى جوار أئمة الفقه الأربعة . : مات أبو حنيفة – وهو يصلى – فى سجن أبى جعفر المنصور . وخلع كتف مالك والٍ له . ولقى تسعة من زملاء الشافعى مصارعهم بين يدى « الرشيد » ويديه ، ولم ينج إلا بحسن دفاعه . وحمل ابن حنبل فى أصفاده إلى مقر المأمون وهو حامل سيفه ليقتله فمات حامل السيف وحيي إمام المسلمين .

والأذى فى سبيل الله هو الذى يرفع العظماء إلى مقام الشهداء .

* * *

فلنراجع – بعد تقادم الزمان – قول الإمام إن صاحب العرش لايملك الخروج على قانون أصدره ، إلا بناء على قانون جديد ، فذلك هو المبدأ الدستورى الذى يحاول الطغاة دائماً أن يتجاوزوه .

ولنراجع حديث الشيخ الشربينى (فى ٧ المحرم سنة ١٣٢٣ ، ١٢ مارس سنة ١٩٠٥) حيث قوله لخليل مطران :

١ – (إن الخدمة التى قام بها الأزهر للدين ولايزال يقوم بها هى حفظ الدين لاغير ، وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للأزهر به ولا ينبغى له) .

٢ – (إن الذى حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الدينى فيه ويحول المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفئ نوره فى هذا البلد وغيره) .

(وإنى أسمع من سنوات بشيء يسمونه حركة فى الأزهر وإصلاح الأزهر ولكنى لم أر لهذه الحركة وهذا الإصلاح من نتيجة سوى انتشار الفوضى فى ربوعه) .

وترى – بادى الرأى – أنه لو لم يكن للأزهر علاقة « بعلوم الأعصر » لبخع نفسه . وأن دعوى الشيخ عن محاربة الدين وانتشار الفوضى بدراسة الفلسفة والأدب تظهرنا على علاقته بالدنيا : أنه لايموت فيها ولا يحيا .

* * *

قدم الشيخ مصطفى عبد الرازق فيما بعد صورة لما حدث بأسلوبه الأدبى المبدع فى مقال مؤرخ

٥ ذى القعدة سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥) فقال :

(وبمناسبة استقالة الشيخ المفتى قص علينا اليوم فى الدرس الشيخ م . ر – قصة تتعلق باستقالته من مجلس إدارة الأزهر قال .

« لما حمل حموده بك عبده اخو الشيخ الاستقالة إلى الشيخ الشربينى فى الأزهر قال : ماذا جرى حتى يستقيل الشيخ المفتى ؟ لقد كنت مغتبطاً بمعونته فيما نهضت به . هل من سبيل لصرفه عن عزمه ؟

قال الرسول : إنه مصمم على تنفيذ نيته . وهو على ذلك قد كلفنى أن أخبر فضيلتكم أنه رهن إشارتكم فى كل ماتندبونه له . تأوه أستاذ الشيوخ وقال :

لاحول ولاقوة إلا بالله وظهر عليه التأثر .

قال الشيخ م .ر . فى الحقيقة إن الشيخ الشربينى لم ينتبه للسبب الحقيقى لاستقالة المفتى من الأزهر وهو أن التعريض القاسى الذى ورد فى خطبة الاحتفال بإلباس الشيخ الشربينى الخلعة يقضى عليه بالاستقالة . . .

قال الشيخ م . ر .(كان المفتى مستمعاً للخطبة منصتاً . أما الشيخ الشربينى فلم يلق إليها بالاً . كنت قريباً منه تزاحم هتافه بالاستغفار رنات صوت الأمير فى أذنى . وكان غاضًا من بصره حتى لقد نبهته عندما نهض الأمير مؤذناً بالانصراف . فجعل يعتمد علىّ بيده مكرراً ذكر الله حتى خرجنا من قصر الإمارة) .

من حق الشيخ الشربينى أن يذكر كفقيه شافعى ذى كفاية ، ومن الحق أن نذكر أن المشيخة والإدارة كانتا فوق طاقاته [1] ولهذا غض بصره واستخفى فى طلب المغفرة ولم يلق باله إلى ما أصابه والأزهر معه !

وكان محمد عبده صادقاً فى تعهده بأداء الخدمة العامة لله والوطن فقد رأس بعد أسبوعين لجنة الإعداد لمدرسة القضاء الشرعى .

ولم يك بد من اشتعال الفتنة فى الأزهر واستقالة الشيخ الشربينى وعودة الشيخ حسونة عقب وفاة الإمام .

---

(١) ولو قدر على شئون مشيخة الإسلام . لتذكر موقف عز الدين بن عبد السلام – وكان شافعياً مثله – عندما عرضوا عليه أن ينكسر للسلطان ويقبل يده لتعاد إليه مناصبه فأجاب (ياقوم أنتم فى واد وأنا فى واد والله ماأرضى أن يقبل يدى) .

لكل أجل كتاب .

ويضع مصطفى عبد الرازق تاريخ ٣/٥/١٩٠٥ لنبذة جاء فيها :

(الشيخ المفتى مريض . ويظهر أن داءه لسوء حظ المسلمين عضال أتيته أعوده فى داره بعين شمس ضحوة اليوم وأذن لى فدخلت إليه وهو فى سريره شاحب اللون تزاحم البشاشة الفطرية فى وجهه لدغة الألم . وهو على ذلك حلو الحديث حاضر البديهة . . .)

أجل : لقد أحس الإمام بالمرض فى إبان رحلته إلى السودان ولكنه كان يخفى ألمه ليعمل ، حتى أقعده ، وذاع خبره وجاء الأمراء والوزراء والكبراء كل بطبيبه . وكان أكثر الناس ترددا على الدار الأمير حسين كامل . وعرف الأطباء أنه السرطان . ونشرت الصحف الأنباء فشغلت مصر وسورية والسودان .

أما الإمام فكان يسأل عن طبع ملازم التفسير ومرتبات الضعفاء والقواعد من النساء هل تصلهم ؟

وواتاه الشعر الذى قال إنه لاينظمه إلا فى أحد المحبسين ، حبس السلطان أو حبس المرض ، فنظم أبياتاً قليلة يودع فيها دنيا الناس ويعلن خوفه على الإسلام[1] .

وأجمعوا أن يسافر للعلاج فى أوربا وانتقل إلى دار راسم بك بالإسكندرية فى انتظار الباخرة فجاءها اليوم البئيس ثانية مذ ضربها الإنجليز فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ — وضربها الموت يوم وافى الحمام فيها الإمام فى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ — ٨ جمادى الأولى سنة ١٣٢٣ .

* * *

نقل الجثمان إلى القاهرة بقطار خاص — كهيئة رؤساء الدول — ومشت مصر كلها تشيع الإمام الذى وهبتها إياه السماء بعد أحد عشر قرناً من وفاة الإمام الأول فى جوار جامع عمرو : محمد بن إدريس الشافعى سنة ٢٠٤ .

وتوافى الوزراء والعلماء ، والخلصاء والخصماء ، ورجال القضاء ومجلس شورى القوانين والأجانب والمصريون — وكان فذاً فى التاريخ أن يمشى رجال القضاء كهيئتهم فى الجلسات بأرديتهم الرسمية وأوشحتهم على صدورهم ، وفى صدارتهم قاسم وحسن عاصم وعلى فخرى ورشدى

---

(١) يهمنا منها هنا بيتان :

ولست أبالى أن يقال محمد ‎ ‎ ‎ ‎ أبلّ أم اكتظت عليه المآتم

ولكن ديناً قد أردت صلاحه ‎ ‎ ‎ ‎ أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وثروت وحشمت وراسم ومن خلفهم رجال المحاماة بأرديتهم السوداء ، كأنما هو مجلس ربانى للقضاء ، يودع الشيخ الرئيس فى رحلته الأخيرة .

أما رجال الدفاع فجاءوا يشيعون « المحامى الأول » عن مصر فى عهد الاحتلال ، والذى نظم « المقاومة » فى شكلها المشروع طوال ربع قرن ، يتقدمهم تلاميذه منهم كما سيتقدمون الأمة فى الثورة الكبرى بعد أعوام ثلاث عشرة .

ثم كان ماهو أروع لأنه أورع ! حينما وصلت الجنازة إلى الأزهر فتعالى من مآذنه التى تكبر الله من ألف عام ، ومن كل مآذن القاهرة ذات الألف مسجد ، دفعة واحدة : الله أكبر : الله أكبر.

وإنما تعلن الأصوات والأصداء تشييع السماء ! وهذان أمران لم يجتمعا إلا له .

* * *

كان الإمام قد وصى بعدم إقامة ليالى المأتم فلم تقم .

وكان من عدل السماء أن يظلم الخديو نفسه فيتخلف عامداً عن موكب العظمة . فلم يندب أحداً للحضور فى جنازة رسمية لرجل طالما لاذ به فأنقذه .

وادّارك الأمير الصغير فى سقوطه الكبير فقال لأحمد شفيق باشا وكان من حاشيته :

(يظهر والله أعلم أنكم أردتم بالسير وراء نعشه المجاملة بعد الموت وهو على ماتعهدون عدو الله وعدو النبى وعدو الدين وعدو العلماء وعدو المسلمين بل وعدو نفسه . فلم المجاملة) .

وإنما أبعدته السماء من جنازة الإمام حتى لا يشهد المنافق مشهدا على أبواب الجنة ، ولتجرى عليه وعلى تلاميذ محمد عبده من سننها قانونا من قوانين الطبعية [لكل فعل رد فعل مضاد له فى الاتجاه ومساوٍ له فى المقدار] ولينتقم الله من ظالم بظالم ثم ينتقم من كليهما . فستخلعه إنجلترا سنة ١٩١٤ وتقيم مقامه تلميذ محمد عبده – حسين رشدى .

وفى سنة ١٩١٩ يجبه أكبر تلاميذه – سعد زغلول – إنجلترا بالثورة العظمى ، وهى منتصرة ، فيفتح عليها أبواب الثورات التى زلزلت ثم دمرت إمبراطوريتها .

وفى سنة ١٩٢٢ يظفر لمصر بالاستقلال أصغر وكلاء محمد عبده فى الجمعية الخيرية عبد الخالق ثروت .

الباب السادس

فى التاريخ

(لابد أن ينتهى العالم إلى تآخى العلم والدين على
سنة القرآن والذكر الحكيم) .

محمد عبده

انتحب المشرقان فى أقصى الأرض بأندونيسيا والهند وفى أدناها بفارس وسورية والعراق والسودان ، وكل مكان يتلى فيه قرآن ، وقامت الجمعيات والكتاب والقراء بتحية ذكرى الإمام . وجاء يوم التأبين بمصر فأبّنه أصحاب أعظم الأسماء إلا سعداً والهلباوى كانا بأوربا .

وتقاسم الكلام فى نواح ست من نشاط الإمام متخصصون ستة لم يجتمع أمثالهم لموقف مماثل فى تاريخ مصر ، وسيتركون الدنيا على ترتيبهم فى الكلام كما لاحظ حافظ إبراهيم فى بائيته الشهيرة فيما بعد الشيخ أحمد أبو خطوة وحسن عاصم وحسن عبد الرازق وقاسم وحفنى ناصف وحافظ إبراهيم ، نختار من خطبهم بعض عبارات قاسم لما فيها من كلمات توزن حروفها وتعد ، وذوب نفس صهرتها الرحمة ، ومن التشوف لنشوء شعور عام تجتمع عليه الأمة . وهى خصائص مشتركة بينه وبين الإمام . ومذهبه كما يصفه رشيد رضا (تربية الأمة) أو كما قال حسن عاصم (تربية الرأى العام فيها)

ومن انشغال قاسم بالاجتماع على شعور عام كانت علاقته الوثقى بسعد ، حيث بشريات الزعامة ، وكان خفقان قلبه يوم دنشواى [1] ويوم فقدت مصر مصطفى كامل [2] ، ومن قبل ذلك يوم مات

---

(١) نفذ الحكم الصادر فى ٢٧ يونية سنة ١٩٠٦ فى اليوم التالى فى البلدة وأعدم أربعة وحكم بالأشغال الشاقة على تسعة وحبس وجلد ثمانية لموت ضابط إنجليزى بضربة شمس فى القرية وإصابة زملائه بجراح من حجارة قذفهم بها الأهالى لصيدهم حمامهم ببنادقهم ، مع إصابة امرأة وإشعال النار فى الجرن ، كتب قاسم عن الشعور العام فى ذلك اليوم (رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً ودهشة عصبية بادية فى الأيدى والأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه . [illegible] ساكت مستسلم للقوة . مختلط بشىء من الدهشة والذهول ترى الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . [illegible]رهم يشبه قوماً مجتمعين فى دار ميت . كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان بالمدينة . ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان) .

(٢) قال بين ماقال : (١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل . هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب اللواء فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة=

الإمام . ففيه يقول :

(كان يجذبه الخير كما يجذب المغناطيس الحديد فيندفع إليه . ويسعى إلى كل نفع للغير عام أو خاص . كان ملجأ الفقراء واليتامى والمظلومين والمرفوتين ، والمصابين بأى مصيبة كانت ، وأهل الأزهر ، الذين هم أكثر الناس احتياجاً إلى المساعدة ، لأنهم فى وسط المدنية الخاضرة المتأخرون العاجزون عن الدفاع عن أنفسهم فى ميدان الحياة الجديدة . . بل كان يسعى لصاحب الحاجة وهو يعلم أنه أساء إليه أو قدح فيه أو تحالف مع خصومه فى ترويج عبارات القذف والنميمة التى لم تنقطع عنه يوماً فى حياته . . .

كان الأستاذ يرى أن الشر لافائدة له مطلقاً وأن التسامح والعفو عن كل شىء وكل شخص هو أحسن مايعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله . . .

إن إمام مصر كان محركاً بقوة فوق الاعتيادية . وإن عقله ملآن بالفكر إلى حد أنه كان لايسعه كله ، إلى حد أنه كان يفيض منه بالرغم . وإن قلبه كان ملتهباً بحب وطنه فلا يستريح إلا وهو مشغول به وبسيادته وبمستقبله .

إنه كان مثل جميع نوابغ الرجال لايبالى الألم الذى يأتيه بسبب أمنيته التى كان يعزها . . . وكم من مرة سمعته يؤكد بأنه صمم على ألا يتدخل فى شىء من هذا القبيل ثم رأيته فى الغد منغمساً فيه أكثر مما كان لأنه كان يعكس مايراه عموم المصريين فى أنفسهم ، عنده أمل لايزعزعه شىء فى إصلاح أمته) .

ويقول :

(لقد رأينا مدة مرض الإمام ويوم وفاته حركة فى الأمة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ حياتها . تتذكرون يوم السفر إلى الإسكندرية حيث كانت المئات من أصدقائه ومعارفه وزملائه وتلاميذه يودعونه فى المحطة وجميعهم فى سكون وقلق . رأينا كثيراً من العلماء والذوات والأمراء مرضوا وماتوا ولم نشاهد أن عدداً يذكر من الأمة غير أقاربهم وأصحابهم اهتم لحادث من تلك الحوادث . لكن أمتنا قد شعرت فى هذه الدفعة بحسن غيرتها أنها فقدت رجلاً كان عائشاً لها أكثر من كونه عائشاً لنفسه ولعائلته ، هذا هو سر الدستور الجديد الذى رأيناه لأول مرة فى الأمة المصرية . . . فكان هذا الحادث

=جاله . وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل دويها إلى جميع أنحاء القطر . هذا الإحساس الجديد . هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يتبسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة . هو المستقبل) – مات قاسم بعد مصطفى كامل بخمسة وسبعين يوماً ، وكانوا ينتظرونه فى محكمة الاستئناف .

العظيم مبدأ الاتحاد والتضامن بين عدد كبير من الأمة المصرية جمعهم إحساس واحد وهذه خطوة فى سبيل التقدم) .

* * *

جمعت المراثى فى كتاب حرص على جمعه سعد وفتحى وبقية رجال الأسرة ورشيد رضا ، ففيها أقوال ستة من عظماء القرنين التاسع عشر والعشرين للميلاد أصغرهم سناً حافظ إبراهيم شاعر النيل كما لقبه الشعب فى مقابل (شاعر الأمير) شوقى . ومن عربدة الخديو يوم مات الإمام تعايا شيطان الشعر عند شوقى وتعاظم وفاء حافظ [1] .

* * *

أنغض الفساد رأسه يوم استقال الإمام وأسبغ الخديو عطفه على الجامدين والجهلة ليعيدوا إلى الجامع الألفى العمر شيخوخته . وارتفعت فيه ومن حوله ، الأصوات المنفرة ، وقدم لنا مصطفى

---

(١) ترجع صلة حافظ بالإمام إلى أيام كان ضابطاً بالجيش يحارب فى السودان ولما ظهرت له نية الإنجليز لاغتصاب السودان أستقال ورجع إلى مصر سنة ١٩٠٠ وتوثقت صلته بالإمام وتلاميذه وفى طليعتهم سعد زغلول ، ولما أصدر ديوانه الأول سنة ١٩٠١ قرظه مصطفى كامل فى صحيفته (اللواء) ولما ظهرت ترجمته لكتاب البؤساء أثنى عليه فى اللواء . وكان اشتهاره بأنه شاعر الوطنية المصرية سبباً فى نقمة الإنجليز عليه طوال حياته .

أما اتصاله بالإمام فحال بينه وبين الخديو كما وقع للشاعر الكاظمى لما انقطعت بموت الإمام عشرة جنيهات كانت ترد إليه شهرياً فى مظروف مذهاجر من العراق إلى مصر سنة ١٩٠٠ – وتوسط الشيخ على يوسف (باشا) صاحب جريدة المؤيد لدى الخديو ليصله فقبل ثم عدل وقال على يوسف للشيخ عبد القادر المغربى إن « بعض الناس » كان سبب عدول الخديو . ولما حدث الشيخ المغربى الكاظمى بذلك قال الكاظمى إن « بعض الناس » مقصود به شوقى فقد قال للخديو هذا شاعر محمد عبده !

يقول طه حسين عن شوقى وحافظ :

ولكن شوقى لم يبلغ مابلغ حافظ من الرثاء ولم يحسن ما أحسن حافظ من تصوير نفس الشعب وآلامه . . فإذا بكى بكى الناس معه صادقين وجزعوا مخلصين) .

ودليل طه حسين مراثى حافظ للزعماء الثلاثة محمد عبده ، قاسم أمين ، مصطفى كامل – ومن أبيات حافظ فى قصيدته قوله :

سلام على الإسلام بعد محمد ... سلام على أيامه النضرات
لقد كنت أخشى عادى الموت قبله ... فأصبحت أخشى أن تطول حياتى

ويقول طه حسين فهذه قصيدة لا تستحق خلودها ممن قيلت فيه وحده ولا ممن قالها وحده وإنما مستمدة من الرجلين جميعاً)

والإمام حاضر دائما على لسان حافظ . يودع قاسم أمين بعد ثلاث سنين فيقول له :

قل للإمام إذا التقيت به فى الجنتين بأكرم المنزل
لله أيام لكم درجت طالت عوارفها ولم تطل

ويودع حشمت بعد عشرين عاماً فيقول للرجل الذى عينه فى سنة ١٩١١ رئيساً للقسم الأدبى بدار الكتب ليبقى فيه حتى سنة ١٩٣٢ عام وفاته :

مات الإمام وكان لى كنفاً ... وقضيت أنت وكنت لى درعاً .

عبد الرازق صورة مؤرخة ١٩٠٥/٥/٣ نشرتها صحيفة (الجريدة) [١] سنة ١٩١٤ . قال :

(أصبحت لا أجد لما أحضره من دروس الأزهر طعماً . ذهبت إلى جامع الحسين وجلست قريباً من كرسي الدرس . . . قرأ عبارة المتن (أحمد الله أولاً وثانياً) . كانت الساعة ٩ عربى فما برح الشيخ يقتل هذه الجملة المسكينة بحثاً وتحقيقاً حتى أذن المؤذن المغرب (الساعة ١٢ عربى) . . . قلت ياسيدنا الشيخ ألا يجوز أن يكون كل مراد المصنف هو التلويح إلى البيت المشهور :

لك الحمد . أما مانحب فلانرى ونبصر مالا نشتهى . فلك الحمد

لوى الشيخ عنقه ووجم مفكراً ثم أجاب : هذا الاحتمال غير وجيه لأن الحمد فى الجملة مطلق . وهو فى الشعر مقيد . ثم رجع فيما كان فيه) .

هكذا صور مصطفى عبد الرازق تخلف ذهن المدرس عن إدراك مايرمى إليه الطالب وإصراره على تكريه درسه إلى سامعيه .

ولما مات الإمام طلب تلاميذه إلى الشيخ أبى خطوة أن يجعل درسه الذى يلقيه بداره على خاصته درساً ليلياً عاماً . وازدحمت باحة الدار . لكنه انقطع فجأة . فألح عليه السائلون فقال : « إن التفاف طلاب الشيخ محمد عبده حولى واجتماعهم فى دارى واشتغالنا بقراءة كتب عزيزة بين الأزهريين أخذ يقلق بال أهل الحول والطول » .

* * *

كان ورثة الإمام جد عليمين بأنه لم يكن يستبقى لنفسه من مرتباته إلا النفقة ، وأنه يفرق الباقى فى مستحقين آخرين [٢] فلم يبق لعياله إلا معاشهن . وكان أخوه حمودة قد صار محامياً وحمل رتبة (بك)

---

(١) كانت لسان حزب الأمة رئيس تحريرها لطفى السيد ومن كتابها الباشوات مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وطه حسين ومنصور فهمى والأستاذ محمود عزمى والعقاد والمازنى وشكرى والغاياتى .

(٢) أسلفنا أنه وكل وكيلاً فى قبض بعض مرتباته وصرفها للمستحقين المشار إليهم دون أن يعرف أحد أسماءهم . ولولا إفشاء الشاعر الكاظمى سره لسليم سركيس والشيخ عبد القادر المغربى لطوى الخفاء خبر مرتبه . وقد حلت وزارة الأوقاف محل الإمام بعد موته فى تقدير مرتب له بتوسط سعد زغلول حتى مات الكاظمى سنة ١٩٣٥ . وفى إحدى قصائد الكاظمى فى الإمام – بعد موته – يقول عن سعد إذ نفى إلى جزيرة سيشل :

هذا ربيبك يامحمد حامل ماتحمل
فلتحى مصر وأهل مصر ومن حوته سيشل

سأل الإمام قبيل سفره ـ يوما ـ رشيد رضا عن الكاظمى فأنبأه أنه مدين فقال انه يأسف لأن أخاه تصرف فى نفقة السفر . ولو علم قبل ذلك لسدد الدين لأن سداده أولى من السفر .

وفى سفرته إلى الإسكندرية عهد أهل الإمام إلى رشيد رضا أن يرتب أوراقه فوجد فى محافظها صرراً من نقود عليها أسماء أصحابها لترسل إليهم .

ويقول العقاد (عرفنا نحن إناساً نظروا إليه فى جوف الليل يطرق عليهم الأبواب ويسلمهم ماقدر عليه من عاجل الصدقة . وهو يقول

فاشترى باسم أخيه بعض أرض فضاء فى الصحراء وأفدنة من دائرة السنية ثمن الفدان من الأولى عشرة جنيهات بيعت فيما بعد كلها بنحو ألف وخمسمائة جنيه وبيعت الدار التى بناها لنفسه فى صحراء عين شمس إلى وزارة الشئون الاجتماعية ، ومازال – مع تجديد الوزارة لها – أشبه بدار مستخدم صغير . . بل شيخ صوفى علمه الشيخ درويش أن يسير فى ملكوت الله خطى كتبت عليه ، دون أبهة أو مخيلة .

وعلى مقربة من هذا المسكن كان سعد باشا فى بعض السنين يستأجر داراً أحدث بناء يقيم فيها شهوراً بحثاً عن الجفاف .

وفى ذلك العصر كان كثير من المستشارين ، من غير أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية الذين ماتوا فقراء ، يشترون الضياع من فضل مرتباتهم . أما المحامون فمنهم خليل إبراهيم يشترى أربعة آلاف فدان والهلباوى تسعة آلاف فدان [١] وعشرات آلاف الأمتار فى « جاردن سيتى » ثمنها الآن مئات ملايين من الجنيهات .

تزوج البنات فى حياة الإمام من إخوة ثلاثة هم محمد بك يوسف الذى سينتخبه المحامون نقيباً لهم وأخويه عثمان بك [٢] وسيصير مستشاراً فى الاستئناف وعبد اللطيف . وتزوجت رابعتهن بعد موته من تاجر مجوهرات صغير . ماتت الأولى فى الربع الأول من القرن والثانية فى منتصفه والأخيرة من بضعة عشر عاماً .

وكان أهل هذا الدين الذى اراد إصلاحه هم الوارثون حقاً ، بما هيأ لهم فى منجزاته من قدوة وفى مؤلفاته من قواعد التفكير الحر ، الجامع بين العلم والدين والقوة والحضارة .

والمؤلفات [٣] قليلة قلة سنوات تدريسه لكنها جليلة جلالة فحواها ، خالدة خلود آثارها وهو فعال

=إنه أمانة من جهات البر يؤديها إليهم ولا يعرفهم بنفسه وكنا نسكن بخط المطرية التى كان فيها مسكنه فنسمع أخباره مع أصحاب البيوت الكريمة التى فقدت عائليها فلم يعرفوا أنه هو ذلك الرسول الذى كان يطرق عليهم أبوابهم تحت جناح الظلام إلا بعد أن افتقدوه) وللعقاد كتابان فى رجال القرن الحالى عن محمد عبده وسعد زغلول .

(١) تسببت أقساط أراضى جاردن سيتى فى نزع ملكية الهلباوى بك وتدخل الملك فؤاد فى المزاد فرست عليه ملكية دار الهلباوى بجاردن ستى ورسى مزاد ٦٢٣ فدانا على موكلته السيدة هدى شعراوى فوقفت الأرض على عائلته ومن بعدها الجمعية وآل نصف ذلك المقدار للجمعية . وخصومة الملك فؤاد للهلباوى مشهورة .

(٢) أنجب عثمان بك من بنت الإمام – وبهذا كان للإمام حفيدان يشار إلى كل منهما بالبنان فى صناعتيهما أولهما زميلنا المرحوم إبراهيم عثمان يوسف مات نائباً لرئيس محكمة النقض بمصر وثانيهما الدكتور محمد عثمان يوسف الأستاذ السابق لطب العيون بالجامعة المصرية .

(٣) منها

١ – تفسير القرآن الكريم .

٢ – مجموعة فتاوى الشيخ محمد عبده (مجموعة بدار الإفتاء) .

٣ – رسالة الواردات .

قوّال ، تشارك أعماله أقواله فى تخليده :

أعجلها فى الأثر تكوين « الزعامات » التى ظفرت لمصر بالاستقلال والدستور ، وأجلها إصلاح القضاء الشرعى ، لكن أفعلها فى عقول قومه هو العمل المنهجى بالحرية الفكرية والعقيدة الصحيحة . وإن تعجب فعجب أن تنقضى أعوام سبعون على قيام الجامعة التى شرع وصحبه فى إنشائها قبيل موته وورثتها جامعة القاهرة ، والجامعات التى تفرعت عليها فى مصر والعالم العربى ، وأن تسمى قاعة الأزهر الكبرى « قاعة محمد عبده » ، ومع ذلك اقتصر الكتاب على إجمال حياته ولم تتطرق الدروس ولا الرسائل إلى الأبواب الواسعة من وجوه علمه . فهو « المجتهد » المطلق فى الفقه و « المفسر » المعاصر للقرآن و « الشيخ المفتى » و « المصلح » الأعظم للقضاء الشرعى و « روح الإصلاح » الذى يسرى فى الأزهر و « المشرع » الأكبر فى مجلس الشورى و « المجدد » الحفيظ على اللغة و « طليعة «الإصلاح القومى فى الوقائع أو « رئيس التحرير » [1] .

وهو « الشيخ الرئيس » في الجمعية ، وفى المحكمة ، وهو « الصوفى » المجاهد فى الله حق جهاده والسابح فى بحار السياسة العالية سبح كبار الربانية .

* * *

وهو الإمام الذى لم تطفئ جذوته برودة القمم العالية التى قضى فيها عمره . أو يستبد بقلبه كبر أو نشوة نصر . علمته فتوة المتصوفة أن ينسى نفسه ويذكر الناس . فكان فى كل مواقعه يكسب سبباً أو علماً أو فقهاً يسخره لخدمتهم . ولافقه إلا أن يعايش الحياة الواقعة .

ومن ثمة كان فقهه تطبيقيًّا يتعاظم تعاظم وفائه بحاجات عصره وإثباته للناس أن العقيدة

= ٤ – حاشية على الدوانى .
٥ – ترجمة الرد على الدهريين لجمال الدين .
٦ – شرح مقامات بديع الزمان الهمذانى .
٧ – شرح نهج البلاغة .
٨ – شرح البصائر النصيرية (ابن رسلان) .
٩ – رسالة التوحيد .
١٠ – الرد على هانوتو .
١١ – الرد على فرح أنطون (الإسلام والنصرانية) .
١٢ – رسائل وكتابات مختلفة .
١٣ – رحلة صقلية .
١٤ – نظام التربية والتعليم فى مصر .

(١) اطلعنا فى كلية اللغة العربية على رسالة دكتوراه للدكتور أحمد عبد الرحمن عيسى (الفن الصحفى عند محمد عبده) ورسالة ماجستير (محمد عبده أديباً وناقداً) للسيد تقى الدين السيد .

الإسلامية « نظرية وتطبيقاتها » لامجرد مبادئ يترنم بها الحُفظة المتجمد أو الجاهل البليد . وعلى هذا تكافأت مواقفه وتعاليمه وسيرته ودروسه . وطالما اجتمعت فى موقفه الواحد معان لاتجتمع إلا فى الكتاب الكامل . وتكاملت الشجاعة والحكمة والموعظة الحسنة مع العلم فى إحداث الأثر . فانمازت حياته من حياة غيره من الأئمة بكثرة ماخاض من ميادين جهاد علمى واجتماعى وسياسى وماقدم فيها من دروس تطبيقية . فهو فى كل صفة أو وظيفة « صاحب موقف » لا مجرد رأى أو تمسك بنظرية .

والناس أسمع وأبصر بالموقف لأنه « عمل » .

كانت حياته أسلوباً تطبيقياً من أساليب الإسلام لإصلاح عصره « بطريقة حياته » وتداول آرائه واقتفاء آثاره .

وهو دائم الصعود . لا يتوقف ولا يتخلف من عهد الطلب إلى عهد التدريس . ومن تعليم الشباب إلى تعليم الأمة ثم الجهاد فى الثورة ثم فى الخارج ثم فى منصة القضاء العالى ودار الإفتاء فمنبر التفسير فى الأزهر حتى صار إلى الرفيق الأعلى .

وهو الكوكب الدرى فى ارتفاعه ودورانه حول نفسه ليطورها ويطور الناس معها .

إليك مثلين أولها فى العمل : حيث له فى مراحل الحياة النيابية أطوار ثلاثة تسعفه فيها أصول الفقه الثلاثة (سد الذرائع والعمل بالمصلحة والقياس الصحيح) يوم عارض الثوار مخافة ألا يصلح الحكم النيابى للأمة ويوم أصبح مدافعاً عنه بعد إذ رآها تهيأت له ويوم صار زعيم ممثلى الشعب فى مجلس الشورى .

وثانيهما فى العلم : حيث يقول فى شرحه لنهج البلاغة قبل ١٨٨٨م (إن الرسم على الورق والأثواب ونحوها لايمنع استعماله وإنما يتجافى عنه بالنظر تزهداً وترفعاً) ثم حبه له وقوله فى رحلة صقلية سنة ١٩٠٣ إنه (يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لاخطر منها على الدين) .

فلا تتساءل لماذا كان فقهه أو فهمه يجد طريقه إلى الأفئدة ، أو لماذا أجمعت عليه الأمة ونحت حقد الحاقدين والجامدين . فالمسلمون يفتحون قلوبهم للمجتهد ، إذ يلمسون من « طريقة حياته » صدور رأيه عن أصول الإسلام . وهو دين الفطرة ، تهتدى إليه النفوس وتهدى بالإخلاص والوضوح .

وفى المثلين اللذين سقناهما لتطوزه وتطوير الأفكار معة مصداق ذلك ودلالتان على أن الحكمة والموعظة الحسنة هما الأسلوب الأمثل لكل دعوة .

وإذا جاز تقدير امرئ بما يفكر فيه طول يومه ، فالرجل العظيم يقدر بما يفكر فيه ويصنعه طول حياته .

فما أعظم مقدار هذا الإمام الذى حرك « آلة » الاجتهاد كما يسميها الشافعى وأبو حنيفة ، وأثبت قدرتها الديناميكية على إحداث الإصلاح ، حتى فيما يخاله الناس أسوأ الظروف أو آخر الزمان ، والذى جلّى لأمته قواعد استقلال الإرادة وحرية الاجتهاد والاختلاف والمحاولة والخطأ . ليخلفها عالية الرأس مفتوحة العين قادرة على الفهم والحركة ، فى عالم سيرى الناس فيه بأعينهم أقدام رجال منهم على سطح القمر .

* * *

وهو الغائب إذ تبادرت الخطى إلى حظوظ الدنيا ، الحاضر إذ دعا الداعى ، كرجع الصدى ، لصوت بلاده ، وكالقائد الذى يظهر حيث ينتظر أن يظهر ، لدفع أذاة أو تقديم عون أو تكوين رأى عام .

وهو دائماً أقرب المحاربين للعدو ، والأشد أيداً ، والأسخى يداً فى مجالس إداراته ، أو فتياه أو شوراه وفى كل مقام . يتكافأ احتفاله بالمعرفة ، مع إقباله على الخدمة العامة . وشدّته وحدته فى مقاومة الظلمة مع فيوض الرحمة بالضعفاء والاهتمام بالجانب الإنسانى الذى يهب الحياة قيمة والأشياء معنى والأشخاص إحساسا بالذت .

وهو فى كل حالاته داع إلى الله بالحكمة ، ظاهر السمات واضح القسمات ، سوىّ الخَلْق والخُلق ، تحكم ذاته وحدة الغريزة والعقيدة ، وطريقة الحياة ، حتى ليدرك المرء صنيعه قبل أن يصنعه فى مواقفه المتوافقة أو المتخالفة ، لأنها محكومة بمنطق الرحمة الذى بنى عليه الإسلام وجبل عليه الإمام .

فليس مصادفة أن يكون الساسة العظماء والعلماء والكبراء والفقهاء والأدباء الذين تقدمت بهم الدنيا تلاميذه وأن يكون رائد « العمل الجماعى » الذى أحيا الشعور العام فى الأمة ، أجاءته السماء على فترة من الأئمة ليصير خصائصهم قوى متضافرة فى توليد تيارات من السلوك السليم والإدراك الصحيح ، فى عصر عاصف مستوفز ، ووطن تلتقى فيه وتفترق طرق العالم وحقب التاريخ ، يتكالب المستعمرون الأوربيون ، والأعداء المحتلون ، والحكام الانتهازيون ، على استصفاء خيراته لأنفسهم ، وعلى تجهيل أهله وتضليل علمائه وإخماد جذوته . فكان لزاماً أن يعمل الإمام فى آفاق لاترتفع إليها مطامع الإنجليز ومفاسد الخديويين .

وماهى إلا « الدين واللغة والشريعة » حيث النفوس الجيدة تطرد النفوس الرديئة إلى أسواق السلاطين ، وفيها المراصد لمهابّ الريح ومصادر الضغط من أوربا أوالقاهرة . وكانت آية النجاح فى

سياساته أن يصنع كل ما صنعه دون أن يقال عنه إنه يعمل «بالسياسة» وأن يفهم بعضٌ تعوذه بالله منها على إطلاقه أو ظاهر عباراته التى سنقرؤها فيما بعد .

قال بعضهم إنه تعامل مع الإنجليز مؤثرين التزام جانب الخديو ومتمسكين بالسيادة التركية على مصر . وفاتهم .

١ – أن كل هؤلاء عدو تجمعه مصالحه مع الإنجليز . وتركيا هى (الرجل المريض) لا يقويه فى مصر إمام مصر .

٢ – أن الإمام بقية الناس من أبطال الثورة على الأسرة المالكة وأذنابها وممثل «جماعة المسلمين» فى عصره ، عليه أن يكف الأذى الحال بوطنه والتصدى لمصدره ومناقشته .

٣ – أنه لابد للمناقشة من طرفين . وإلا غابت مصر حيث يجب أن تكون حاضرة . فكذلك صنع ابن تيمية وابن خلدون .

٤ – وأن الاكتفاء بالصياح فى وجه العدو – حيث يمكن العمل للأمة – تعطيل للقوى الذاتية فيها وإمكان للعدو منها .

٥ – وأن التاريخ قد أقر صنيعه فلم تنل مصر من الإنجليز نيلاً إلا بالمراوضة أو المفاوضة .

* * *

وأى هذا كان فكبرى سياسات إمام المسلمين فى عصره أنه فرض على نفسه – فرض عين – تنفيذ واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه وقلبه ، وأنه قدر على ذلك وإن خذّله بعض أو خيب ظنه بعض . وأنه نشط عناصر الصحة فى الأمة لتعالج بها متاعبها . وأن مدرسته استمرت على طريقته فأبلغت الأمة مبالغها لتسبق غيرها من دول آسيا وأفريقيا بنحو قرن .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «وعاء الجهاد» الخارجى والداخلى فى سبيل الله والجماعة .

والجهاد عنفوان السياسة والإسلام دين ودولة .

والذى ينشط عناصر الصحة الذاتية فى أمة مسلمة لايستعمل الإدهان أو الانتهاز أو المباغتة وإنما يستعمل (القيم الإسلامية) أى «القيم الذاتية» لتبقى وتقوى وتقدر على المقاومة .

لقد استأنف محمد على وبنوه صفحة فى تاريخ مصر ، شوهتها البلاهة باستعمال الأجانب والتمكين لامتيازاتهم ، وإسراف بنيه على أنفسهم باستيراد مظاهر الحضارة الغربية لاحقائقها ، وإحلالهم القانون الفرنسى محل الشريعة الإسلامية وعجز القانون المستورد عن أن يجعل المصريين أوربيين وإقبال أساطيل أوربا لتغمد سيوفها فى قلوب أمة مفتوحة لها .

وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً . وتقاذف الطرفان الصولجان .

وكان من فضل الله على مصر أن يستغل الإمام التوازن الشكلى الهشيش بين الطرفين ، ليعمل لأمته بالمبادئ الإسلامية والسواعد الوطنية لا (بالقيم الأجنبية) .

ولقد نهضت اليابان نهضتها فى أوائل القرن التاسع عشر مع نهضة محمد على ، وارتفع صوت اليابان وخفت صوت مصر لمناصبة أوربا العداء لها وتهافت المصريين على « قيمها » دون « قيمهم » .

ونهضت الصين نهضتها فى منتصف القرن العشرين ، مع نهضة مصر ، وبلغت الصين شأوها ولم تبلغ مصر لأنها استخدمت « قيماً مستوردة » . ولم تلجأ إلى القيم « الإسلامية » التى حييت حتى اليوم ببقاياها .

أجل – علم محمد عبده تلاميذه : سعد ومحمد فريد ورشدى وعدلى وثروت ومحمد محمود من الساسة العالميين وقاسم وحسن عاصم وعلى فخرى والهلباوى ولطفى السيد وحافظ إبراهيم وعلى إبراهيم وطلعت حرب والمراغى ومصطفى عبد الرازق وتلاميذهم من الزعماء والمصلحين فى شتى الميادين ، متعاقبين أو مجتمعين ، أن استعمال «القيم الذاتية» هو الترياق المجرب .

ومن طريقته تفرعت مناهجهم وتعاظمت هممهم فشادوا من سيرة إمامهم وسيرهم هرم مصر الرابع .

والخلد نتاج همم كبار ترفعها قيم كبرى إلى قمم عليا ، ليسير الناس فى هداها . والله متم نوره .

وصية ومبادئ

حفلت حياة الإمام بأعمال تفوق الأقوال . ومن ذلك كان الاعتبار بأعماله فاتحة وصاياه . ولاحدود لما يستنبطه امرؤ من حياة إمام ، وإن جاز لنا أن ننبه الآن على بعض أمور تتعلق « بالطريقة » قد يقتضيها المقام .

أولها : أن الانتساب إلى العلوم الشرعية شرف وعلى كل شرف تكاليف ، أهمها العمل به . والعلماء و«أولو الأمر» قرناء إذ يتصدون للعمل فى سبيل الجماعة . أما التسلب من الواجب أو مساهلة الفساد فينزع من العالم وجه امتيازه ويجعله شريكاً أخرس للآخرين .

ثانيها : أن الحياة تكبر بالترك وترقى ، قدر مايرفض صاحبها أن يتدلى . ولكل عالم المكان الذى يضع فيه نفسه ، بصنيع يرفعه أو يضعه . وعلى هذا صاحب محمد عبده فى شبابه رياض باشا والبارودى وزعماء الثورة وجمال الدين ، وتقدم العلماء كافةً فى شيخوخته ، وقال عنه الخديو من خشيته « يدخل علىّ وكأنه فرعون » !

ثالثها : أن يد الله مع الجماعة . وعلى الفرد أن يعمل مع « الجماعة » ليعلى قدره وأقدارها وأثره وآثارها ، كالواحد إذا اجتمعت فى جواره أرقام تجعله آلافاً أو ملايين . ومن ذلك كان نجاح الجمعية الخيرية الإسلامية وماحذا حذوها من جمعيات وأحزاب ومجالس إدارات .

رابعها : أن الحفاظ على الوحدة الوطنية تكليف تأمر به الشريعة . لذلك كان آدى التلاميذ لهذه الأمانة أدناهم من الإمام . فالتاريخ يسمى سعد زغلول « زعيم الوحدة الوطنية » ومصطفى عبد الرازق ومحمد مصطفى المراغى إمامان فى التسامح الدينى والفكرى والتعامل مع الأجانب من أهل أوربا . والزنكلونى كان يعانق القمص سرجيوس على منبر الأزهر (١) .

خامسها : أن الإمامة طريقة فكرية يسير فيها الأتباع والأشياع . تتجلى فى «كليات أساسيات » . وكان جل جهاد محمد عبده فى مجال الدين واللغة العربية والشريعة . ومن التوحيد الذى هو أساس الدين تنبع الحرية الشخصية واستقلال الإرادة والخضوع لله دون غيره ، وباللغة والشريعة قوام الأمة السياسى ، ووحدة الجماعة ، وسلامة المعاملات ، وتماسك الأسرة ، وازدهار القيم الذاتية للمجتمع .

ومن أصالة هذه الكليات تتابعت دساتير القرن الحالى فى مصر والأمة العربية على النص عليها واتخاذها أسباباً للوحدة العربية والقومية العربية .

سادسها : أن من حق الجيل الحالى بمصر أن يفاخر بالنص فى دستور ثورة التصحيح فى سنة ١٩٧١ على أن (سيادة القانون أساس الحكم فى الدولة) .

فالحرية الشخصية والفكرية وحماية القانون لها هى التى أطلقت «ذات مصر» وملكات بنيها وابتكاراتهم على أيدى الطلائع الخالدين من تلاميذ محمد عبده وتلاميذهم من العلماء القانونيين والشرعيين والطبيعيين والقضاة والمحامين والأطباء والمهندسين ، والفنانين والكتاب والشعراء والمعلمين والساسة العالميين والمصرفيين والاقتصاديين الصناعيين والزراعيين ، وغيرهم ممن تصدرت بهم مصر العالم الإسلامى والعالم النامى على مدار قرن كامل .

وعندما يتخلف القانون أو تجف أوراق الحرية يتوقف التقدم ، ويصاب الفكر بالعقم ، ويقضى الناس أعمارهم فى الأنين .

---

(١) وفيها تغنى ثوار سنة ١٩١٩ يقول الشاعر :

الشيخ والقسيس قسيسان ، وإن تشأ فقل هما شيخان

ويإسم الشيخ الزنكلونى مسجد بشارع سوق السمك القديم فى حى الأزهر وباسم القمص سرجيوس شارع فى مصر الجديدة من ضواحى القاهرة .

سابعها : أن النهضة العلمية التى بدأها رفاعة رافع ، والنهضة الفكرية التى بعثها محمد عبده ، والثورة السياسية التى أشعلها سعد زغلول ، أدلة ثلاثة على مقدار ماتستجيب طبيعة الأمة إلى الدعوة المنبثقة من «قيمتها الذاتية» ، وأن هؤلاء الزعماء الثلاثة العظماء بكل المقاييس العالمية ، والذين لمسوا العصب الحساس فى الأمة بكفاءة وقوة ، قد نُتجوا جميعاً فى صحن الأزهر وحيوا – حياتهم كلها – متمسكين بالقيم التى غرستها فيهم أيامهم الأولى فيه . وماهى إلا «القيم الإسلامية» التى تهب القوة والثقة وتجعل العمل لمصلحة الجماعة هو التطبيق الأمثل لفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ثامنها : أن هذه النهضات ورجالاتها الحافظين للتراث الإسلامى والآخذين من العلم الأوربى أحسنه أدلة عملية على أن «هذا الأمر لايصلح آخره إلا بما صلح به أوله» وهو التطبيق الصحيح للشريعة وأن التفكير الاسلامى تفكير عالمى يتخطى به المصلح حدود أقاليمه وأن التربية الإسلامية تجعل المسلم القدوة ثروة للإنسانية قاطبة .

تاسعها : أن دفاع الأسرة المالكة عن وجودها أو الإنجليز عن احتلالهم كان سبباً فى نفى رفاعة بك إلى مدرسة ابتدائية فى الخرطوم ! ونفى كل من محمد عبده وسعد زغلول مرتين . أما اليوم فمصر لنا وحكامها من أنفسنا . وماأقدرنا على أن نبنى بسواعدنا وقيمنا الذاتية أهراماً حديثة من المنجزات العظيمة .

* * *

أما الوصايا المكتوبة ، فواضحة العبارات فى كتابات شتى ومجتمعة . قد يمكن إجمالها فى مقولة الإمام الذائعة بشعار دعوته .

(إذا كان الدين كافلا بتهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه مابيناه . وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليهم أخف من إحداث مالا إلمام به ، فلم العدول عنه إلى غيره ؟)

* * *

وهذه المقولة تنتجها مبادئ أهمها :

١ – أن الدين هو العمل به لا مجرد الانتساب إليه .

٢ – أن الدين والعلم صنوان فى الإسلام .

٣ – أن الإسلام دين الحرية الفكرية وتحكيم العقل ، ومن ذلك يوجب الاجتهاد و يأذن بالتطور .

وقد يكون أقرب الموارد لاستخراج هذه المبادئ وأدلها على ارتباط ذاته ونظرياته محاضرته المرتجلة فى تونس سنة ١٩٠٣ وفيها أعلن حاجة المسلمين إلى أمور ثلاثة :

١ – العمل الجاد دون تواكل .
٢ – استعمال العقل .
٣ – سلامة العقيدة .

قال بين ماقال :

- (إن الواحد منا إذا لاح فى ذهنه نور إلهى يرشده إلى طريق العلم يأتيه معارض يقول له : إن الحالة الحاضرة هى قدر الله لا حيلة لنا فيها . ومالله من عدو أضر من هذه الاعتقادات ، وكفانا قدوة خير أسوة سيد المتوكلين ﷺ فإنه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله ، جل شأنه ، لايفتر عن العمل فى الدعوة إلى الحق وحمل الناس عليه . .

جاء فى الأحاديث والأدعية المأثورة قوله ﷺ « اللهم انفعنى بما علمتنى وعلمنى ماينفعنى وزدنى علماً ») .

- (...إن اليقين لايحصل بقراءة الأدلة وخزنها فى الأذهان وإنما يحصل بالاستدلال الصحيح وإدراك العقل وجه الدلالة من نفسه دون تقليد) .

(... إنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان طولها وعرضها حتى يصل إلى الغاية التى يطلبها دون تقييد ، كما هدانا الله إلى ذلك فى كتابه ، فإنه يخاطب الفكر والعقل والعلم به بدون قيد ولا حد) .

ويضرب نفسه مثلا لما يدعو إليه فيقول :

(أقول قولى هذا ولا أريد إلزام أحد بقبوله وإلا خالفت ما أدعو إليه من استقلال الفكر وحرية الرأى)

ويستطرد للتحديد وتخليص الاعتقاد فى رسالة التوحيد فيقول :

(يجب أن يقتصر الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ولا يجوز الزيادة على ماهو قطعى بظنى – وشرط الاعتقاد ألا يكون فيه شيء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين .

وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لايجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور كرامة ، كانت من أى ولى كان ، ولايكون بإنكاره هذا مخالفاً لشيء من أصول الدين ولامائلا عن سنة صحيحة ولامنحرفاً عن الصراط المستقيم ، اللهم إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة . .

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون) .

* * *

وأصل ذلك وفصّله فى الرد على دعوى فرح أنطون : (إن المسيحية أكثر تسامحاً مع العلم من الإسلام) فبدأ الرد بالطرف الأول من المفاضلة فذكر مسلمات المسيحية واستطرد إلى الأصول الإسلامية الثمانية التالية :

١ – أن الإسلام (قد قاضاك إلى العقل ومن قاضاك إلى حاكم فقد أذعن لسلطته . بلغ هذا الأصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : إن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ومات طالباً غير واقف عند الظن فهو ناجٍ . فأى سعة .. !)

٢ – اتفاق أهل الملة (إلا قليلا ممن لاينظر إليه ، على أنه إذا تعارض العقل والنقل أُخذ بما دل عليه العقل . وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله فى علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ماأثبته العقل) .

ونحن نستصحب دائما قول ابن تيمية [وقد تدبرت ماأمكننى من أدلة الشرع فما رأيت حديثا صحيحا يخالف حديثا صحيحا ، كما أن المعقول الصريح لايخاف المنقول الصحيح ..] .

٣ – البعد عن التكفير (فإذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان) .

٤ – الاعتبار بسنن الله فى الخلق ، فالقرآن يصرح بأن لله فى الأمم والأكوان سنناً لاتتبدل ، والسنن هى الطرائق الثابتة التى تجرى عليها الشئون وعلى حسبها تكون الآثار التى تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم (بالقوانين) ومعنى ذلك أن الدين منطق ولد فى العلم فلا يمكن أن يحتقره .

٥ – قلب السلطة الدينية . فلا سلطة دينية إلا للموعظة الحسنة . ولكل مسلم أن يفهم عن الله من كتابه وسنة رسوله دون وسيط سواء فى الاعتقاد أو فى الفقه العملى .

٦ – حماية الدعوة لمنع الفتنة .

٧ – حماية الآخرين من الفتنة (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) (من آذى ذمياً فليس منا) وفى الأسرة المسلمة زوجات غير مسلمات مسيحيات ويهوديات .

٨ – الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فصاحب هذا الدين لم يقل : (بع ماتملك واتبعنى) ولكنه

قال لمن استشاره فى الصدقة (الثلث والثلث كثير . إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس) .

والرخص كثيرة عند المشقة والزينة والطيبات مباحة مع الاعتدال .

(والمسلمون محفوزون حفزاً لطلب العلم فإذا لاقاهم العالم شدوا به أواصرهم ولايبالون ماتكون عقيدته .. لاشىء ينقلب عند النفس الإنسانية لذة بنفسه – وإن كان فى أول الأمر مطلوباً لغيره – مثل العلم) .

* * *

وحصل النتائج فيما يمكن إجماله فى :

١ – اشتغال المسلمين بالعلوم الأدبية والعقلية فى القرن الأول وبالكونية فى القرن الثانى ، حتى صار فى إسبانيا – الأندلس – وحدها سبعون مكتبة عمومية . وفى بغداد كان حنين بن إسحق النسطورى يجعل داره مكتبة عامة يتعلم فيها المسلمون وغيرهم .

٢ – (قالوا إن « بيكون » هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة العلوم العصرية ذلك حق فى أوربا . وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها فى أواخر القرن الثانى من الهجرة[1] . . حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد الفلاسفة الأوربيين أن القاعدة عند العرب (جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفاً) وعند الأوربى إلى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحى (اقرأ فى الكتب وكرر مايقوله الأساتذة تكن عالماً)[2] .

٣ – احترام العلماء من أى نحلة (كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة . . ومع ذلك فهو من مشايخ البخارى صاحب الصحيح . .)

٤ – ولا يحتج على الإسلام بمسلك المسلمين فى عصور تخلفهم أو برجال متخلفين . فجمود المسلمين يعيبهم ولايعيب دينهم . وهو علة عرضت لهم من تخلفهم السياسى ، (فإن شئت أن تقول إن السياسة تضطهد الفكر أو الدين أو العلم فأنا معك من الشاهدين أعوذ بالله من السياسة ومن لفظ السياسة ومن كل أرض تذكر فيها السياسة . ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يجن أو يعقل فى

---

(١) هذه الفقرة تسجل سبقاً للإمام يتابعه فيها الكتاب المعاصرون .

(٢) يقوم المنهج العلمى العالمى فى العصور الحديثة على التجربة والاستخلاص وينسبة الأوربيون إلى فرانسيس بيكون (١٦٢٦) إذا صدر كتابه Novum Organum (النظام الجديد) متضمنا للمنهج وتفاصيل هذا المنهج هى تفاصيل المنهج العربى فى الاجتهاد (الأصل الرابع من أصول الفقه الإسلامى) نقله الأوربيون بعد ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية ثم إلى اللغات الأوربية الحالية فى الطب والطبيعة والكيمياء والتاريخ والجغرافيا وهو أصل قرآنى صريح واعترافات الأوربيين المعاصرين تترى على ذلك – راجع كتابنا (القران والمنهج العلمى المعاصر) طبعة دار المعارف .

السياسة ، ومن ساس ويسوس ومسوس)

٥ - (جل ماتراه الآن مما يسميه العالم إسلاماً فهو ليس بإسلام وإنما حفظ من أعمال الإسلام « صورة » الصلاة والحج ومن الأقوال قليلاً صرفت عن معانيها . ووصل الناس فيما عرض لدينهم من البدع والخرافات إلى الجمود) .

٦ - جنى الجمود على اللغة وأضاع آثار المتقدمين . .

(قال قائل[١] من عدة سنين : إنه ينبغى أن يعين القضاة من أهل المذاهب الأربعة لأن أصول المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها .

وقال إن الضرورة قاضية بأن يؤخذ ببعض الأقوال من مذهب مالك أو الشافعى تيسر على الناس دفعاً للفساد فقام كثير من المتورعين يحوقلون ويندبون حظ الدين) .

٧ - ويقول فى العقل والوجدان (لاتزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الإسلام ولاتزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا . . وعند ذلك يجدون هذا « الكتاب الكريم » فى انتظارهم . . وقد وعد الله بأن يتم نوره . .)

(هنالك يلتقى « العقل » مع الوجدان الصادق « القلب » . . إياك أن تعتقد مايعتقده بعض السذج من أن هناك فرقاً بين العقل والوجدان فى الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة . فإنما يقع التخالف بينهما عرضاً عند عروض العلل والأمراض الروحية على النفوس) .

(العلم الصحيح مقوم الوجدان والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . والدين الكامل علم وذوق وقلب . برهان وإذعان . فكر ووجدان . فإذا اقتصر دين على واحد من الأمرين فقد سقطت إحدى قائمتيه . وهيهات هيهات أن يقوم على الأخرى . ولن يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الإنسان إنسانين والوجود الفرد وجودين) .

(لابد أن ينتهى أمر العالم إلى تآخى العلم والدين على سنة القرآن والذكر الحكيم) .

الصورة الجميلة :

ويرسم الإمام صورة للوجه الجميل للإسلام فى إبداع فقيه عالم بالتاريخ فيقول : (آخذ بيد القارئ الآن . . أدخل به بيتاً من بيوت العلم فأجد جميع هؤلاء سواء فى ذلك البيت يتحادثون

---

(١) يقصد الإمام ماجاء فى تقريره عن إصلاح القضاء الشرعى . فهو يذكر قوله ولا يذكر نفسه .

ويتباحثون . . فالإمام البخارى[١] حافظ السنة بين يدى عمران بن حطان [٢] يأخذ عنه الحديث وعمرو بن عبيد[٣] رئيس المعتزلة بين يدى الحسن البصرى[٤] شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه . وقد سئل الحسن عنه فقال : (لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته) بل أرفع بصرى فأجد الإمام أبا حنيفة[٥] أمام الإمام زيد بن على[٦] يتعلم منه أصول العقائد والفقه ولا يجد أحدهم من الآخر إلا مايجد صاحب الرأى فى حادثة ، ممن ينازعه فيه ، اجتهاداً فى بيان المصلحة ، وهما من أهل بيت واحد) .

ويقول : (والخلفاء أئمة فى الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش . والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة أهل الدين ومن جنود الخلفاء . والدين فى قوته والعقيدة فى أوج سلطانها . وسائر العلماء . . لافرق فى ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر ، فهنالك يشير القارئ المنصف ويقول : هاهنا نعرف كيف يتفق الدين مع المدنية . عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية فى النظر . .)

(إن المسلمين لما كانوا علماء فى دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم . أصيبوا بمرض الجهل فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل وطعمة الطاعم)

«علو فى الحياة وفى الممات»

لخص الإمام فى مذكراته أغراض حياته من مطلعها ليذكر المسلمين أن الجهاد مستمر إلى يوم القيامة . قال رضى الله عنه :

(ارتفع صوتى بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

---

(١) البخارى (٢٥٦) تلميذ الإمام أحمد (وصاحب الجامع الصحيح للأحاديث) أشهر كتاب عند المسلمين بعد القرآن .

(٢) إمام الخوارج الصفرية – وهو يروى أحاديث لأم المؤمنين عائشة .

(٣) زعيم المعتزلة (١٤٤) وقد سموا كذلك إما لاعتزال زعيمهم واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ، وإما الاعتزال قول الأئمة ، وإما لاعتزال مرتكب الكبيرة عن المؤمنين – وهم يقولون إن الإنسان مختار لأفعاله .

وعمرو زوج أخت واصل بن عطاء وفيه قول أبى جعفر المنصور :

(كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد)

(٤) الحسن البصرى (١١٠) تلميذ سعيد بن المسيب إمام التابعين . وهذا زوج بنت أبى هريرة وكان الحسن إماماً فى الزهد والورع وهو شيخ عمر بن عبد العزيز وقاضيه .

(٥) أبو حنيفة (١٥٠) الإمام الأعظم لأهل السنة .

(٦) زيد بن على استشهد سنة ١٢١ إذ خرج على هشام بن عبد الملك .

وهو إمام الشيعة الزيدية . تعلم عليه أبو حنيفة ومن الفقهاء من يقولون إن المذهب الحنفى أقرب إلى المذهب الزيدى من مذاهب أهل السنة الأخرى .

الأول :

تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وإنه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعثاً على البحث فى أسرار الكون داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل . كل هذا أعده أمراً واحداً . وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم وطلاب فنون هذا العصر ومن فى ناحيتهم . .

أما الأمر الثانى :

فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الصحف أو فى المراسلات بين الناس . .

وهناك أمر آخر :

كنت من دعاته . . وذلك هو التميز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . . دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم ، وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون . .

ولا أبرح أدعو إلى عقيدتى فى الدين . . وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة . وقد قارب . أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال .

فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن نعنى به الآن) .

* * *

أما تحرير الفكر وفهم الدين على طريقة السلف فقد أصبحا شعارين علميين للمسلمين فى كل مكان . وعلا شأن المنهج السلفى ، وغدا فقه زعيميه ابن تيمية وابن القيم أداة إصلاح للقوانين فى الزواج والطلاق اللذين نادى محمد عبده بإصلاح قوانينهما فأصلحت كما طلب . وبلغت الشريعة من نفوس الأمة مبلغ النص عليها فى أول أبواب الدستور سنة ١٩٧١ .

وأما اللغة العربية فأمست لغة رسمية للأمم المتحدة تدور حول الأرض فى المؤتمرات العالمية .

وبلغ الدين والشريعة واللغة مبالغها بالنص عليها فى دساتير الأمة العربية كافة .

أما الغراس الذى ينبغى أن نعنى به الآن وهو أمر الحكومة والمحكوم فقد عهد فيه هو ، والقدر من بعده ، إلى تلاميذه ، فرادى ومجتمعين ، مختلفين ومؤتلفين ، فصنعوا لمصر وللعالم العربى صنيعهم الخالد وجعله (سعد زغلول) شعاره الرسمى ونفذه بعزم وتصميم (الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة) .

وفرضت مدرسة الإمام وجودها على أجهزة الحكم . (سعد – فتحى – رشدى – ثروت – عدلى – حشمت – محمد محمود) وعلى المجلسيْن التشريعييْن (حسن عاصم حسن عبد الرازق ثم سعد وعدلى وعلى شعراوى) وعلى الصحافة (الجريدة ومديرها لطفى السيد وتلاميذه هيكل وطه حسين ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى ومحمود عزمى) وفى الأدب (حافظ إبراهيم ومصطفى المنفلوطى وعبد الرحمن البرقوقى والبشرى ومصطفى صادق الرافعى) وفى الجامعة (لطفى السيد وعبد الوهاب النجار ومحمد الخضرى) وفى الأحزاب (محمود سليمان رئيس حزب الأمة ثم محمد فريد رئيس الحزب الوطنى ثم سعد زغلول ثم عدلى يكن ومحمد محمود) وفى الاقتصاد (طلعت حرب) وفى الإصلاح الاجتماعى (قاسم امين ومدرسته) أما الازهر ففيه محمد شاكر ومحمد مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق . . وآخرون فى شتى المجالات .

وأقامت المدرسة – بالحفاظ على الدين والوطنية – وحدة متينة العرى من خلال التعدد والتنوع كالصرح الذى تحمله أعمدة متعددة ، وتنفتح نوافذه فى كل وجه . فأحدثت ثورة سنة ١٩١٩ . وظفرت لمصر بالاستقلال والدستور والنماء الاقتصادى الذى جعلها تداين انجلترا فى منتصف هذا القرن بنصف مليار جنيه استرلينى .

التلاميـذ

سعد زغلول :

عبد الخالق ثروت – عدلى يكن – حسين رشدى – محمد محمود – محمد مصطفى المراغى – مصطفى عبد الرازق .

بلعت إنجلترا أوجها بانتصارها فى الحرب العالمية الأولى . ونهضت مصر بدورها العالمى فى الثورة على المنتصر ، والسبق بالظفر باستقلالها سنة ١٩٢٢ ، على أيدى مدرسة مثّل فيها الإمام طور جبل يستجم ليهجم . ومثل فيها سعد وصحبه جيل الانفجار السياسى عند إمكان حدوثه .

والشيخ هو القائل (إذا تم تكوين الجنين ظهر الرأس) وسعد هو القائل (لا يمكننا أن نصل إلى

الكمال التام . ولكن يجب أن نصل إلى الكمال الممكن . فإذا لم نصل إليه لانكون من المقصرين) .

وكان طبيعياً – وقد نُتج سعد فى مدرسة الشريعة أن تكون العدالة مجاله الحيوى فيكون أعلى صوت فى تاريخ بلاده طلب العدالة وقضى بها وكافح من جرّائها ، ليحقق ماللشعب من حق «العدالة على الحكومة » كما ورد فى وصية الإمام التى نبه عليها فى أقواله الأخيرة . .

كان سعد كما قال عن نفسه أول إنسان فى المحاماة انتخب قاضياً فى الاستئناف سنة ١٨٩٢ ثم مستشاراً سنة ١٨٩٣ ومعه قاسم ويحيى إبراهيم ، فرأس فى دائرته أكبر الفقهاء الأوربيين بمصر (دى هلس[١] وهالتون[٢]) ، وذات يوم كان الأستاذ الإمام عضو اليسار فى دائرته (١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٧) .

وفى ذلك العام ظفر بشهادة الحقوق من جامعة باريس بدرجة متفوقة !

وعمل فى القضاء المدنى والجنائى فى عظمة وقدرة عقلية وعلمية ليس لها نظير فى كل أعصر القضاء .

هو خطب الخطباء غير مدافع وهو رئيس محكمة النقض الجنائى التى خطت للقضاء الطريق . ورئيس دائرة الجنايات الكبرى الذى يعقد دائرته فى (الإسكندرية) حيث وقعت الواقعة لتتم العبرة فى محل الواقعة ولم تكن أنشئت دوائر الجنايات المتنقلة من القاهرة حتى ذلك الحين – وهو رئيس الجلسة الذى ينتدب نفسه للتحقيق من القاهرة إلى الإسكندرية إلى رشيد لتقضى الدائرة ببطلان اعتراف المتهم بالقتل – مع إصراره على اعترافه – وهو صاحب الأقضية المدنية التى ماتزال تلمع فى تاريخ القانون كالنجوم ، ومنها (كفالة حق الدفاع – سقوط حصانة الإجراء الحكومى إذا كان ...دياً[٣] اختصاص المحاكم المختلطة مقيد والأصل اختصاص القضاء الوطنى[٤] – الشرط الجزائى – المسئولية المدنية – المسئولية الجنائية – استرداد الحصة المبيعة – الشفعة . . إلخ) .

وكان فى دوائر الاستئناف الأخرى الرجال الذين جعلوا القضاء الوطنى عملاقاً وهو وليد : قاسم

---

(١) صاحب كتابين مشهورين فى القانون المدنى والطعن الجنائى .

(٢) أستاذ سابق بمدرسة الحقوق له مؤلف قيم فى القانون المدنى .

(٣) دفعت الحكومة الدعوى بالأمر العالى الذى يعفيها من المسئولية عن أى ضرر بسبب أعمال مصلحة الرى . وقال سعد فى الحكم

(لايمكن أن يكون المراد بهذه الأعمال الإجراءات الاستبدادية المخالفة للعدل والقانون والمضرة بحقوق الأفراد وليست فيها مصلحة عامة للناس لأن ذلك لاينطبق بوجه من الوجوه على مبدأ الحكومات العادلة ولا يصح أن تتضمنه شرائعها) .

(٤) اجتمع فى هذه القضية سعد رئيساً والهلباوى وعبد العزيز فهمى محاميان وأخذ سعد بدفاع الهلباوى وعبد العزيز فهمى ثانى النقباء وأول رئيس لمحكمة النقض المدنية وثالث الثلاثة فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ .

أمين – حسن عاصم – على فخرى – أحمد عفيفى – محمد مجدى – حشمت – ثروت (النائب العمومى) – رشدى – يحيى إبراهيم – محمد سعيد – يوسف شوقى – ورئيس المحكمة فتحى زغلول[١]

ويتجلى منطق التاريخ فى إجلاله بين زملائه إذ ترفعه كفاياته إلى الزعامة ، فيرأس الوزارة بين وزارتين رأس أولاهما زميله يحيى إبراهيم الذى اشتهر فى التاريخ بأنه سقط فى الانتخابات التى أجراها فلم ينتخب نائباً ، فى حين ظفر سعد بما يشبه الإجماع فى دوائر مصر جميعاً . كما رأس الثانية عضو اليسار فى دائرته – أحمد زيور – الذى اشتهر فى التاريخ بقبول الإنذار البريطانى والتخلى عن السودان إذ رفضها سعد .

* * *

عين سعد فى العام التالى لوفاة أستاذه[٢] وزيراً للمعارف سنة ١٩٠٦ مقاربة من الإنجليز للرأى العام بعد مذبحة دنشواى ثم وزيراً للحقانية ، فأنشأ نقابة المحامين وكان الهلباوى أول النقباء . واستقال سعد احتجاجاً على التحقيق مع الزعيم محمد فريد سنة ١٩١٢ .

وفى العالم التالى سنة ١٩١٣ انتخبته الأمة نائباً عن دائرتين فى الجمعية التشريعية وانتخبته الجمعية للوكالة لأن تعيين الرئيس كان حقًّا للحكومة ، كما كان للحكومة حق تعيين وكيل ثان ، فاختارت عدلى يكن (وكيل الجمعية الخيرية الذى سيصير رئيساً لها حتى وفاته) .

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها قام أعضاء الجمعية الخيرية بأعظم الأدوار فى ثورة سنة ١٩١٩ وفى حكم الأمة فيما بعدها .

ففى محاضرة للمستشار الإنجليزى برونيت أعلن سعد اعتراض الشعب على القوانين الإنجليزية المراد فرضها على القضاء – والحرب العالمية الأولى دائرة الرحى – ثم قدح شرارة الثورة ومعه على شعراوى وعبد العزيز فهمى يوم ذهبوا فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى القائد الإنجليزى المنتصر ، يطلبون استقلال مصر وجلاء الجيش البريطانى وتألف منهم وصحبهم الوفد المصرى للمطالبة بالاستقلال بزعامة سعد .

وفى الوقت ذاته طلب رشدى – وكان على رأس الحكومة – أن يسافر ومعه عدلى للمفاوضة على استقلال مصر فى لندن ، وأن يسافر الوفد برياسة سعد لعرض قضيتها على مؤتمر الصلح فى فرساى

---

(١) يقول رشيد رضا عن سعد وفتحى وصلتهما بالإمام (كانا يرجعان إليه فى تنازعهما ويكونان معه كالولد أمام والده والتلميذ بين يدى أستاذه) .

(٢) وضع سعد تلاميذ الإمام تحت جناحه : محمد يوسف – وقد اختاره عضواً فى الوفد المصرى – وعثمان يوسف والمنفلوطى وحافظ والكاظمى ومصطفى صادق الرافعى وعبد الرحمن البرقوقى ، وعين المنفلوطى بالجمعية التشريعية ومجلس النواب وكان حافظ يسمى نفسه شاعره مثلما كان شاعر الإمام .

بباريس . ورفض الإنجليز فاستقالت الوزارة فى ١٩١٩/٣/١٦ . فقبض الإنجليز بعد أيام على سعد ومحمد محمود وحمد الباسل وإسماعيل صدقى ونفوهم إلى مالطة . فاندلع لهيب ثورة سنة ١٩١٩ . فرجع الإنجليز يراوضون رشدى[1] ، فألف الوزارة وفيها عدلى وثروت كما أذنوا لسعد بالسفر إلى فرنسا فسافر والوفد . وقدمت لجنة ملنر مشروعها ورفضه سعد ، وعاد لتستقبله الأمة استقبال الفاتحين فى إبريل سنة ١٩٢١ ، ثم ينفيه الإنجليز مرة ثانية إلى جزيرة سيشل فجبل طارق .

وفى منفاه رفض ولاية الملك حينما عرضه عليه دسيس من إنجلترا ، وكان يتحدث فى أحاديثه الخاصة عن إعلان الجمهورية .

وفى هذه الأثناء استقال رشدى وألف عدلى الوزارة ففاوض ومعه رشدى وقطع المفاوضات . فطلب الإنجليز إلى ثروت تأليف الوزارة فاستغل ببراعة مقطوعة النظير نفى سعد واستقالة عدلى ، وشرط لتأليف وزارة أن تعلن إنجلترا من جانبها استقلال مصر — مع تحفظات تجرى عليها المفاوضات فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بإعلان استقلال مصر .

وأعد ثروت الدستور لأول مرة فى هذا القرن وتآمر الملك على حياته فاستقال .

* * *

أُجريت الانتخابات بعد صدور الدستور فانتخب حزب سعد بما يشبه الإجماع فرأس الوزارة فى ٢٨ يناير سنة ١٩٢٤ ، فسافر إلى لندن للمفاوضة وقطعها ورجع يلزم الملك احترام الدستور ، والتزم قاعدة (الملك يسود ولا يحكم) وأن الحكومة تحت رقابة البرلمان هى التى تحكم البلاد ، وتعين الموظفين والسفراء وأعضاء مجلس الشيوخ المعينين . وتحرج موقف الملك . فاحتكما إلى النائب العمومى للمحاكم المختلطة فان دان بوش وكان بلجيكيا ومن الدستور المصرى ماله أصل بلجيكى .

وربما كان فى فقرة مما جاء فى كتابه : (عشرين عاماً فى مصر) مثال لجهاد الزعيم :

(كم أعجبت يومئذ (فبراير ١٩٢٤) بقوة الذاكرة ومتانة الحجة وبلاغة البيان التى يمتاز بها هذا الشيخ السبعينى العمر على الرغم من آلام المرض والنفى ، بل كم دهشت لإرادته التى لاتقاوم . . كانت الجموع الحاشدة تهتف آنة بعد أخرى وتطلب سعداً فخرج مرة بعد أخرى وشكر المتظاهرين وأخيراً . . ختم حديثه معى قائلا : إذن إلى الغد الساعة العاشرة فى سراى عابدين . وعندما دخلت صباح اليوم التالى إلى مكتب الملك كان يداعب مسطرة صغيرة لقطع الورق . وكل حركاته تدل على التأثر . أما زغلول باشا فكان جالساً أمامه ممتلكاً حواسه ويتحدث فى هدوء وحكمة . . فأدركت فى الحال خطورة الأمر . . ولمحت من خلال العبارات الرقيقة أن تنافراً يوشك أن ينقلب إلى كارثة إذا لم

(١) رأس الوزارة ٤ مرات ورأس لجنة الدستور . وكان وكيلها أحمد حشمت .

يعالج بدون إبطاء . وسمعت زغلول باشا فى أثناء المناقشة التى كان يتزايد نشاطها يقول : (إذن أستشير الشعب) نظرت من الشباك الزجاجى العريض إلى الفضاء الواسع بميدان عابدين . (حيث الأمة محتشدة) . ثم قلت فى نفسى : كلمة واحدة من هذا الرجل السياسى الذى يملك اليوم مصر كلها روحاً وجسداً – كلمة واحدة تكفى لتحويل تلك الحياة الهادئة إلى منظهر رهيب من مناظر غضب الشعب .

وأبدى فان دن يوش رأيه مؤيداً سعد زغلول – وذكر أنهما إذ انصرفا معاً من قصر عابدين قال له سعد : (لقد أنقذت مصر من أزمة شديدة وشديدة جدًّا) [١] .

وكان القصر الملكى يدير المؤامرات[٢] للخلاص من سعد كما دبرها ضد ثروت فى الأزهر .

* * *

وأخيراً حل عقدة الملك وسعد قتل سردار الجيش (الجنرال لى ستاك) فى ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤ بمؤامرة أخرى ، وإنذار إنجلترا مصر باحتلال مرافقها وإعلانها فصل السودان عن مصر . فاستقال سعد رافضاً الإنذار البريطانى ، واستبد الملك بالحكم وأجريت انتخابات كانت بداية الانتخابات المزورة . ومع ذلك ظفر سعد بالأغلبية فعطل الملك انعقاد المجلس الجديد نحو عام ، فانعقد المجلس من تلقاء نفسه فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ .

وفى يناير سنة ١٩٢٦ عاد إلى الائتلاف مع سعد ، زملاؤه عدلى وثروت ومحمد محمود . وأجريت انتخابات فاز فيها سعد وفاز آخرون فى دوائر تركها لهم – واجتمع مجلس النواب برياسته ففوض عدلى[٣] فى رياسة الوزارة ثم استقال عدلى سنة ١٩٢٧ ففوض سعد ثروت[٤] وفى وزارته مات سعد[٥] سنة ١٩٢٧ . فاستقال ثروت فولى الوزارة مصطفى النحاس (وزارته الأولى) وعادت

(١) وأين موقف الخديو مع محمد عبده فى مارس سنة ١٩٠٥ من موقف عمه مع تلميذ محمد عبده فى فبراير سنة ١٩٢٤ وصدق أمير المؤمنين على : (يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم) .

(٢) مات المنفلوطى سنة ١٩٢٤ فى يوم شرع فيه المجهولون ! فى قتل سعد ، وكان كيوم الحشر عبر عنه شوقى فى مرثيته له :

اخترت يوم الهول يوم وداع ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد قدماً تشيع أو حفاوة ساعى

(٣) كان عدلى باشا بنزاهته وحكمته ومكانة أسرته وإصهارها للعائلة المالكة من قديم هو الشخصية المقابلة لسعد باشا فى نظر السلطة وهو ابن إبراهيم يكن باشا وعماه خليل خليل باشا يكن وكيل الداخلية فى وزارة شريف باشا سنة ١٨٨١ وداود باشا يكن وزير الحربية .

ولى عدلى الرياسة ثلاث مرات سنة ١٩٢١ ليفاوض الإنجليز وسنة ١٩٢٦ بناء على طلب سعد فى ائتلاف سنة ١٩٢٦ ثم سنة ١٩٣٠ بناء على طلب الأمة لتجرى انتخابات نزيهة لمجلس الشيوخ .

(٤) عاد من بعثات الحقوق ليتدرج فى النيابة والقضاء إلى وظيفة النائب العام ثم تولى وزارة العدل ثم رياسة الوزارة سنة ١٩٢٢ لما استقال عدلى باشا ثم وليها بناء على الاتفاق مع سعد بعد أن استقال عدلى سنة ١٩٢٧ .

(٥) لم يكن شوقى طوال حياته مع محمد عبده ولا مع سعد أو الوفد ولم يلحقه الملك فؤاد بحاشيته ، فبقى حرا ولم يتخلف عن=

الأحزاب إلى الاختلاف . فولى الرياسة محمد محمود[٤] (الوزارة الأولى) وانفتح طريق طويل تفاقم فيه الخلاف الحزبي والفساد الملكي حتى قامت الثورة سنة ١٩٥٢ .

أقامت مصر التماثيل لسعد فى القاهرة والإسكندرية وحواضر الأقاليم وسمت الميادين باسمه وجعلت بيته المسمى ببيت الأمة وضريحه فى جواره أثرين رسميين .

وظاهر مما سردناه أن زملاء سعد فى الجمعية الخيرية كانو شركاء جهاد موفق تحقق فيه ماسماه الإمام من ربع قرن (الغراس الذى ينبغى أن نعنى به الآن) .

الشيخ محمد مصطفى المراغى

قال الشيخ رشيد رضا فى تأريخه للإمام (كان أخلص إخوانه ومريديه يرثون لما يكابده فى سبيل إصلاح الأزهر ويأسفون على إضاعة وقته الثمين فيما يعتقدون أنه عبث لايفيد ، فيجمعون على لومه وتثبيطه وإقامة الحجج على استحالة إصلاح هذا المعهد حتى يقتنع ، ويحسبون أنه ترك ، فإذا هم يرونه فى اليوم التالى قد عاد إلى عمله أنشط ماكان وأشد همًّا واهتماماً فقال بعضهم لبعض فى غيبته إننا لنعجب أشد العجب من الأستاذ فى علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بأن عمله هذا تعب غير مجدٍ ثم يعود إليه ؟ فقال لهم أعلمهم بحاله وهو سعد زغلول إن الأمر ليس باختياره ، وإنما هو شعور وجدانى بأنه مسخر لهذا العمل أو ملهم به من الله تعالى فهو لايستطيع تركه .

أخبرنى الأستاذ نفسه هذا الخبر . ثم ذكره لى سعد باشا نفسه إذ طالبته يوماً بإصلاح الأزهر فى عهد رياسته للحكومة مع زعامته للأمة . قال لى : إذا كان الشيخ قد عجز عن إصلاح الأزهر على ماآتاه الله مما لاندرك شأوه فيه علماً وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل . قلت : إنه كان معارضاً من الأمير ومن الشيوخ . وأنت لايعارضك أحد . قال : إن العلة فى نفس المكان . هو غير قابل للإصلاح . فذكرت له مارواه لى الأستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه . قال هذا صحيح إن عمله كان وجداناً دينيًّا لااختيار له فيه) .

= تأبين سعد ، قال يصف سعداً وهو يطلب الاستقلال من الإنجليز سنة ١٩١٨ بعد انتصارهم فى الحرب العالمية الأولى :

أعلمتم قبل موسى من يد ... قذفت فى وجه فرعون عصاها

وطئت ناديه صارخة ... شاه وجه الظلم ياقوم وشاها

(١) محمد محمود باشا ابن محمود سليمان باشا وكان محمد باشا فى مطالع حياته عضوا بالجمعية الخيرية وأبوه عضو قديم – رأس محمد باشا الوزارة سنة ١٩٢٨ وأقلق بال الملك فؤاد ، ورأسها ثلاث مرات سنة ١٩٣٧ – ١٩٣٨ .

والحق أن مشاغل سعد تركزت فى وضع مصر كأمة ودولة بين دول العالم وجلاء الإنجليز . وأن ولايته الفعلية للحكم لم تزد عن شهور تسعة من ٢٨ / ٢ / ١٩٢٤ إلى ٢٣ / ١١ / ١٩٢٤ ، وأمراض الأزهر بحاجة إلى المتنطسين – وأصابع القصر لا تكف عن العبث بالأزهر .

من أجل ذلك كان من منطق الأشياء ، بعد إذ مات الإمام ، أن يصلح الأزهر نفسه . وأن يحمل تلاميذ الإمام فيه تبعاتهم فى إصلاحه . فجرى الشيخ محمد شاكر شوطاً فى أعقاب موت الإمام ثم أسكت إعلان الحماية على مصر صوت الإصلاح حتى بعثه الشيخ المراغى من مرقده .

تعلم المراغى فى الأزهر على الشيخ أبى خطوة . وحضر دروس التفسير للإمام . ومن إعجاب الإمام به فى امتحان العالمية رشحه للقضاء فى السودان . فوليه فى نوفمبر من نفس العام ١٩٠٤ .

وفد الشيخ المراغى إلى مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٨ وفود الأستاذ الإمام من قمة القضاء . فهو قد رجع من وظيفة قاضى قضاة السودان ١٩١٩ لوظيفة القضاء الشرعى ثم رياسة المحكمة الشرعية العليا فقضى فى أشهر قضايا العصر باقتدار .

ولما ولى المشيخة وجه اهتمامه من أول يوم إلى عمله فى رياسة لجنة قوانين الأحوال الشخصية التى انتهت أعمالها بصدور القانون ٢٥ لسنة ١٩٢٩ ونشر بحثاً له مع مذكرته الإيضاحية ثم اتجه إلى إعداد قانون للأزهر والتعليم فيه . واتفق مع الملك فؤاد على أن يعد القانون ليبدأ تطبيقه فى الموسم الدراسى ١٩٢٩ / ١٩٣٠ – فبقى نحو عام ، حتى إذا أيقن من مقاومة الملك فؤاد للإصلاح استقال[1] .

وكان طبيعيًّا أن يلى مكانه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى – وهو صاحب الخطاب المفتوح الى الخديو سنة ١٩٠٥ لتبدأ الحملة التى انتهت باستقالة محمد عبده – ليكون اللسان الفصيح لصاحب القصر سنة ١٩٣٠ ، وذراعه الطويلة فى إيذاء أنصار الشيخ المراغى فى إصلاحه . ففصل من الأزهر آخر تلاميذ الإمام الشيخ الزنكلونى ومدرسته وهم اثنان وسبعون من العلماء الأحرار طلاب الإصلاح

---

(١) أدلى الشيخ المراغى بحديث للإذاعة فى الذكرى السادسة والثلاثين لوفاة الإمام محمد عبده – وكان أيامئذ يفسر بعض السور – فقال بين ماقال (ليس فى رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ محمد عبده أو يقاربه فى تطبيق آى القرآن على سنن الاجتماع وفى تصور هدى القرآن وفهم أغراض الدين العامة) . . وقال (ودعته ليلة سفرى للسودان . . فسألنى هل معك رفقاء السفر ؟ فقلت نعم بعض كتب فقال أو معك كتاب الإحياء ؟ فقلت نعم . قال الحمد لله . . . ثم قال أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً . وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . . .

وداعبنى مرة إثر خروجى من امتحان شهادة العالمية فقال هل تعرف تعريف العلم فقلت نعم . . فقال اسمع منى تعريفاً مفيداً : العلم هو ماينفعك وينفع الناس ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ فقلت لا . قال : إذن أنت لست بعالم فانفع بعلمك تكن عالماً . .) .

(يتصدرهم عبد الجليل عيسى – دراز – شلتوت – العدوى – حامد محيسن – فكرى يس) .

وأشبهت الليلة البارحة . فأدلى بحديث للصحف قال فيه إن العلماء الذين فصلوا كانوا كباراً فى السن ضعافاً فى العلم .

ونافح الهلباوى عن الأزهر أمام القضاء . فاختار أولى قضاياه قضية أصغر عالم بين علماء الأزهر الأحياء تتلاحق شهادات الشيوخ جميعاً على أنه أعلم نظرائه (محمود شلتوت)[١] .

ثم أرجع المفصولين إلى وظائفهم بعد سنين بكفاح شعبى كف بطش الملك ، فدخل الهلباوى بموكليه على الشيخ الأحمدى فى مكتبه إيذاناً بعصر جديد ، عاد فيه الشيخ المراغى سنة ١٩٣٥[٢] ليبقى سنوات عشرة أصلح فيها قوانين الأزهر وطرائق التدريس ما استطاع ، وأنشأ كليات اللغة العربية والأصول والشريعة ، وأوفد البعوث الأزهرية إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وأحيا تقليد الأستاذ الإمام فى التدريس بالرواق العباسى ، وألقى الدروس على الملك فاروق – منذ تولى تعليمه وهو ولى عهد .

وتلاحقت دروسه فى المساجد الجامعة من جامع عمرو إلى الأزهر إلى مساجد القاهرة والاسكندرية ثم جمعت فى مؤلفات[٣] ثم وافته المنية سنة ١٩٤٥ فخلف من بعده مصطفى عبد الرازق فى المشيخة وفى رياسة الجمعية ومن بعد مصطفى عبد الرازق ولى لطفى السيد رياسة الجمعية . حتى وفاته سنة ١٩٦٢ فكان آخر تلاميذ الإمام فى رياستها .

---

(١) أعد الدفاع فى هذه الدعوى المؤلف بمساعدة الشيخ عبد الجليل عيسى وهما الآن زميلان عضوان فى مجمع البحوث بالأزهر .

(٢) احتفلت الأمة احتفالاً عاما بعودة المراغى إلى الأزهر وألقى كلمة جامعة فى الاحتفال أطال فيها الحديث عن الإمام . من ذلك قوله (علينا ألا ننسى ذلك الرجل الذى نشر الحياة العلمية والنشاط الفكرى ووضع المنهج الواضح لتفسير القرآن الكريم وعبّد الطريق لتذوق سر العربية وجمالها وصاح بالناس يذكرهم أن العظمة والمجد لا يبنيان إلا على العلم والتقوى . . . ذلك هو الأستاذ الإمام محمد عبده . . . ومن الوفاء له بعد مضى هذه السنين . . أن نجعل لذكراه المكان الأول فى هذا الحفل) والشيخ محمود شلتوت يقول (إن الشيخ المراغى ماخرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره عن أن يكون تلميذ الأستاذ الإمام محمد عبده) .

(٣) ألف المراغى كتاب الأولياء والمحجوزين ، وبحثاً فى ترجمة القرآن ورسالة فى موضوع الزمالة الإنسانية قدمه لمؤتمر الأديان ، وبحثاً فى أسانيد قانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ وبحوثاً لغوية ودروساً فيها تفسير لسور لقمان والحجرات والحديد والعصر .

الشيخ مصطفى عبد الرازق

مثل مصطفى عبد الرازق فكر الإمام فى التجديد وأسلوبه وفلسفته فبقى «ولده الأديب» وبلغ شأوه حتى صار أجمع أهل عصره لخلال الرحمة وأنداهم يداً وأكثر الشيوخ انفتاحاً على الفكر العالمى وخدمةً للفلسفة الإسلامية وخلد سيرة أستاذه بمحاضرات رفيعة الأسلوب ألقاها على مدار أشهر فى الجامعة .

ولد سنة ١٨٨٥ لحسن باشا عبد الرازق الذى تعلم فى الأزهر ورجع إلى القرية ليدير أملاك عائلته . وكان أبوه وجداه لأبيه قضاة [1] .

ولما بلغ مصطفى حدود اليفاع كان كما كتب عن نفسه (طالباً من صغار الطلبة أيام جاء الشيخ محمد عبده إلى الأزهر ، وكان أساتذتنا – عفا الله عنهم – لايفتأون يذمون لنا الشيخ . ويمثلونه خطراً على الدين وأهله داهما – فتتأثر بذلك عقولنا الطفلة وكنت أفر بدينى من أن ألقى الأستاذ أو أسمع لدروسه مع أنه صديق لوالدى . حضرت درسه مرة لأشهد كيف تشيه وجود الملحدين وتشيه معها عقولهم وقلوبهم . فلما رأيت الرجل فى الرواق العباسى وسمعته يفسر كتاب الله قلت منذ ذلك اليوم إن كان هذا إلحاداً فأنا أول الملحدين .

إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهدوا الثقلان أنى رافضى)

ولما تخرج فى الأزهر سنة ١٩٠٨ بعثته أسرته لمزيد من الدراسة فى فرنسا . فأعد رسالة عن الإمام الشافعى وراسل صحيفة «الجريدة» من فرنسا وفجأته الحرب العالمية الأولى هنالك ، ثم رجع فتولى رياسة القسم العربى بالجامعة المصرية ، وعمل فى إدارة الأزهر ، وحقق الإنجليز معه إذ مر «ببيت

---

(١) كان حسن باشا عبد الرازق عضو مجلس الشورى عن محافظة المنيا مات فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وهو والد الباشوات حسن (الصغير) ، ومحمود ، ومصطفى ، وعلى وإسماعيل وكانت دارهم خلف قصر عابدين ، منتدى للفكر الإسلامى والوطنى ، وكانوا فى غالب أمرهم مناقضين لفكر صاحب القصر – ومنها خرج كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) سنة ١٩٢٥ – وهو قاضى شرعى – فهدم آمال الملك فؤاد فى خلافة المسلمين بعد أن ألغيت فى تركيا سنة ١٩٢٣، فقدم الشيخ على متهماً بالخروج على القانون فنزعت هيئة كبار العلماء منه شهادة العالمية الأزهرية وزالت صفته لولاية القضاء الشرعى . أتاح الهلباوى له بعد أعوام من فصله أن يترافع – كمحام شرعى – معه فى قضية معارضة من الأمير محمد على – الوصى على العرش فيما بعد – ضد الملك فؤاد فى حكم استصدره ليحل محل الأمير فى نظارة وقف وقفته أمه . وكان الملك قد عزل من الأزهر عشرات العلماء أكبرهم الزنكلونى وأصغرهم تلميذه محمود شلتوت ، وعمل شلتوت محامياً مع على عبد الرازق والهلباوى فى القضية وانتصروا على الملك . وكان المؤلف رابعهم فى هذه القضية . وقد ولى على باشا وزارة الأوقاف ممثلا لحزب الأحرار الدستوريين بعد أخيه مصطفى .

الأمة » وترك بطاقة لزوج الزعيم سعد زغلول عند نفيه للمرة الثانية ، مع أن عائلة عبد الرازق كانت من أعمدة حزب الأحرار الدستوريين تخاصم سعدا – وراجعه الوزير لينكر الذهاب ، فأقرّبه مرة ثانية ففصله . وعلم رئيس الوزراء – ثروت – فاحترم وفاء التلميذ الصغير للتلاميذ الكبار على الإمام وأعاده ولما صدرت صحيفة السياسة ثم السياسة الأسبوعية صارتا منبراً لآرائه [١] .

ترجم إلى الفرنسية مع المسيو ميشيل برنار سنة ١٩٢٥ رسالة التوحيد (للأستاذ الإمام) وأثره ظاهر فى تقديم برنار للترجمة كما هو ظاهر فى كتاب المستشرق تشارلز أدامز عن الإسلام والتجديد فى مصر .

ولما أنشئت جامعة القاهرة تولى تدريس الفلسفة الإسلامية فبلْور فكر الإمام فى « استقلال الفلسفة الإسلامية بمصدريها ، وهما أصول الفقه التى وضعها الإمام الشافعى فى أواخر القرن الثانى ، وعلم الكلام » ووجه تلاميذه ليسبروا أغوارها ، ومنهم الدكتوران على سامى النشار – وعثمان أمين ، فصار الأول شيخ ماسموه (مدرسة الإسكندرية الحديثة) والثانى أستاذ الفلسفة فى جامعة القاهرة .

ولى مصطفى باشا وزارة الأوقاف مرات باعتباره عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين ، ولما مات شيخ الأزهر المراغى لفت موته الأنظار إلى تعيين التلميذ الآخر لمحمد عبده ، وآثر مصطفى عبد الرازق مشيخة الأزهر على الوزارة والباشوية ، فنزل عنهما .

* * *

كان يمتاز بالانسجام الكامل فى مخبره ومظهره وخُلْقه وخُلقه ويسره وورعه يقول له طه حسين إذ كان يدفع نفقات الدراسة الجامعية لتلاميذ يعجزون عن دفعها «توشك ألا تجد شيئاً من مرتبك آخر الشهر» ويقول لطه : (أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى) !

ويقول طه حسين عن أسلوبه (أنت لاتجد معنىً نافراً أو فجًّا لم يتم نضجه قبل أن يعرف عنه ، وأنت لاتجد لفظاً نابياً عن موضعه ، أو كلمة قلقة فى مكانها ، وإنما كان كلامه يجرى هادئاً مطمئناً كما يجرى الجدول النقى) .

وطه حسين وهيكل ومحمود عزمى ومنصور فهمى والزنكلونى والمراغى وشلتوت رجال شاركتهم معارك حياتهم دار العلم التى اشتهرت فى مصر فى النصف الأول من القرن . دار آل عبد الرازق .

* * *

كانت مشيخة مصطفى عبد الرازق للأزهر سنة ١٩٤٥ (١٣٦٤) تالية لمشيخة المراغى الثانية التى طالت عشر سنوات حاول فيها الشيخ المراغى الإصلاح ما استطاع ، فسار على دربه نحو عامين حتى

---

(١) له فى الأخيرة نقد لإذع للشيخ الظواهرى بتاريخ ١٠ / ٦ / ١٩٢٦ ونقد أشد للشيخ محمد بخيت بتاريخ ٣٠ / ٣ / ١٩٢٦ تعقيباً على نقده كتاب (الإسلام وأصول الحكم) وفى النقدين يتابع منهجه فى الاعتزاز برجال العلم والارتفاع بهم عن خدمة أصحاب السلطان .

مات سنة ١٩٤٧ كمثله فى ميدان إصلاح الأزهر .

وفى مشيخة المرحوم الشيخ محمود شلتوت تلميذهم الفكرى وتلميذ الزنكلونى الفعلى صدر قانون سنة ١٩٦١ فأنشأ فى الأزهر كليات للهندسة والطب والزراعة والتجارة . وصير كلية الشريعة كلية للشريعة والقانون .

وبهذا التجديد للهيكل تغير وجه الأزهر لكنه بقى على عهده الممثل العظيم لروح مصر وفى كل منها أثر من الآخر .

وبقى محمد عبده فى التاريخ الحديث كالجبل العالى الذى يملأ الأفق ويدعو الناظرين للصعود . أو كرافد للنيل ، جديد ، يسقى شاربيه من ينابيع الحنيفية السمحة ، فيوضاً صافية من الحرية لا التعصب ، والاجتهاد لا التقليد ، والاتباع السلفى لا الابتداع غير المسئول .

* * *

روى الشيخ رشيد رضا عن الشيخ المراغى قوله (أعتقد أنه إذا جاوزنا عصر السلف لا نجد رجلا رزق فهما فى هداية القرآن ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الإمام محمد عبده . لقد وهبه الله شروط الإمامة الدينية جميعها) .

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن النبى ﷺ : «إن الله عز وجل يهب هذه الأمة على رأس كل مائة سنة رجلا يقيم لها أمر دينها » وقال (فكان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز وأرجو أن يكون على رأس المائة الثانية الشافعى رضى الله عنه) .

ونحن نرجو أن يكون على رأس المائة الثالثة عشرة محمد عبده .

فهارس الكتاب

فهرس الأعلام

(ا)

إبراهيم حسن ١١٤
إبراهيم عثمان يوسف ١٤٩
إبراهيم عبد القادر المازنى ١٤٨
إبراهيم اللقانى ٣٤
إبراهيم الهلباوى ١٥ – ١٦ – ٤٩ – ١٣٧
إبراهيم المازنى ١٢٨
إبراهيم اليازجى ١٢٨
ابن أبى الحديد ٤٧
ابن تيمية ١١٠ – ١٥٨
ابن جنى ٤٦
ابن خلدون ١١٦
ابن عباس ٩٥
ابن عربى ٤٨
ابن عطية ٩٨
ابن كثير ٩٨
ابن نباتة ٤٦
أبو شراب ٤٤
أبو جعفر المنصور ١٤١
أبو الحسن الشاذلى ٩
أبو حنيفة ٩٩ – ١١٠
أبو على الفارسى ٤٦
أبو خطوة ١٤٨
أبو السعود ٩٨
أبو نواس ٥٠
أحمد أمين ١٣٥
أحمد إبراهيم ١٢٧
أحمد بن حبل ١١٠
أحمد تيمور ٩٧
أحمد حلمى ١٣٧
أحمد السكندرى ١٣٥
أحمد شفيق ٧٦
أحمد قمحة ١٣٨
أحمد ضيف ١٣٥
أحمد ماهر ٩٧
أديب إسحق ٣٤
إسماعيل (الخديوى) ٢٤
إسماعيل صبرى ٩٧ – ١٢٧
أم المصريين ٥٦

(ب)

البارودى ٢٧ – ٣٢
البخارى ١٦١
بخيت (الشيخ) ٩٥
برنار ميشيل ١٧٢
بسمارك ١٣٢
بشار ٩٢
بلنت ٣٣ – ٤١ – ٨٥–١٣٥
البيضاوى ٩٨ – ١٠٣
بيكون ١٥٩
بيهقى ٤٧ – ١٠٣

(ت)

ترمانينى ٩٦

توفيق (الخديوى)٢٤
تولستوى ١٢٩
تيلر (القس) ١٢٨

(ث)

ثروت (عبد الخالق ثروت) ١٤٤ – ١٦٥ – ١٦٧

(ج)

جرجانى ٧٧
جرفيل ٥٨
جعفر الصادق ٥ – ٩٩
الجلال الدوانى ١٧
الجلال السيوطى ٩٨ – ١٠٣
الجلال المحلى ٩٨
جمال الدين ١١ – ١٥
جوردن ٤١
جورست ٦١
جيزو ٢٢

(ح)

حافظ إبراهيم ١٣٧ – ١٤٥
الحسن البصرى ١٠٣
حسن عاصم ٦٣ – ١٢٣
حسن العطار ١٤
حسن الطويل ١٥ – ٢٢
حسن عبد الرازق (الكبير) ٧٣ – ١٢٤
حسن عبد الرازق (الصغير) ٧٣ – ١٤٥
حسن المرصفى ٧٧
حسونة النواوى ٢٣ – ٧٦ – ١١١
الحسينى (أحمد) ٧٤
حسين كامل (السلطان) ٦١
حسين المرصفى ٢٧
حشمت ١٦٥
حفنى ناصف ٩٧ – ١٤٥
حمد الباسل ١٦٦
حمودة عبده ١٤٢

(خ)

خديجة برهان ٦١
خليل حمادة ١٣٨
خليل شريف ٣٩
خليل مطران ١٣٨ –
خليل يكن ١٦٧

(د)

داود يكن ٣٣ – ١٦٧
درويش خضر (الشيخ) ٩
درويش سيد أحمد ٧٢
ديماس (إسكندر) ٥٧

(ر)

الرازى (الفخر) ٤٧
راشد ١٣٩
رشدى – (حسين) ١٣٧ – ١٦٥
رشيد رضا ٩٧ – ٩٨
رفاعة رافع ١٤
رياض باشا ٢٧

(ز)

زرفوداكى ١٣٧
الزنكلونى ١٥٥
زيد بن على ١٦١

زيد (الأبيانى) ٩٧

(س)

سرجيوس (القمص) ١٥٥
سعد زغلول ١٦ – ١٣٨ – ١٦٣
سعد بن أبي وقاص ٢٢
سعيد بن المسيب ١٦٢
السكندرى ١٣٥
سليم الحجازى ٢٤
سليم البشرى ٧٦
سليمان البستانى ١٢٨
سلطان باشا ٣٢
سيد كامل ٧٠
سيرافى ٤٦

(ش)

الشاذلى ٩
الشافعى ١١٠
الشربينى ١٣٩ – ١٤١
شريف باشا ٣١
الشريف الرضى ٤٦
شكيب أرسلان ٤٣ – ١٣١
شفيق العظم ١٢٣
شوقى ٢٩ – ١٤٧ – ١٧٢

(ط)

الطبرى ٤٦
طلبة باشا ٣٢
طه البشرى ٩٧
طه حسين ١٤٧ – ١٧٢

(ظ)

ظافر الطرابلسى ٩
الظواهرى (الأحمدى) ١٣٩ – ١٧٢

(ع)

عباس العقاد ١٤٨
عباس الأول ٣٢
عباس الثانى ٧٥
عبد الحميد الزهراوى ١٣٠
عبد الجبار (القاضى) ٤٧
عبد الرحمن الرافعى ٣٣
عبد الرحمن شكرى ١٤٨
عبد الرحمن النواوى ٨٩
عبد السلام المويلحى ٢٤
عبد العزيز فهمى ١٦٤ – ١٦٥
عبد العزيز البشرى ٩٧
عبد العزيز جاويش ٩٧ – ١٣٥
عبد القادر المغربى ١٤٧
عبد الكريم سلمان ٧٦ – ٧٧ – ١٤٠
عبد اللطيف يوسف ١٤٩
عبد الله النديم ٣٤
عبد المحسن الكاظمى ٩٧
عبد الملك بن مروان ١١٦
عبد الوهاب النجار ٩٧
عثمان يوسف ١٤٩ – ١٦٥
عثمان أمين ١٧٢
عثمان رفقى ٣٢
عثمان ماهر ٦٧
عدلى يكن ٧٢ – ١٦٥
عرابى ٣٢
العضد الايجى ١٧
على بن أبي طالب ٤٦

على إبراهيم (باشا) ٧١
على إبراهيم رامز ١١٤
على ذو الفقار ٩٨
على فخرى ٦٦
على النشار ١٧٢
على سرور الزنكلونى ٩٧ – ١٥٥
على شعراوى ١٦٥
على الجارم ١٣٥
على عبد الرازق ٩٧ – ١٧٠
عز الدين بن عبد السلام ١٤٢
على الليثى ١٢٨
على رفاعة ٤٤
على مبارك ١٥ – ٢٣
علوى باشا ٩٧
عليش ٢١
عمر بن الخطاب ٢٢
عمر لطفى ٣٦
عمر سلطان ٣٣

(غ)

الغاياتى ١٤٨
الغورى ٦١

(ق)

قاسم أمين ٦٦
قدرى باشا

(ك)

كتشنر ٧٦
كرومر ٤٢ – ١٣٧

(ل)

لطيف سليم ٢٤ – ٦٨
لطفى السيد ٩٠ – ١٢٠ – ١٧٠
لوبون ١٣٤ – ١٥٩

(م)

مالك بن أنس ٤٦ – ١١٠
مجاهد ٧
محمد أنور السادات ٥٨
محمد البسيونى ١٥
محمد راسم ٦٨ – ١٤٣
محمد الخضرى ١٣٩
محمد سعيد ٦١
محمد شاكر ٩٧
محمد صالح ٩٧
محمد طلعت حرب ٧١
محمد بن عبد الوهاب ٥
محمد عثمان يوسف ١٤٩
محمد كرد على ١٢٧
محمد ماهر ٧٦
محمد عاطف بركات ١٢٤
محمد المدنى ٩ – ١٠
محمد مصطفى المراغى ٩٧ – ١٦٨
محمد محمود ١٦٨
محمد المهدى ٢١ – ١٣٩
محمد هرون ٩٧
محمد يوسف ١٤٩ – ١٦٥
محمود سليمان ٧٣
محمود شلتوت ١٧٠
محمود عزمى ١٧٢
محى الدين حماده ٣٩

مصطفى كامل ٩٧ – ١٣٩
مصطفى عبد الرازق ١٤١ – ١٧١
مصطفى العنانى ٩٧
مصطفى فهمى ١٣٧
مصطفى لطفى المنفلوطى ٩٧ – ١٦٥
مفيد (الشيخ) ٤٦
ملك حفنى ناصف ٧١
المنشاوى (باشا) ٧٠ – ٧١ – ٧٤
منصور فهمى ٧٠

(ن)

نابليون ٨٧
نازلى (الأميرة) ٤٩
نعمة الله خورى ٢٢
نوبار ٤٣
نوردو (ماكس) ١٣٢

(هـ)

هانوتو ١٣٢
هدى شعراوى ٥٦ – ٦٧
هرتنجون ٤١
هيجو ٩٠
هيكل (محمد حسين) ٧١

(و)

واصل بن عطاء ١٦١
الواقدى ٤٥
وفا زغلول ٢٨

(ى)

يحى إبراهيم ١٦٥
يوسف شوقى ١٦٥
يوسف النابلسى ٧٦

فهرس المراجع

١ – فتاوى الشيخ محمد عبده : مخطوطان بدار الإفتاء

٢ – أرشيف الجمعية الخيرية الإسلامية

٣ – تفسير المنار : محمد عبده

٤ – رسالة التوحيد : محمد عبده

٥ – الإسلام والنصرانية : محمد عبده

٦ – شرح نهج البلاغة : محمد عبده

٧ – مذكرات الإمام محمد عبده : جمع طاهر الطناحى

٨ – الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : محمد عماره

٩ – مجموعة مقالات العروة الوثقى : محمد عبده – جمال الدين

١٠ – تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : رشيد رضا

١١ – دروس فى القرآن الكريم للإمام محمد عبده : طاهر الطناحى

١٢ – الإسلام دين العلم : للإمام محمد عبده (جمع) طاهر الطناحى

١٣ – الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والمتكلمين : د . سليمان دنيا

١٤ – الأستاذ الإمام محمد عبده : عبد المنعم حمادة

١٥ – محمد عبده : الأستاذ أحمد الشايب

١٦ – محمد عبده : محاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق

١٧ – محمد عبده : عباس محمود العقاد

١٨ – الفن الصحفى عند الشيخ محمد عبده : مخطوط ٣٣٧ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر . دكتور أحمد عبد الرحمن عيسى .

١٩ – محمد عبده أديبا وناقدا : مخطوط ٣١٣ كلية اللغة العربية جامعة الأزهر السيد تقى الدين السيد .

٢٠ – رائد الفكر المصرى محمد عبده : عثمان أمين

٢١ – الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية ١٨٨٣ – ١٩٣٣	: مقالات إبراهيم الهلباوى بك
٢٢ – زعماء الإصلاح – محمد عبده	: أحمد أمين
٢٣ – فى الفكر السياسى والمجتمع العربى	: الشيخ محمد عبده ، دكتور محمد عبد المعز نصر
٢٤ – تاريخ حياة الشيخ محمد عبده	: المنار المجلد الثامن
٢٥ – المحامون وسيادة القانون	: عبد الحليم الجندى
٢٦ – جمال الدين الأفغانى	: عبد الرحمن الرافعى
٢٧ – عصر إسماعيل	: عبد الرحمن الرافعى
٢٨ – الثورة العربية والاحتلال الإنجليزى	: عبد الرحمن الرافعى
٢٩ – مصطفى كامل	: عبد الرحمن الرافعى
٣٠ – فى أعقاب الثورة المصرية	: عبد الرحمن الرافعى
٣١ – مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢	: عبد الرحمن الرافعى
٣٢ – شعراء الوطنية	: عبد الرحمن الرافعى
٣٣ – فى المرأة	: عبد العزيز البشرى
٣٤ – محمد فريد	: عبد الرحمن الرافعى
٣٥ – حافظ وشوقى	: طه حسين
٣٦ – الرد على الدهريين	: جمال الدين الأفغانى
٣٧ – تناسق الدرر فى تناسب السور	: جلال الدين السيوطى
٣٨ – من آثار مصطفى عبد الرازق	: على عبد الرازق
٣٩ – سعد زغلول من أقضيته	: عبده حسن الزيات
٤٠ – تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى	: تيودورز وذستين (ترجمة على أحمد شكرى)
٤١ – تاريخ الأدب العربى	: أحمد الإسكندرى : أحمد أمين – على الجارم – عبد العزيز البشرى – أحمد ضيف
٤٢ – التأمين وموقف الشريعة الإسلامية فيه	: محمد السيد الدسوقى
٤٣ – سعد زغلول (سيرة وتحية)	: عباس العقاد
٤٤ – قاسم أمين	: د . ماهر حسن فهمى

٤٥ – محمد رشيد رضا أعلام العرب رقم ٢٢ : د . إبراهيم العدوى

٤٦ – شاعر العرب عبد المحسن الكاظمى : د . محسن فياض

٤٧ – حقائق الأخبار عن دول البحار : إسماعيل سرهنك

٤٨ – شكيب أرسلان : د . أحمد الشرباصى

٤٩ – جوانب من الصلات الثقافية بين مصر وإيران : مقال للدكتور محمد السيد جمال الدين

٥٠ الشيخ محمد عبده والثقافة الفارسية

٥١ – الشيخ المراغى بأقلام الكتاب : أبو الوفا المراغى

٥٢ – مذكراتى بعد الهجرة : محمد فريد

٥٣ – دور المرأة فى حركة التطور العالمى : السيدة هدى شعراوى

٥٤ – رجال عرفتهم : عباس العقاد

٥٥ – الإسلام والتجديد : تشارلز أدامز (ترجمة عباس محمود)

٥٦ – الأعلام : الزركلى

المحتويات

	الصفحة
مقدمة السلسلة	٣
تقديم	
الباب الأول :	٥
بزوغ نجم	٧
الشيخ درويش	٩
فى الأزهر	١٣
السيد جمال الدين الأفغانى	١٥
حاشية على الدوانى	١٦
امتحان العالمية	٢١
الثورة الأولى والنفى الأول........	٢٤
الباب الثانى :	
من قة إلى قة	٢٧
الوقائع المصرية	٢٧
الثورة الثانية	٣١
النفى الثانى	٣٦
بيروت – ١٨٨٢ – ١٨٨٨	٣٧
باريس – لندن – العروة الوثقى ..	٣٩
العودة إلى بيروت	٤٣
نهج البلاغة للإمام على	٤٦
الباب الثالث :	
الشيخ الرئيس	٤٩
فى القضاء	٥٢
تحرير المرأة	٥٥
الجمعية الخيرية الإسلامية	٥٨
حسن عاصم	٦٣
إصلاح التعليم	٦٥
على فخرى	٦٦
قاسم أمين	٦٦
الهلباوى	٧٠
مدرسة الزعماء	٧٠
إصلاح الأزهر	٧٥
إصلاح القضاء الشرعى	٧٨
اقتراح لجنة لاستخراج قانون للمعاملات من الشريعة	٨١
النيابة العمومية والقضاء..........	٨٤
فى الدستور	٨٥
الباب الرابع	
شيخ الإسلام	٨٧
فصل فى المفسر	٩١
وحدة الدين أصول خاصة بالإسلام	١٠١
التكافل الاجتماعى	١٠٤
الأمر بالمعروف	١٠٦
قوم كانوا مع الله فكان الله معهم	١٠٧
استقلال الإرادة وحرية الفكر ...	١٠٨
فصل فى المفتى	١٠٩
مع القضاء (أحكام الإعدام) ..	١١١
فى شئون الأسرة	١١٣
متفرقات	١١٥
تحليل الإبداع . التأمين	١١٥

	الصفحة
الاستعانة بالكافرين	١١٦
الذبح	١١٧
لبس القبعة	١١٧
الصلاة خلف إمام من مذهب آخر	١١٧
البدع	١١٧
الدوسة	١١٨
تعدد الزوجات	١١٨
التصوير والنحت	١٢١
الباب الخامس :	
خيانة الخديوى	١٢٣
الزعيم فى البرلمان	١٢٣
فى مصر وخارج مصر	١٢٧
ابن أبيه	١٣٦
لكل أجل كتاب	١٤٣

	الصفحة
الباب السادس :	
فى التاريخ	١٤٥
وصية ومبادئ	١٥٤
الصورة الجميلة	١٦٠
علو فى الحياة والممات	١٦١
التلاميذ	١٦٣
سعد زغلول	١٦٣
ثروت	١٦٦
عدلى	١٦٦
رشدى	١٦٦
محمد محمود	١٦٦
الشيخ محمد مصطفى المراغى	١٦٨
الشيخ مصطفى عبد الرازق	١٧١
فهارس الكتاب	١٧٥
فهرس الأعلام	١٧٧
فهرس المراجع	١٨٣

للمؤلف

١ - القرآن والمنهج العلمى المعاصر	طبعة دار المعارف
٢ - أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام	طبعة دار المعارف
٣ - الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الأصول	طبعة دار المعارف
٤ - مالك بن أنس إمام دار الهجرة	طبعة دار المعارف
٥ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة	طبعة دار المعارف
٦ - الإمام جعفر الصادق	طبعة دار المعارف
٧ - الإمام محمد بن عبد الوهاب	طبعة دار المعارف
٨ - الإمام محمد عبده	طبعة دار المعارف
٩ - الشريعة الإسلامية	طبعة دار المعارف
١٠- أئمة الفقه الإسلامى	طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
١١- المحامون وسيادة القانون	طبعة دار الاتحاد العربيين
١٢- توحيد الأمة العربية	طبعة دار الثقافة
١٣- تطوير التشريعات	طبعة وزارة الثقافة
١٤- مجموعة مذكرات قضائية جزء أول	طبعة إدارة قضايا الحكومة بمصر
١٥- مجموعة مذكرات قضائية جزء ثان	طبعة إدارة قضايا الحكومة بمصر
١٦- من أجل مصر البطل أحمد عصمت	طبعة المطبعة التجارية المدنية

أبحاث منشورة

١٧- الشريعة الإسلامية مصدر رئيسى للتشريع	مجلة إدارة قضايا الحكومة ١٩٧١
١٨- الشريعة الإسلامية كمصدر أساسى للتقنين	مجلة إدارة قضايا الحكومة السنة العاشرة
١٩- نحو تقنين للمعاملات المدنية للفقه الإسلامى	المؤتمر الإسلامى بلندن سنة ١٩٧٦
٢٠- نحو تقنين للمعاملات المدنية من الفقه الإسلامى	مقدم لمؤتمر مجمع البحوث بالأزهر ١٩٧٦
٢١- نحو تقنين للعقوبات المدنية من الفقه الإسلامى	مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٦
٢٢- حول صياغة الدستور الإسلامى	مجلة إدارة قضايا الحكومة سنة ١٩٧٩
٢٣- المسئولية المدنية فى النظام الاشتراكى	مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩٦٧
٢٤- تطوير التشريعات فى الجمهورية العربية المتحدة	مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩٦٦
٢٥- توحيد الأمة العربية بتطوير شرائعها	مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩٦٦
٢٦- الشبهات التى تثار حول تطبيق الشريعة	مقدم لمؤتمر الرباط سنة ١٩٧٦
٢٧- دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب	مؤتمر محمد بن عبد الوهاب سنة ١٩٧٩
٢٨- بطلان التفتيش بغير إذن	المحاماة سنة ١٩٣٣
٢٩- تصرفات السفهاء قبل الحجر	المحاماة سنة ١٩٣٧
٣٠- التشريع العربى	كتاب الوطن العربى دار المعارف .

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٣٠٠٩
الترقيم الدولى	٢-١٩٩٣-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٧ / ٣٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

هذا هو الكتاب الأول من هذه السلسلة الجديدة (أعلام الإسلام) ويجيء الإمام محمد عبده فى مقدمة هؤلاء الأعلام . لما تنطوى عليه شخصيته من الثراء الفكرى ، بما مكنه من حمل راية الإصلاح والأخلاق قرابة مائة عام . ففى شخصيته من النظام والتدفق ، ومن الوضوح والمنطق ماميزه فكره بالأصالة والعالمية معاً .

ويقدم الكتاب مواقف الإمام المتعددة . فى كثير من جوانب الفكر والدين والمجتمع . ومشاركته الإيجابية فى صنع كثير من معالم حياتنا المعاصرة . وذلك برؤية موضوعية مخلصة تليق بعظمة هذا الرجل الذى آلت إليه مشيخة الإسلام عن جدارة واستحقاق واقتدار .

ص
٤٠٠